حي...
العطارين

سامح خيري

الكتاب: حي... العطارين
المؤلف: سامح خيري

رقم الإيداع: ١٠٥٣ / ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-493-942-6
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٣

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

شمس
للنشر والإعلام

رواية

حي... العطارين

من مذكرات مصطفى رافع

سامح خيري

إهـداء

إلى أُمي (سُميَّة): من وضعتْ كفي في كفها وعلَّمتني أن أُمسك بقلمٍ من رصاص، وتبسَّمتْ وأخبرتني أن هناك ممحاة لتصحيح أخطاء البدايات، فاطمئن قلبي للكتابة وآنست القلم.

إلى أبي (خيري): من شجَّعني أن أكتب بالقلم الجاف، وعلَّمني أن الحبر مسؤولية كالكلمة وثباته فوق الورق كالعهد، فاحترمتُ الكلمة قائلاً وكاتبًا وصَدقتُ القول للأوراق.

... إلى روحيكما السلام، يا جذوري الضاربة في أرض الوطن عبر الزمان والمكان.

إلى زوجتي الحبيبة (هايدي): ساق شجرة عمري وساقيتها، عيني التي أرى بها العالم، ويميني التي أكتب بها... سكن روحي من احتوتني بمودة ورحمة.

إلى أولادي (فريدة وياسين): زينة الحياة، طفولتي الممتدة، وفروعي التي ألمس بها السماء، وعصاي التي أَتَوَكَّأ عليها وَأَهُشُّ بها علي حُلمي.

... إليكم أُهدي كتابي الأول، فأنتم دُرر لِعقد كانت فرائده أُناسًا ممن أحببت وأدين لهم بالفضل، ولعلِّي أُرجئ إهدائي لباقي فرائده، ليكن لي دافعًا ومني وعدًا بألا يكون كتابي الأخير. وليتسنى لي العرفان ولو بجزء من الفضل والجميل - كعقد حول عنقي يزينها - لوجوه وأسماء كثيرة عرفتها فعلَّمتني وعِشتُ معها فألهمتني.

شُكر وتقدير

إلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل بوقت أو جُهد أو إبداع...

- مصطفي فتحي: الإنسان الصديق، الصحفي الصادق، يمين الخير في أرض الله... لولاك يا صديقي ما كان هذا الكتاب... شُكرًا لدعمك ومحبتك.

- إسلامٍ شمس الدين: الصديق الجديد القديم، الناشر المثقف، والمدقِّق الأمين، الناصح المخلص، المُعلم الخلوق... شُكرًا لمجهوداتك وثمين وقتك وعطائك.

- مراد نخلة: الصديق المُخلص والداعم، أول القارئين والمؤمنين... لك كل الحب والتقدير يا صديقي وتوأمي.

- حمزة نِمرة: صديق الدرب ورفيق بدايات الإبداع في ضواحي الإسكندرية، صوتي وصوت ملايين مثلي... شُكرًا لدعمك ووجودك الدائم يا صديقي.

- رامي خليل: أول من قرأني وقرأ لي ودعمني، من نقدني بعين الصديق وقال لي: استمر. وتعلمتُ منه الكثير.

- محمد يحيى: صديق الطفولة والصِّبا، من يعلم تمامًا تفاصيل العطارين كما جاءت على لسان راويها. أدامك الله لي يا صديقي

- وليد عبيد: صديقي الذي لا يعرفني، الرسَّام الفنان الذي أوحى لي بألوانه ولوحاته فأضاف لفكري وعقلي، فاتخذتُه وفنه خليلاً وإن كان لا يعلم بوجودي... وجب شُكرك يا صديقي على

إسهامك في رفع معدلات التذوق الفني وإعمال العقل وتجسيد الإنسانية والفلسفة في جميل فنك.

- حسام حسين: الأديب والشاعر والأخ الأكبر الذي تعلمت منه ما أقرأ وكيف أقرأ ومعنى الأدب، من ناقشني في محفوظ وإبداعه وأبعاده... شُكرًا لبصمتك في تكويني.

- محمد السيد: الشاعر السكندري والأخ والسند، الملاك الموّكل بالمهمومين والمنشغلين بالإبداع، المتجسِّد في شاعر تغار منه العامية بقوافيها... شُكرًا يا صديقي لوجودك كلما احتجتُ إليك، ولدورك الذي لن أنساه في دعمي.

- محمود طرابيلي: الفنان الراقي الصبور، صاحب غلاف الرواية، من حقَّق لي حلمي الذي حلمت وجعله واقعًا ملموسًا بين أياديكم تراه أعينكم... شُكرًا لك لموهبتك وجُهدك ووقتك.

- محمد الزلباني: الأديب الصحفي، صاحب التوجيهات المهذبة المؤثرة والملهمة... شُكرًا يا صديقي لدعمك ولذاك القبس الذي ألقيتَ في بصيرتي.

- أنتِ / أنتَ: يا من تقرأ كتابي هذا، لك مني كل الحب والتقدير إذ سمحتَ لي من وقتك لتدخل معي في عالم نسجتُه بروحي قبل عقلي.

... من كل قلبي شُكرًا لكم جميعًا..

في البدء كان الأبيض...

خفيفٌ في ماهيته كالروح والحياة.

الأبيض هنا هو سيد الألوان. فهو الأساس الذي بدأ منه كل شيء.

ولكي يكون... أتتْ من بعده سائر الألوان لتُعلن عن وجوده، فلا وجود وسط وحدة تعجز عن إدراك الوجود، ولا كيان لوحيد لا يستشعر وجوده شيءٌ سواه.

ولكي تتحقق كينونته؛ كان يجب أن يكون له نقيضٌ وغريمٌ يُبرِز معناه ويظهره، فلا وجود كامل دون تناقض، ولا كيان تام دون صراع...

فكان الأسود...

الأسود بثقل وقعه كالجسد والوجود

فكان أكثر الألوان واقعية في الحياة، كونه أكثرها وقوعًا في نفوس البشر التي كُتِب عليها أن تحارب السواد الذي صبغها.

إلا أن الأسود يحاول جاهدًا أن يصارع من أجل البقاء ... صراعٌ في ظاهره يحمل رغبة الأسود في محو كل ما هو أبيض، وفي باطنه صراعٌ يُبقي للأبيض قيمة وهوية وسط السواد العظيم.

أما هنا؛ فهم يحاولون أن يطمسوا الأسود عمدًا وكأنه جريمة

أو عار.. يطمرونه في أنفسهم ويجعلونه لون الحِداد والفراق؛ رغم اجتهاده للبقاء.

فيما يخبِّئون الأحمر في ثلاجات حفظ دماء المتبرعين، فلا يُرى إلا قليلاً فوق شفاه الممرضات اللواتي يحاولن بفِطرتهن كسر رتابة الزمن.

وإن كنتُ أكاد أجزم أنهم يخشون اللون الأحمر، فقرروا أن يبقى حبيسًا كما يحبسون شهواتهم، وقيَّدوا معه الرغبة وجعلوه مُحرَّمًا في قُدس محراب الأبيض.

ويطلون بعض الأسقُف والجدران بالأزرق، تمامًا كما قرَّر الله أن يطلي سمائنا المُطلة عليه ليُبقي الأزرق هو اللون الفاصل الواصل بين الشك والإيمان... حيلة ذكية وكأنهم يُهيِّئون الزُوار لرحلةٍ قريبة إلى السماء.

والأصفر نادر ندرة الذهب، وجب التنقيب عنه، فلا تسمع وسواس همسه، فالصمت يخيم على المكان.

في غُرفتي كل شيء ناصع البياض؛ بياضٌ يملأ العين بالفراغ والقلب بالوحدة، فالأبيض صافٍ حتى الفراغ ونقيٌ إلى حد العزلة وباهتٌ يليق بالموت ومقدماته التي حتمًا ستؤول نتائجه إلى اتشاح السواد، ليبقى الصراع الأزلي الأبدي بين الأبيض والأسود قائمًا.

هنا بمقرُبة من وسط العاصمة الفرنسية (باريس) في مستشفى (سانت جريجوار) المتخصصة في الطب النفسي والعصبي؛ يحاول الأطباء متابعة حالتي، أو بالأحرى معاناتي مع الصَرع...

ووسط بياض دامس كانت عين الممرضة الفرنسية (راشيل) الزرقاء اللون؛ نافذتي التي أطل منها على الدنيا حتى لا أنسى الألوان. هي من سمحت لي بالكتابة ومرَّرتْ لي أوراقًا وقلمًا بعد مداولات مع الطبيب المعالج، لا لكي أرسم كما اعتدتُ، ولكن اليوم أريدها كي أكتب، أو أقص حكايتي وأكون فيها محايدًا؛ حاضرًا غائبًا أو غائبًا حاضرًا... لأروي سيرتي الذاتية بصيغة مغايرة، ولن أنتصر للحدث بقدر انتصاري للشخوص والإنسان. فالبشر من منظوري أهم من الحدث، فهم من يصنعون الأحداث، بينما الأحداث تُشكِّل نفوسهم، فهي التي تمحص قلوب البشر وتشكِّل ضمائرهم...

وتبقي القصة دومًا هي قصة الإنسان، لا الحدث العارض.

أكتب كي أحكي قصتي من منظور رسَّام مفتون باللون ومُغرم بالمشهد...

في منظوري فإن القصة قد تتشابه مع اللوحة، فكلاهما يحكي شيئًا ما، فالرسام يروي قصته وتجربته في لوحاته ولا يهتم أن تظهر فيها ملامحه، ولكن وجب عليه أن يبرز روحه وأفكاره... لذا قرَّرتُ أن أروي سيرتي كـ(راوي عليم).

ولكن احذروا...

لا تصدِّقوا كذب الرَّسامين لو حاولوا صبغ السماء بلون غير الأزرق، فقط أبصروا ألوانهم واستمتعوا بجمال كذبهم.

ولا تصدِّقوا الكُتَّاب إذا ما قالوا إنهم ينسجون قصصًا وشخوصًا من وحي أفكارهم، إنهم يروون قصصهم تحت أسماء مستعارة... فقط أنصتوا لقصصهم واستمتعوا بكذبهم.

فكل ما أكتبه مما قد عاصرتُه أو نقل خبرةً إليَّ؛ بات في ذهني كلوحاتٍ بحُكم المهنة كرسَّام، أو مشاهد سينمائية بحُكم العشق للصورة والسينما.

وما ستجدونه من تواريخ ليس للتوثيق، إن هي إلا أضغاث أحلام راودتني فوضعتُها كهوامش لسيرتي التي لها جذور في التاريخ كسائر بني البشر، فروع ممتدة من سيقان الآباء وجذور الأجداد.

اليوم قرَّرتُ أن أحكي، وأقص، وأكتب...

فاليوم؛ اليوم فقط؛ أعطوني قلمًا...

أقبض عليه بيُسراي، كما اعتدتُ دائمًا أن أقبض على فرشاتي وألواني. يُسراي التي أعلنت بوضوح تام أنني رجل تجاوز السبعين من عمره، فقد فقدتْ كثيرًا من ثباتها وكثيرًا من نضارتها بفعل الزمن وكأنها تفقد الماء عن عمد لتعود بجسدي إلى صورته الأولى: تراب... تراب يحاول أن يتخلص من الماء

الذي اختلط به وشكَّلنا في أجسادنا الصلصالية. فيبدو أن أول علامات الرحيل هي أن نتبخر. نحن أهل الإسكندرية نؤمن بالماء، نرى فيه الحياة بمعناها المطلق. نغرق في الهواء ولا تتسع صدورنا للمُدن الحبيسة التي لا ترى البحر وقُدِّر لها العُزلة والسجن وسط اليابسة الصلبة.

فاليوم؛ اليوم فقط؛ أعطوني قلمًا...

ذاك الخِلُّ الخائن الوفي. ملعونٌ هو... فكم تلذَّذ وهو يكشف عورة سريرتي طواعيةً، ويهتك ستر سوءة نفسي دون مقاومة مني. واليوم قرر أن يفض بكارة أفكاري على الملأ. لست أدري كيف أقنعني أن أكون كـ(جيشا) أُراهن على بِكر أفكاري لتُطرح على المشاع. فرائحة الحبر فوق الورق تثير إلهامي وكأن صوتًا يطنُّ في عقلي، كذاك الصوت الذي يدفع الكثيرين من البشر لزيارة العيادات النفسية، أسمعه بوضوح شديد، وليس لي إلا الإنصات والانصياع له...

قلمٌ قد استبدلتُ به فرشاتي التي كم امتطيتُها محاربًا بها الشمس حتى هربتْ وادعت الغروب ودماؤها تملأ الآفاق، وأنا أُصارع الأيام كي تمر... وكم أمسكتُها سيفًا قتلتُ بها الحاضر الرتيب والواقع الممل، فلم أسقط يومًا من فوق ظهرها فارسًا ولم تسقط يومًا من يدي سيفًا.

وها هو قلمي بين يدي أحفر به نفقًا ضيقًا أدق من أنبوب الحبر الذي يمر بداخله. نفقًا يمر في قلبي، ومن قلبي إلى عالم آخر من صُنع خيالي أطلق فيه بالكاد زفير روحي المنهكة وكأنني أُجري حِجامة لقلبي المعتل كي يتخلص من بعض دمه الفاسد وكثيرٍ من ألمه الموجع.

اليوم؛ اليوم فقط؛ أعطوني قلمًا...

اليوم فقط بين يدي قلمٌ لستُ أدري إن كان يتملكني أم أمتلكه. فأنا لم أعد أثق كثيرًا في تلك الصور التي تبدو واضحة من الوهلة الأولى. فتلك الحفنة من المال القابعة في جيبك أو التي تظهر في رصيد بطاقتك البنكية المرصوصة بعناية في حافظتك؛ هل تبدو لك من الوهلة الأولى أنها أرقام أنت من تملكها؟ أنت من يحدِّد كيف ومتى وفيما ينفقها؟ أم أنها هي من يحدِّد أخر طموحك في الإنفاق؟ أم أنها هي من يحدد أين تسكن وماذا تأكل ونوع سيارتك وإلى أي مستوى اجتماعي تنتمي؟ من يمتلك الآخر ومن يحدد هوية الآخر ومصيره أحيانًا.

وأنت... إن كان قُدِّر لِما أكتب الآن أن يُطبع على صفحات كتاب أنت تحمله الآن. فالصورة تقول إنك إنسان يحمل كتابًا، يملكه. فاعلم أنني بما أكتبه الآن أسعى جاهدًا لامتلاك عقلك بما في هذا الكتاب من أفكار، أسعى إلى أن يمتلكك الكتاب، وحتى تلك

الأفكار التي أدَّعي أنني أحملها وأدَّعي أنني أمتلكها؛ في واقع الأمر هي من تملكني وتحدد لي كيف أسير وتحدد هويتي... فالدين فكرة نحملها وتمتلكنا، والحب فكرة نحملها وتسيطر علينا. نحن من نختار طواعيةً قيودنا بما نسميه ممتلكاتنا المادية والفكرية والروحانية، ونسمح لملايين من فُرشات الرسم أن تلوِّن هويتنا بما نقتنع به أو ندعي انتمائنا اليه، فكل صورة نراها قد تحمل تأويلات وانعكاسات كثيرة مهما بدت واضحة من الوهلة الأولى.

اليوم؛ اليوم فقط؛ أعطوني قلمًا...

اليوم؟؟؟ !!!

أي يوم؟؟... أهو الحاضر كما علَّمونا. أكذوبة كتلك الأكاذيب التي ملأوا بها عقولنا وأشبعوا بها فطرتنا كل يوم، فالحاضر لا وجود له، والزمان ليس إلا ماضٍ قد وقع ومستقبل نختلسه لنصنع منه ماضيًا جديدًا.

وإن كان عقلك لا يتقبل هذا؛ فلتجرِّب معي... تعالَ نرى الحاضر، أمسك بسبابتك وإبهامك أحد أطراف ورق الكتاب، أمسك به جيدًا. أنت الآن في حاضر أنك تمسك ورق الكتاب بيديك... هل استمتعت بممارسة الحاضر؟؟... الآن اترك أطراف الكتاب، ستدرك معي حقيقتين، أولاً: أن الحاضر أصبح

ماضيًا، فأنت كنتَ مُمسكًا في الماضي بأطراف الكتاب، ولو أعملتَ عقلك قليلاً ستدرك أنه لم يكن هناك حاضر، وكل ما في الأمر أننا اختلسنا من المستقبل - باتفاق مُسبق - لحظاتٍ قرَّر الماضي أن يصنعها.

الحاضر لا وجود له، إننا من نبيع مستقبلنا لماضينا، نُقايض الحلم والطموح بالزمن لنصل لمستقبل مستهلك ومسلوب مسبقًا. نبيع الغد البكر لحلم الأمس فيما نسمِّيه تخطيطًا، لتدخل حياتنا في دوائر سيمترية مغلقة مسبوقة الدفع مسبوقة الإحساس، فأنت مستعد بكل مشاعرك لتواجه الغد بكل البدائل: سعادة مسبقة عند النجاح المتوقع أو حزن مسبق عند الفشل المتوقع أيضًا، ليبقى الحاضر أكذوبة فيزيائية أرفض أن أصدقها.

اليوم؛ اليوم فقط؛ أعطوني قلمًا...

وإن كان ثمة غُربة بين أناملي وبين روحي وشرخ قديم أحاول رأبه، فالقلم لن يكون قلمك إن لم تنم أنبوبة حبره المائلة باسترخاء على الوسادة الفطرية المخلوقة له بين سبابتك وإبهامك، لن يكون قلمك طالما يكتب ما لم تملِه عليك روحك ولا تؤمن به... لذا قررتُ أن أمتلك هذا القلم ليسمع نبضي عبر أطراف أناملي، وسأترك بصمتيّ سبابتي وابهامي حول رأسه، سأمدُّ حبره بصدقٍ لينساب على تلك الورقة البيضاء،

فتلك الورقة أطهر مني بالفطرة لم تُلوث بعد بما قد تلوثتُ أنا به، وأرى أنه من الجُرم الإنساني أن نلوِّثها بمزيد من الأكاذيب والادعاءات. فأنا متضامن مع ملايين الورقات البيضاء التي لم تُخلق يومًا لتلوِّثها أكاذيبنا أو أفكارنا غير السوية، ولم تُخلق لنلمِّع بها مرايانا وصورنا، ولم تُخلق لنمسح فيها خطايانا. فطالما قررتَ أن تكتب وأن تملأ بياض الورق؛ إما ان تحترم طهارته وتحافظ على صدق نقائه، أو تصمت.

فاليوم؛ اليوم فقط؛ أعطوني قلمًا...

ولو عبثًا، أرسم به وجه أولادي الذين ألقاهم القدر في أحضان أب لم تكتمل طفولته بعد، ولا زال يبحث كل يوم عن أطلالها... أعطوني قلمًا ولو عبثًا ألوِّن به جدران مدرستي القديمة التي لو اختاروا لها لونًا غير الرمادي لكنتُ أكثر تفاؤلاً، ولكان من أصدقائي اليوم من يستطيع الرسم والتلوين بصورة أفضل... أعطوني قلمًا ولو عبثًا أسرد به أحداث حياتي من الأسعد إلى الأتعس، فلعلّي ألغي منها ما لا يروق لذاكرتي... أعطوني قلمًا ولو عبثًا أرسم به وجه أمي التي غادرتْ دون أن أعانقها عناقًا يليق بفراقها، وأكتب لأبي الذي رحل عني في غُربتي بخط طفولي: أحبك يا أبي... أعطوني قلمًا ولو عبثًا أدوِّن به ما تبقى من إنسانيتي قبل أن تطمس آلة الحياة ما تبقى من ملامحها؛ قبل أن تهلك أشلاء أفكاري في دوامة الجنون التي باتت وشيكة جدًا من باب عقلي.

فاليوم؛ اليوم فقط؛ أعطوني قلمًا...

بل ودفترًا صغيرًا يُشبه ذلك الدفتر الذي يحمله كل المَدينون، يملأون صفحاته بخطٍ صغيرٍ بديونهم، وكأنهم يحمِّلون هذا الدفتر المسكين أوزارهم، بل ويحمِّلونه أسباب فقرهم حينما سجَّلوا عليه ديونهم، وحمَّلوه وِزر قلة حيلتهم حينما كتبوا عليه أحلامهم المؤجلة... وأنا كواحدٍ منهم املأ اليوم فراغات دفتري بديوني، فكل تجاريك الإنسانية أيًّا ما كانت نتائجها وثمارها هي ديون واجبة السداد، فالصالح منها دينٌ علينا أن ننقله ونورثه أبناءنا، والطالح منها حتمًا سندفع أثمانه ودينٌ علينا أن نحذِّر منه أبناءنا.

خذوا أقلامكم...

اكتبوا... اكتبوا... ولا تلوثوا الأوراق بالكذب...

اكتبوا ولو كلمة... ولكن اكتبوها بصدق...

اكتبوا... وإن لم يعطوكم أقلامًا ولا أوراقًا...

وثّقوا أفكاركم وتجاربكم...

اكتبوا كي تحيوا... الكتابة حياة.

التوقيع:

مصطفى رافع سراج الدين

باريس ٢٠٢٠

(١)
العودة

الإسكندرية

١٩٨٢

سيارة مرسيدس موديل سنة ٨٠، تشق طريقها بهدوء نسبي فوق الطريق من مطار النزهة غير المُضاء. وما تلبث أن تنزل من طريق المطار لتأخذ طريقها المؤدي إلى قلب المدينة، يتطلع سائقها في المرآه الخلفية التي تطل على رجل في منتصف الثلاثينيات؛ ذي عينين سوداوين دامعتين بالفِطرة، شفتاه مبتسمتان بشيءٍ ما بين التلقائية والرحابة وأقرب إلى عدم الاكتراث. شعره طويل يغطي أذنيه، وبعض خصلات بيضاء تغلغلت في شعره الكستنائي تعكس بعض البهاء، فلا تعرف أي اللونين غالب أو أيهم يحاول الإقحام.

يبتسم السائق له ليكشف عن سِنّة نحاسية تقع جانب نابه الأيسر العلوي وهو يقول:

– حمد الله ع السلامة يا مصطفى بيه.

يومئ له مصطفى بنفس الملامح قائلاً:

– الله يسلمك يا عطية.

الطريق خالٍ نسبيًا من البشر، إلا من أولئك الذين كتبت عليهم الأقدار أن يبدأوا يومهم قبل الخامسة صباحًا، أو يُوصلون الليل بالنهار.

من النافذة الصور تبدو هادئة إلى حد كبير، عسكري مرور يقاوم صقيع النهار ببدلته العسكرية الصوف التي ستتحول لعبء بعد قليل حينما تُطل الشمس، وبعض أكوام البشر يلاحقون الميكروباصات وأتوبيسات النقل العام كغزلان تنقض على أسد دون مبالاة أو خوف، وبعض عمال النظافة بالكاد يُزيلون آثار معركة ليلة الأمس، أشلاء القمامة تعلن أن الحرب ما لبثت أن هدأت هنا.

إستاد الإسكندرية يقف بمهابة في مدخل المدينة وقد نُقش عليه بعض من الصور البارزة لرجال من الرومان العُراة يمارسون بعضًا من الألعاب الأولمبية إلى جوار ما تبقى من سور الإسكندرية القديمة؛ وكأنهم باقون هنا لحمايتها. وفي الجهة الأخرى قطار يمر بعصبيه وجديه من فوق كوبري محرم بك مدعيًا أنه يوصل أطراف المدينة في محاولة لا بأس بها لتقريب وجهات النظر.

مصطفى لا يزال يضع رأسه على زجاج نافذة السيارة باسترخاء يستمع إلى طنين محركها الواصل عبر الزجاج مع اهتزاز خفيف يحرك رأسه كهدهدة ميكانيكية لرأسه التي لم تتوقف عن متابعة الصور في الشارع وترتيبها بشكل درامي أقرب للعبثية.

تصل السيارة إلى وسط المدينة وهي في لحظات التقاط أنفاسها ما بين الصخبين: صخب النهار المفعم بالأرقام والبنوك وآلاف الموظفين الذين يسعون إلى المالانهاية، وصخب الليل المكتظ بالمحال التجارية والمقاهي والتيارات الفكرية والسياسية المتباينة والتي قد اختارت وسط المدينة حلبة للصراع. فالكل يؤمن أنه من يمتلك وسط المدينة فقد امتلك قلبها ولسانها. ولكن في تلك اللحظات ما بين الليل والنهار؛ يكون وسط المدينة في حالة الحياد التام؛ بل أقرب منه للاستسلام. فعمال النظافة وأصحاب عربات الفول وبائعو الجرائد يتصدرون المشهد، فتكون الفرصة سانحة لهم ولو لسويعات ليكونوا هم أبطال أكثر حلبات العالم شراسة، فلا ينازعهم فيها رأسمالي عتي ولا مثقف متحذلق...

لتنعموا بوسط البلد يا من عِشتم عُمرًا على هامش هذا البلد.

أمام عمارة مصطفى التي يعرفها عطية عن ظهر قلب. بالكاد يجد مكانًا يمكن أن يصطف بسيارته للحظات، ينزل مصطفى بهدوء، يجمع أغراضه بمساعدة عطية الذي يحمل الحقيبة ويهم أن يساعده في حمل بعض اللوحات، بينما يصر مصطفى على حملها دون مساعدة. يقف عطية وهو يفرك كفيه في انتظار أن يدفئها بإكرامية مضاعفة فتوصيلة كتلك في هذا الوقت بسيارة فارهة هذا يعني رقم لا بأس به. حفنة من أوراق البنكنوت المطبوع عليها الرقم عشرة كفيلة بتدفئة يدي عطية

الباردتين... يستدير مصطفى وهو يقول:

- اتوكل على الله يا عطية، هحاسبك بعدين.

بنظرة مِلؤها خيبة الأمل ينظر إليه عطية قائلاً:

- ولا يهمك يا باش مهندز، آجي لحضرتك بالليل؟

يرد مصطفى باقتضاب:

- هتصل بيك يا عطية متجيش من نفسك.

عطية بمزيد من خيبة الأمل:

- حاضر يا باشمهندز، على مهلك.

يدخل مصطفى إلى عمارته ذات الأبواب الخشبية الشاهقة السميكة، منقوش تاريخ انشائها أعلى الباب في دائرة حديدية (١٨٣٥)، كانت مملوكة لوالده، ثم آلت إلى الورثة بعد وفاته. تم بناؤها مع تخطيط ميدان المنشية على يد المعماري الإيطالي (فرانشيسكو منشيني) ومنها اُشتق اسم المنشية القائم حتى الآن.

ما أن تدخل العمارة حتى تجد ذاك الدرج الرخامي الصامد ببهاء أمام الزمن وعوامل التعرية وملايين الخطوات التي قد اعتلته، وجدران قد تبدَّل نقشها إلى قشور تكشف عن عدد محاولات الترميم؛ وعن حجارة البيت البيضاء العريضة.

وككثير من عمارات تلك الحقبة، وعلى أطراف درجها الأمامي قاعدتان رخاميتان يبدو أنهما في يوم من الأيام كانتا تحملان

تمثالين قد نُزعا بعناية من قواعدهما وكأن اللص قد استغرق وقتًا لنزعهما دون تشويه سطح قاعدتيهما.

وفي المنتصف بلاطات تتوسط الفناء لونهما مغاير لباقي الأرضية مشوهة اللون والتركيب لتعلن أن في المنتصف كانت تقبع نافورة قد أُجتثتْ من فوق الأرض. وفي الواجهة مصعد قديم ذو أبواب حديدية جرارة تبدو كمتاريس نجت بأعجوبة من حرب طروادة.

العمارة تشبه كل شيء قد أُتقن في الماضي ثم تعرض للتشويه المتعمد تحت مسمى التطوير ظاهريًا والسرقة وسلب معالم الجمال و(الطلسقة) في واقع الأمر.

يدخل مصطفى إلى العمارة واضعًا حقيبته إلى جواره على الأرض حاملاً لوحاته في يديه، ويبدأ في النداء بصوت مسموع:

- رضا... يا رضا.

يخرج من غرفة قابعة في ممر ضيق يعلو بخمس سلمات عن مستوى الأرض رجل نوبي في منتصف الأربعينات، أسمر اللون، ذو شعر مجعد، يرتدي ثوبًا نوبيًا أبيض، يخرج مهرولاً وصوت نعليه يقرعان بإزعاج في بهو العمارة وهو يقول:

- حمد الله ع السلامة يا مصطفى بيه.

ثم يحمل الحقيبة، بينما يحمل مصطفى لوحاته. يهرول رضا إلى باب الأسانسير كي يفتحه، بينما يتجاهله مصطفى الذي يصعد على السلم بخطوات واسعة حاملاً لوحاته.

بأنفاس متلاحقة يصل مصطفى إلى باب شقته، بينما يصل رضا في الوقت ذاته مع بعض أزيز المصعد القديم، يقف خلف مصطفى الذي يخرج مفتاحًا وحيدًا من أحد جيوب بنطاله ليضعه في كالون باب الشقة؛ ذلك الباب العريض رحيب الصدر ذو درفتين من الخشب وزجاج ملون على الواجهة. وإلى جوار الجرس القديم لافتة نحاسية عريضة كُتب عليها بخط كوفي واثق (الحاج / رافع سراج الدين).

يفتح الباب ليدخل إلى بهو الشقة المتسع والذي ما زال مظلمًا نسبيًا، يدخل رضا من خلفه ليضع الحقيبة، بينما يقف مصطفى متأملا بعض الشيء في أرجاء الشقة.

رضا:

- خدمة تانية يا مصطفى بيه؟

يرد مصطفى وهو يسير في ردهة في أحد جوانب الشقة:

- افتح الشبابيك يا رضا لو سمحت... آه، واعملي قهوة.

يمتعض رضا وهو يتوجه إلى الشبابيك، بينما يدخل مصطفى إلى غرفته ذات السرير الواحد وكومدينو صغير. يُزيل ستائرها ليدخل بعض الضوء إليها، بينما يستلقي على سريره لبرهة، ثم يقوم من جديد ليخلع حذاءه وملابسه إلا من سرواله الداخلي، ويتوجه إلى مشغل الأسطوانات الذي قد صُفَّ إلى جواره عدد من الأسطوانات يختار من بينها أسطوانة لـ(شتراوس)

يضعها لتبدأ موسيقى (هكذا تحدث زرادشت). يرفع صوت الموسيقى بعض الشيء، ثم يخرج متوجهًا إلى الحمام. يبدأ في ملء حوض الاستحمام بماء فاتر، بينما رضا في الخارج قد انتهى من فتح النوافذ، الستائر تتطاير بهدوء في صالة المنزل المتسعة متناغمة مع أبواق سيمفونية (شتراوس) ليتزامن شروق الشمس مع أبواق بداية الخلق التي عبَّر عنها (شتراوس) لتكشف من النوافذ والفرندات مشهدًا بانوراميًا لوسط المدينة وفي الأفق البحر بلونه الأزرق، والضوء يكشف عن الشقة المتهالكة شيئًا ما.

اللوحات النصف مكتملة مرصوصة في كل مكان، وجزء من الشقة ذو طابع كلاسيكي قديم وقطع الأثاث الخشبية الكبيرة القديمة الطراز وبعض الصور الشخصية تعطي ملامح عن الطبقة الأرستقراطية التي كانت تسكن هنا، والجزء الآخر من الصالة يبدو أنه كان تحت التطوير منذ فترة ولكنه لم يُطوَّر بعد أو تمَّ تجاهله بشكل متعمد، وعدد من أدوات الرسم: لوحات، فرش، أنابيب ألوان، أصابع فحم.

رضا في المطبخ يبحث في رفوفه الخاوية ليكتشف أنه خالٍ تمامًا من أي مظاهر الحياة، فلا يمكنه من هذا المطبخ البائس إلا أن يعد فنجانًا من مسحوق التراب المتراكم بكثافة فوق كل شيء، فيخرج من المطبخ قائلاً بصوت غير مسموع: استغفر الله العظيم. ثم يرفع صوته بنبرة نوبية طيبة محاولاً التهرب

من فنجان القهوة قائلاً:

– أنا فتحت الشبابيك يا مصطفى بيه، بعد إذنك أنا هستأذن بقى، عايز حاجة تانية؟

يرد مصطفى من داخل الحمام باقتضاب:

– قهوة يا رضا متستهبلش.

يرد رضا بصوت محاولاً عبثًا الإقناع:

– للأسف يا باشمهندس بُن حضرتك خلصان، وحمدي قافل؛ الساعة لسه خمسة ونص، وإنت عارف الست علية مبتجيش و.....

يقاطعه مصطفى بحزم:

– قهوة يا رضا ودوبل، انزل واتصرّف إحنا في وسط البلد مش في الصحرا. أطلع ألاقيها جاهزة.

يلوِّح رضا غضبًا بيديه:

– أوامرك يا مصطفى بيه.

ويتبعها بتمتمات استغفار وسباب.

من حمامه يسمع مصطفى صوت إغلاق الباب بشيء من الضجر الجبان، وليس هناك داعي لأن يتخيل معالم وجه رضا البائس الذي نزل في الخامسة صباحًا بحثًا عن بُن داكن اللون رقم ٣ تحويج خفيف، وإن كان مصطفى على يقين أن رضا بالطبع لديه بعض القهوة المطحونة في غرفته.

أوشـك حوض الاستحمام على الامتلاء، فيدخل فيه دون جسَّـه أو الاكتراث بالماء الفاتر البارد في هذا التوقيت من اليوم وخاصةً في الشتاء. يُغمض عينيه ويغوص في الماء للحظات مستسلمًا للمياه، فما أشبه إحساس المياه برمال الصحراء الناعمة، كلاهما يستطيع أن يُفرغ ما بداخله من شحنات أو طاقة سلبية، ففي الصحراء كل شيء متساوٍ وهادئ، فيمكن أن تستند بعينيك على هذا البراح الممتد إلى أن تلتقي السماء بالرمال، ويمكنك أن تسير بحثًا عن هذا اللقاء؛ لقاء السماء والأرض، ولن تبلغه أبدًا، فالأرض مهما علت لن تصافح السماء يومًا والسماء مهما دنت لن تُقبِّل الأرض يومًا، ولكن يبقى البصر يشهد لقاءهما دومًا. ففي الصحراء تفقد كثيرًا من الأشياء معاييرها، المسافة، الحجم، والزمن، فكل شيء يتوقف عليك أنت، فبحسب بُعدك عن كل نقطة يمكن أن تقيس الأمور بمعايير مختلفة، فذاك الجبل الرملي الشاهق البعيد يُمكنك أن تراه بعينيك مجرد تلة من الرمال قد تتخطاها بقدمك، فأنت بعيد بالقدر الكافي الذي يسمح لذهنك أن يراه صغيرًا فهو يقدِّر الأمر كيفما يشاء، فكل الصور والانعكاسات قد يكون لها تأويلات كثيرة مهما بدتْ واضحة من الوهلة الأولى.

يخرج مصطفى من مغطسه برأسه شاهقًا وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة فقد نسي أن يتنفس لفترة. وبعد أن يستعيد انتظام أنفاسه يعود للاسترخاء من جديد ويترك وزنه وكتلته للماء

الفاتر ليمر فوق جسده يغمره ويحتويه؛ يخترق خصوصياته بداعي النظافة الشخصية وهو مبرر كافٍ كي يسمح للماء أن يمر بين ثنايا جسده، فالماء مهما بدا مغايرًا عن الصحراء وجفافها إلا أنهما قريبان في جوهرهما إلى حدٍّ كبير، فكلاهما يبدو ناعمًا صافيًا، ينقيا الروح من شوائب الحياة، اتحادهما يكوِّن الجسد الذي تعيش فيه تلك الروح، وكلاهما له وجه قاسٍ، فجنود فرعون التهمهم ماء البحر وقوم موسى التهمهم تيه الصحراء ورمالها، فبرغم هدوئهما إلا أنه وجب الحذر دومًا منهما، اقترب منهما بقدر ما تُنقِّى روحك وتستعيد وميضها ولكن احذر على روحك دومًا من الغرق أو التيه.

يقطع طرق باب الحمام أفكار مصطفى، وصوت رضا من خلفه:

- القهوة جاهزة يا مصطفى بيه.

يرد وهو مغمض العينين مبتسمًا:

- دوبل يا أبو رضا؟

رضا من خلف الباب ملوحًا ضجرًا:

- دوبل يا باشا.

يخرج من الحمام مبتلاً وهو نصف عارٍ ويلف منشفة حول وسطه ليتناول القهوة من رضا وهو يعيد النظر في الشقة التي تبدو منهكة إلى حد كبير، بينما يقول رضا:

- مش برد عليك كده يا باش مهندس؟ أقفل الشبابيك؟

يتجاهل حديثه ويسأله:

- عم بشير إزيه؟

- عجِّز ونزل لعمامي قنا.

يتوجه مصطفى إلى حقيبته ويخرج منها علبة سجائر مارلبورو أحمر، يفتحها ليجد بداخلها ثلاث سجائر، يلتقم إحداها بفمه ويُبقي سيجارتين. يخرج نوتة أرقام الهاتف من حقيبته ثم يتوجه بالحديث لرضا قائلاً:

- يوم الجمعة ابعتلي حد ينضف الشقة، بس من غير ما يشيل حاجة من مكانها، أنا عايز كل حاجة زي ما هي.

- وحاجات العَمرة اللي مكملتش دي: عِلب البوهيه وعدة التوضيب، أصلهم بيلموا تراب وكل مرة بنضف بيـــ...

يقاطعه مصطفى الذي أشعل سيجارته قائلاً:

- سيبها يا رضا، نضفها وسيبها. أنا عارف أنا عايز إيه.

- حاضر يا باشمهندس اللي تشوفه، أي خدمة تانية ولا أنزل أنا؟

يرد مصطفى وهو يتوجه إلى إحدى النوافذ المفتوحة على مصراعيها:

- لأ، اتوكل على الله، بس يا ريت متديش التمام لعلاء على طول، أخَّره كده للظهر. عشان لو لقيته فوق دماغي من صبحية ربنا هنكد عليك وعليه، أنا جاي من السفر وعايز أرتاح.

يرد رضا بلجلجة:

- ما هو علاء بيه هو إلى بيتصل وبيسأل، ولا تحب لما يتصل أقوله إنك لسه مرجعتش؟

- لمَّا... لما... لما يتصل ابقى قوله إن أنا هنا، أنا مطلبتش منك تكدب، كل اللي بطلبه وإنت بتجود وبتجتهد وبتكلف نفسك مشوار للكشك عشان تتصل عشان يا سيدي تطمنه عليا إني وصلت؛ ابقى خلي المكالمة دي متأخر شوية؛ على العصر مثلاً، لإني كمان جايلي ضيوف ومش عايز إزعاج منه ولا من غيره، ولو جه مش هفتحله وهينزل في الأخر يهزقك، وإنت عارفه رزل ولسانه طويل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ويهزقني أنا ليه يا باشمهندس؟

مصطفى ضاحكًا:

- مش إنت اللي قلتله: تعالى.

- د حظ إيه ده يا ولاد!

- أهو قدرك كده، اعترض بقى على أمر ربنا.

- لا يا مصطفى بيه دانا عمري كله عايش في خيرك إنت والحاج رافع الله يرحمه.

مصطفى مبتسمًا:

- خلاص يا رضا اتوكل على الله، بس لعلمك علاء مهما كلمته بدري هيجي متأخر، وأخره هيديك واحده مارلبورو أحمر... سيجارة مش علبة.

يبتسم رضا ويبادله مصطفى الابتسامة، ثم يلقي له بسيجارة من إحدى السيجارتين المتبقيتين في علبته، يلتقطها رضا ويحيِّيه ويخرج من الباب. بينما يعود مصطفى من جديد مواجهًا لإحدى النوافذ التي ينساب منها بعض الهواء الخريفي البارد الذي قد مرَّ على كل شوارع العاصمة محملاً بكل شيء ليصطدم بوجه مصطفى، يستنشقه ويملأ صدره منه بقدر المستطاع، ويحبسه داخل رئتيه لبرهة... الهواء لن يموت إن حبسته في صدرك، بل أنت من سيموت إن لم تُطلق سراحه وتحبس آخر... فيطلقه مصطفى بهدوء في زفير طويل ليستفيد منه آخرون، فالهواء في الإسكندرية هو أكثر السلع المتداولة استهلاكًا والتي يصعب أن تجدها جديدة، فما قد حبسته لتوك في رئتيك كان محبوسًا منذ قليل في صدر غيرك، وكأنها ميكانيكية تلقائية لتبادل الحياة، فالهواء كالروح كلها أتت من نفس واحد تتشارك فيه أبداننا في شهيق وزفير لا يحتاج إلى العقل الواعي في تنفيذه، فالروح لا تحتاج إلى العقل كي تبقى. ودائمًا ما تكون تلك النسائم الصباحية أشبه بالروح الفطرية فهي الأقل استهلاكًا بين ما نتنفسه طوال اليوم، لا يشاركك فيها إلا القليل ممن قرروا فتح نوافذهم في ذلك الوقت المبكر.

يتحرك مصطفى إلى حيث قد ترك لوحاته التي أتى بها، فيُخرج إحداها، ينظر إليها بشيء من التمعن. اللوحة مرسومٌ عليها قرص الشمس يتوهج في غروبه متصدرًا المشهد، مما يجعل

كل ما أمامه يبدو ظلاً كمشهد (سيلوت) سينمائي، وقرص الشمس من أمامه ظلال شجرة وفتاة تحتها يحملها فتى وهي تمد يدها إلى الشجرة تقطف منها ثمرة.

يضع اللوحة غير المكتملة على حامل اللوحات أمامه، ثم يلقي بجسده على تلك الأريكة التي تتوسط صالون قديم الطراز، يجلس يطالع لوحته التي لم تنتهِ بعد ويسحب أخر سيجارة في علبته يضعها بين شفتيه ثم كعادته دائمًا مع السيجارة الأخيرة يعود ليقرأ ما كتب على العلبة من دعاية كونها سيجارة تحتوي على أفخم أنواع التبغ، بينما يجول في ذهنه تحذير طبيبه المعالج بأن السجائر قد تُسبِّب الوفاة المبكرة وتزيد من فرص الإصابة بالسرطان والأمراض الصدرية...

يبتسم بشيء من التهكم كعادته كلما تذكر هذا التحذير - الذي يومًا لم ينهاه أو يمنعه من إشعال سيجارته الأخيرة - فالتدخين بالنسبة له لذه تجعلك تتجاهل دومًا أنها تقتلك كما يدَّعون، لذة تشبه متعة المغامرين ممن يهوون تسلق الجبال ومطاردة الثيران والقفز الحُر من الطائرات، هي مغامرة بالحياة لمن اعتاد الجلوس على الأرائك لفترات أطول، فكرة أن تراهن على: أنني سوف أعيش، لن تكون هذه هي سيجارتي الأخيرة أو علبتي الأخيرة، وفكرة أن تستمتع بأن كل سيجارة قد تكون الأخيرة فعليك الانغماس فيها. أمَّا عن السرطان الذي ينتظره نصف سكان هذا الكوكب فهو يصيب الأطفال والسبَّاحين ومرتادي

الصالات الرياضية، بل ويتعمد أحيانًا أن يصيب أصحاب الوسواس القهري ممن قضوا نصف أعمارهم في اختيار ثمرة التفاح الخضراء المناسبة من قسم (الأورجانيك) في فرنسا، والنصف الآخر في غسلها بالماء جيدًا لكي يطيلوا من أعمارهم -غير ذات القيمة- ليعبث بكل ثوابت عقلية قد تجعلك تعتمد العقل فقط كأسلوب حياة. كل ما عليك فقط هو أن تُشعل سيجارتك عن اقتناع...

ومصطفى كان مقتنعًا بالشكل الكافي؛ واضحًا في موقفه من التدخين، فقدّاحته الفضية تخرج لسان لهبها الواثق من انطلاقه ليعلن عن بقاء مصطفى على موقفه ويمر عبر رأس سيجارته ليشتعل معه التبغ فيتحول إلى وميض أحمر متوهج يغري أي مدخن للاستمرار. يسحب مصطفى نفسًا طويلاً من سيجارته وكأنه يسحب من روحها إلى روحه نفسًا يقصِّر في عمر كليهما ويزداد معه وميض سيجارته ويصير معه جسدها رمادًا ودخانها يتصاعد في خيوط متمايلة كحركة راقص صوفي يدور في فلك موازٍ لهذا الواقع.

يلتفت إلى الهاتف ويفتح نوتة أرقام الهواتف من جديد ليطالع قائمة الأسماء المتخمة بالأرقام والأسماء المتبوعة بالصفات والمِهن أحيانًا، فقائمة الأسماء تحديدًا في نوتة الهواتف هي خليط أيدلوجي يعبِّر به الإنسان عن مدى تقديره للآخرين من حوله وكيف يراهم؛ وبالتبعية إلى تقديره لنفسه وسط

مجتمعه، فما الداعي للقب «السيد» قبل اسم المدير في النوتة؟ هل تخوفًا إن سقطت في يده يومًا؟!

مصطفى قوائمه واضحة وعملية إلى حد كبير (رضا/ بواب) (كشك حسين) (عطية سوَّاق (القهوة) (أحمد/ بقال العطارين) (حمدي/ بُن)... ومن بين كل الأسماء يختار مصطفى أحد الأسماء المطلقة التي لا يتبعها صفة أو مهنة (نوشا)؛ فقط نوشا؛ ويبدأ الاتصال بها.

(٢)
قهوات

صعيد مصر جنوب محافظة المنيا

مركز (ديرمواس)

صيف عام ١٩٥٦

في دوَّار (الزناتي) الذي يتوسط عزبته بين زراعات القصب الممتدة على مرمى البصر لعشرات الأفدنة التي ينعم فيها الآلاف من الماشية ويشقى فيها مئات من البشر العاملين الذين بنوا بيوتهم الطينية الصغيرة التي تحيط بالدوار الكبير كمجموعة شمسية مصغرة كأجرام ليست ذات قيمه يدور سكانها حول ذلك الدوَّار الذي بناه الزناتي في أوائل القرن التاسع عشر.

غادر الزناتي منذ أعوام عن هذا العالم، وبقي كرسيه الخشبي في وسط المندرة فارغًا، وصورة اُلتقطت له في منتصف الثلاثينيات تتوسط المشهد في بهو منزله الصعيدي الواسع ذي المشربيات وبعض الزخارف النحاسية، وخلف من بعده عددًا من البنات من ثلاث زيجات لم يُرزق من إحداهن بولد.

ومع (آسمين) و(أسمة) إحدى بنات رافع من أخر زيجاته؛ يجلس مصطفى الطفل ذو الستة أعوام بجوار أمه (آسمين) على حجر خالته (أسمة) وهي تداعب خصلات شعره، وعلى مقربة منهم تجلس الجدة (قهوات) زوجة الجد الأولى... امرأة صعيدية كُفَّ بصرها منذ زمن بعيد، تشعر وكأنها هي الصعيد نفسه، هي جنوب مصر بتاريخه ورسوخه... هي الآن في عقدها الثامن، قضت معظم عمرها في ظلام البصر، وإن كان كل من يعرفها يجزم أنها ترى بوضوح تام.

كردان ذهبي يحيط بعُنقها، والكُحل رسم خطًا مفرودًا فوق عينيها. خليط من الطيبة والحسم تشم فيها رائحة الخبز والبارود... يجلس إلى جوارها عاملتان من عاملات المنزل (تنميرة وعساكر) وهما المقربتان لها.

كل من في المنزل؛ أو بالأحرى في العزبة أو في مصر كلها؛ يصغي باهتمام إلى الراديو، وفي الخلفية صوت جمال عبد الناصر في الراديو يصول: (باسم الأمة رئيس الجمهورية مادة واحد: تؤمَّم الشركة العالمية لقنال السويس شركة مساهمة مصرية)...

يتبعه بعض الزغاريد من بيوت مجاورة، وتهليل من (طنوحي) و(تمّام) الغفيرين اللذين يقفان على باب المندرة من غفر زناتى المخلصين، لتصيح فيهما قهوات بحزم:

– اكتم يا بغل منك له نسمع باقي الكلام.

مصطفى الصغير الذي لم يعي بعد قيمة القرار وتبعاته يشعر ببرودة تسري في جسده، يتقوقع في حضن خالته. الأصوات تختفي من حوله، تشعر أسمة ببرودة يد الطفل وارتجافها، تنادي عليه:

– مصطفى، إنت بردان يا قلب خالتك؟

لا يستطيع تمييز الصوت، بالكاد يسمع أصواتهم كطنين بعيد، ووجوه من حوله تختفي بشكل تدريجي كأنما يغشاها الضباب، أصوات كأنها أحلام تقفز في رأسه الصغير لا يستطيع التحكم فيها.

تهم آسمين لتلاحظ شرود طفلها وتيبُسًا في يديه، بينما تقفز تنميرة لتملأ كوبًا نحاسيًا ببعض الماء وتحاول أن تضعه بين كفيِّ الصغير وهي تقول:

– اِشرب يا ولدي، اِشرب.

بصعوبة يقبض مصطفى على الكوب النحاسي، وما إن أحكم قبضته عليه؛ حتى خارت قواه واختفت ملامح من حوله، ليسقط هو والكوب من فوق حِجر خالته وسط خوف الجميع...

دوامات سوداء تسحبه، لا يرى النور، لا يسمع شيئًا مما يُحيط به، وعيناه شاخصتان كمن يرى ملك الموت يقف على رأسه. يغوص في غيبوبته وكأن روحه تُسحب من بين ضلوعه وسط ارتجاف شديد لجسده الصغير، لا تسمع أذناه نداءات أمه

آسمين ومن حولها، يحاول أن يقاوم ما يحدث له ولكن دون جدوى، غيبوبة تمكَّنتْ منه، تركت جسده ملقى على الأرض وسحبت روحه عنوة إلى مكان غير المكان وزمان غير الزمان...

يرى نفسه في غيبوبته وقد بدا رجلاً بالغًا يحمل نفس الكوب النحاسي على صينية مزرقشة في بهو رخامي واسع كمعبد يوناني أو روماني عتيق، قدماه تكادان تتجمدان فوق الأرضية الرخامية الباردة، يرى انعكاس وجهه في الصينية التي يحملها وقد بدا كرجل ذي شعر مجعد ولحية كثيفة، يحيط به أناسٌ غريبون يرتدون ملابس غريبة: أردية بيضاء وأوشحه ملونة. وهو يتقدم بهذا الكوب النحاسي إلى رجل مُسِّن يجلس على أريكة في طرف البهو، ذي رأس ضخم وشعر ولحية كثيفين، جاحظ العينين، يرتدي رداءً رثًّا كان أبيض في يومٍ ما، محاط برجال محبَطين يائسين، يتابعون خطوات مصطفى إلى الرجل المسن الذي يأخذ منه الكوب دون تردد ويرفعه وسط رفاقه قائلاً:

- ليكُن النخب الأخير؛ نخب الفكرة والحرية، نخب العقل. كونوا أقوياء أيها الرفاق، احلموا وفكَّروا، صدِّقوا أحلامكم وأفكاركم وإن كان دونها الموت، فالموت خلاص من عذابات الدنيا وآلامها. أحبوا الناس وأحبوا عقولكم. بهذا حكم أهل أثينا أو معظمهم، وبحُكمهم ارتضيتُ. إنني متفهمٌ دوافع الهزيمة في حُكمهم، وواثق من فعل الأيام في تقويم آراء الناس وتنوير

بصائرهم. إن انتصار الفكر هو انتصار المُفكِّرين وإن هُزِمتْ أبدانهم، وإني بدنٌ راحلٌ لا محال؛ وباقٍ ببقاء الفكرة تحملها العقول لا محال.

ثم يرتشف من الكأس رشفة وسط توسلات أصدقائه بألا يفعل، وإصرار منه أن يحتسي كأسه حتى النهاية. يعيد الكأس من جديد لنادله (مصطفى) قائلاً:

- بورِكتَ يا ولدي وبورك ماء الخلاص، سأذكر وجهك في السماء. اِحمل عني أفكاري كما حملتَ لي شربة الخلاص.

تُشوَّش الصورة من جديد، تختلط ملامح الرجل بملامح (قهوات)، تتداخل الصورتان رغم الفوارق في تفاصيل ملامحهما، ويعود التشوش من جديد وتعتم الصورة مرة أخرى. يرتجف مصطفى الصغير، ولكن خوفًا هذه المرة، بينما يدفأ جسده ليفتح عينيه على سريره وسط أمه آسمين وخالته أسمة وطبيب يقرع أصابعه إلى جوار أذنيه مناديًا:

- سامعني يا مصطفى سامعني؟

يومئ له مصطفى بالإيجاب وهو في حالة خوف بالغة.

- حمد الله عالسلامة. لعبت كتير في الشمس شكلك يا درش.

يمد الطبيب يده إلى مصطفى مختبرًا تجاوبه:

- تقدر تسلِّم عليا قبل ما أمشي؟

يمد مصطفى يده مخترقًا الفراغ بصعوبة ليضع كفه في كف الطبيب مُسلِّمًا.

يوجِّه الطبيب كلامه لآسمين:

- هنحتاج تحاليل وشوية فحوصات وأفضل دكتورمتخصص مُخ وأعصاب في إسكندرية ناخد رأيه.

آسمين بتوتر:

- مُخ وأعصاب ليه؟ هو في حاجة تقلق؟

- يا ستي ناخد رأيه. الولد كويس وحرارته نزلت، ممكن يكون مرهق أو محتاج يغيَّر جو، بس اللي حصل فجأة مؤشر يخلينا محتاجين فحوصات. وعلى كل حال هكتبله على شوية فيتامينات مع تغذية وراحة هيبقى كويس.

يخرج الطبيب، بينما تدخل الجدة قهوات بمساعدة تنميرة ليفسح لها الجميع حتى تجلس إلى جوار مصطفى وتقول:

- سلامات يا قلب حنتك. الطبيب قال إنك تاكل وترتاح.

يغمس مصطفى رأسه في صدرقهوات التي تسهب قائلة:

- الصُبح ترم عضامك بقلاية كحروت وسليقة دمس تجلي صدرك يا وليدي.

يرفع مصطفى عينيه لجدته:

- يعني إيه؟

تضحك قهوات وتحاول بلهجتها البحرية:

- يعني تفطرمليح يا ولدي بيض بسمن بلدي وشوربة تجليلك صدرك.

تمرريدها على رأسه وهي تقرأ له من الرُّقية، بينما يستسلم هو للنوم تحت يدي جدته التي نقش عليها الزمن تجاعيد طِيبة وابتسامة حانية فوق وشم قد زيَّن ذقنها بخطوط ثلاثة.

لبُرهة تتوقف قهوات عن الرُّقية ويبدو بعض الوجوم على وجهها وكأنها استشعرت شيئًا ما. تقف متعكزه على تنميرة وتخرج من الغُرفة وهي تنادي على تمَّام:

– يا تمَّام... يا تمَّام.

يرد تمَّام من بهو المنزل:

– أُمري يا ستنا.

– بعد الفجر تاخد مصطفى يشم هوا الصبح وإنت بتتمم ع العُمال، وتلفحه زين، وتاخد معاك زكريا وأبو عياط، ومتجربوش من الجصب خليك بعيد عن الغيطان يا ولدي.

– حاضرينلك يا خالة.

تقف قهوات لبُرهة، وتوجِّه حديثها لآسمين:

– تصلي الفجر في ريحي يا آسمين.

– حاضر يا أمه.

يخرج كل من في الغرفة إلا آسمين ومصطفى، تستلقي إلى جواره وهي تطالع وجهه وتتساءل عما قد أصابه، يمنعها القلق والتوتر من النوم سويعات ما قبل الفجر.

••••

من فوق مئذنة طينية صغيرة يعتليها إمام الزاوية الصغيرة بالقُرب من دوار زناتي يصعد درجها مؤذن الزاوية ويعلو صوته مؤذنًا لصلاة الفجر.

تطبع آسمين قُبلة بين حاجبي مصطفى وتبدأ في الاستعداد للصلاة. تخرج من غرفتها إلى غرفة زوجة أبيها وتطرق الباب بهدوء...

- ادخلي يا آسمين .

تجلس قهوات على سريرها النحاسي العالي، بينما تغسل تنميرة قدميها لتحضِّرها للصلاة. تتلفظ قهوات الشهادتين وبعض الأذكار بعد الوضوء، ثم تقول لتنميرة:

- شيلي الطشط والخرشوفة، واطلعي واقفلي الباب.

- حاضر يا خالة.

تنهض تنميرة حاملة الأبريق وحجر تنظيف القدم (الخرشوفة).

تبدأ قهوات وآسمين في صلاة الفجر، وفور انتهائهما تشير قهوات إليها أن تجلس إلى جوارها. تصعد آسمين السرير العالي وتضع رأسها على حجر قهوات التي تلامس شعرها بيد وفي يدها الأخرى مسبحة خشبية متدلية...

- إنتي خابرة يا بنيتي إن من يوم أمك الله يرحمها ما ماتت؛ ومن جبلها؛ وأنا عدَّاكي من بناتي، إنتي وأختك. أمك ذاتها كنت عدَّاها من عيالي بندرية وفرق السن خلوني أشوفها كيف بناتي

ولا عمري حسيتها ضُرة... خابرة زين إنك كرهتيني يوم دفنة أمك، يعلم ربنا بكيتها يا بنيتي وحزنت عليها حزن ما بعده حزن ووقفت في وش الزناتي الكبير وعمامك وقولت: يتربوا البنات في حضني. حسيت في الأول إنك مش حباني ويومها قولتلك: حبيني يا بنيتي ولا اِكرهيني رب القلوب سابلك حبل العشق ع الغارب، والقلوب في إيد رب القلوب، واللي بنجهله اليوم بكرة بنعرفه، واللي بنعرفه زين بكره كمان بيتغير... حتى علامك تنتني على راس أبوكي عشان تكمل وصية أمك وتتعلمي إنتي وأختك فمدارس فرنساوي فإسكندرية، لين لما اكتفيتي... حتى فجوازك كنت فضهرك إنتي وأختك لولا أبوكي دخل علينا برافع وقال رافع لآسمين وإنتي ارتضيتي، ولو كان رافع مملاش دماغك ولا راقلك كنت طخيته ولا نوِّلته شعرة منك غصب يا بنت قلبي... ولمَّا الزناتي بوكي كان بيتربس راسه ويقول بكفاية ومصَّخت؛ كنت أقوله: لا لأن الطين من غير علام يضيّع حقك. وأهو العلام نوّرك وصان حقك في وِرث أبوكي. وعلامك إنتي وأختك على عيني يا بنيتي، بس مش هتلاقي فيه دوا ولدك لأن ولا كل الوجع بالأبدان ولا كل الدوا في كُتبكم... ابنك منصاب.

ترفع آسمين رأسها بقلق:

- يعني إيه منصاب؟ وإيه إلى صايبه يا امه؟

- ولدك حاوي شي في روحه، وجِتته مش قادرة عليه يا حبة عيني. روحي سكندرية وشوفي أطبا زي الحكيم ما شار عليكي،

بس اِسمعي من مَرَة الدنيا كرمشتها: ولدك روحه اللي تعباه يا حبة عيني مش جتته.

ترفع قهوات سبابتها مُحذِّرة:

- مصطفى ميعتبش باب الدار بعد المغرب ولا حتى للزاوية بيت ربنا، ولا يتساب لحاله فغيط ولا خلا. لحد ما نعرف مين إلى زارنا يا بنتي.

بارتباك وخوف تجلس آسمين وهي تستمع دون رد.

تسهب قهوات:

خلي حد من البِنتة يزعق على أبو عياط، وصحي ولدك يشم هوا ربنا بعد ما يفطر، هوا الصبا مليح. ويرجع يتحمَّى في منقد بمية وملح، والمية تترمي بعيد، وتبخريه من عيون الناس.

- حاضر يا امه.

بعد قليل مصطفى يمسك بيد تنميرة أمام باب الدار وهو متلحف بلاسة (شال رجالي) صعيدي لجده. يقف زكريا وتمام أمام الدوار ومن خلفهما أبو عياط؛ رجل صعيدي ضخم الجثة، يحمل في يمناه (نبوت صعيدي) عظيمًا يشبه شجرة بلوط قد اُجتثت بكامل حجمها. ينظر إليه مصطفى بشيء من القلق.

تنميرة:

- متعوجوش، الست آسمين رايحة سكندرية ع الضهر.

يبتسم أبو عياط وهو يأخذ بيد مصطفى المتوجس بعض

الشيء من مظهره. ليبدأ أبو عياط حديثه بصوته الأجش معلِّقًا على ملابس مصطفى:

- اللهم صلى على حضرة النبي، و(لاسة) الزناتي الكبير كمان، ربنا يطول فعمري وأخدمك كيف ما خدمت جدك الله يرحمه.

يتردد مصطفى بعض الشيء ليمد أبو عياط كفه العملاق الذي يثير دهشة مصطفى وهو يقول:

- تاجي معانا يا مصطفى بيه يا ولدي نشوف العمال ونفرجوك الديكوفيل وهو بياخد جصب جدك؟

- إيه الديكوفيل ده؟

- جطر يا ولدي أو أطر سكه حديد زي اللي بنركبوه وإحنا رايحين على سكندرية، بس دوكهه بيلم الجصب ويدَّلى بيه حداكم يطلع منه سُكر اللي بتتعمل منه الأرواح والحلويات.

كف مصطفى الصغير يكاد يكون تائهًا في كف أبو عياط وهما في طريقهما بين العمال ومن خلفها تمام وزكريا يوجِّهان العمال بشيء من الحزم وسط عيدان القصب المفرودة أكثر من قامات الفلاحين التي قد انحنت بفعل الزمن وشقاء العمل والِعلل.

يسهب أبو عياط في حكايات عن القصب والسكر والغِيطان التي يعيش وسطها ويحرسها طوال الليل، بينما مصطفى ينصت له باهتمام شديد... ثم يقطع حكايات أبو عياط صوت صفير قطار من خلف زراعات القصب العالية تحول

دون رؤية مصطفى لقِصر قامته، فيرفعه أبو عياط فوق كتفيه ليرى القطار يمر خلف عيدان القصب، ويشير له قائلاً:

– أهو ده الديكوفيل، كل محطة تبقى نِمرة، يتحمل بخير الأرض ويكمل للنمرة اللي وراها.

يطالع مصطفى القطار ويسأل:

– وإحنا عندنا نمرة يقف فيها يا أبو عياط؟

– نمرة واتنين وتلاتة كمان، خير جدك الزناتي كتير يا ولدي، كل الأرض اللي على مد شوفك أرض جدك.

يكمل أبو عياط المسير ومصطفى لا يزال فوق كتفيه، مسهبًا في الحديث:

– بيقولوا إنك تعبت، شايفك اللهم صلي ع الحبيب زي الفل وزين؟

بأريحية يجيب مصطفى:

– شوفت حلم وأنا صاحي وخوفت.

أبو عياط ينظر إلى أعلى باتجاه مصطفى:

– حلم وإنت صاحي؟ كيف يعني؟ وحلم إيه ده؟

بتردد يرد مصطفى:

– حلم وخلاص.

– سِر إياك؟

مصطفى بطفولة ضاحكًا:

– آه سِر.

– طيب أنا بحكيلك سر عن اللي كان بيخوفني وإنت بتحكي لي الحلم اللي خوَّفك.

– موافق.

– زمان كنت بخاف أستنى لحالي في الغيط بليل، أول ليلة جبت الزُقلة خلتها جنبي طول الليل عشان أتحامى بيها وتطمني، بس مطمنتش.

مصطفى متسائلاً:

– زُقلة؟؟؟

– الشومة يعني.

– اااه. فمنفعتش فجبت بندقية زي بتاعت جدي؟ صح؟

– لا يا مصطفى بيه يا ولدي.

يمد يده في جيب بجلبابه الصعيدي داخل الصديري ويخرج نايًّا صغيرًا مصنوعًا من الخوص، ويُسهب:

– جبت ده من زراعة الخوص إلى حدانا وبقينا صحاب وبنوسوا بعضينا طول الليل. أنا فهمت إني كنت طفشان؛ زهقان يعني مش خايف. عايز ونس، إحنا بنخاف لما نحس إننا لوحدنا.

يتابع أبو عياط المسير مع مصطفى دون الإلحاح عليه في أن يبادله سِرًّا بِسر.

مصطفى:

– طيب علمني أعزف على الناي زيك يا عم أبو عياط.

أبو عياط ضاحكًا:

- وماله يا مصطفى بيه أعلمك، أعلمك يا ولدي.

(٣)

نوشــا

الإسكندرية

منزل مصطفى

بعد العودة بساعتين

أمام عمارة مصطفى يقف تاكسي الإسكندرية المُبهج ذو اللون الأصفر الغيور والأسود الوقور، يُفتح بابه الخلفي. تتدلى منه ساق منحوتة بعناية كتمثال رخامي دبَّتْ فيه روح حواء، مستترة بخجل وراء جورب حريمي أسود شفاف وتنورة سوداء بالكاد تغطي ركبتي صاحبتها ذات الـ ٢٩ عامًا. فارهة الطول، ذات عُنق يغار منها تمثال نفرتيتي، وكتفين متناسقين، وصدر وضع كل الجمال بين قوسين؛ يعتليه سلسلة ذات فص أزرق (دورزي أوزريت)...

في قميص رسمي أبيض وبطن مستوية؛ تخرج (نوشا) من التاكسي وكأنها المرأة تخرج من لوحات (صلاح عناني) بعشوائيتها المُنمقة أو الفتاة السكندرية في لوحات (محمود سعيد) بجرأتها غير المُستساغة. وهي تمضغ لبان النعناع

المفضل لديها وتحمل شنطة بلاستيكية سوداء يُسمع منها قرع زجاجات البيرة لتعلن أن الليل قد بدأ بهاؤه في عز النهار، وأن الشمس قد ترجَّت القمر لتطالع ما يراه ليلاً.

نوشا للسائق:

- كام يسطا حسابك؟

- جنيه يا عروسة.

- أحيه!! جني من كوم الدكة لهنا؟؟ ليه جايبني من المطار؟!

تفتح نوشا حقيبتها وتخرج خمسين قرشًا ورقتين فئة الخمسة والعشرين قرشًا، تعطيها للسائق، قائلة:

- استفتح يا حاج وقول يا صُبح، رُبع للتوصيلة وربع لكلمة يا عروسة.

- مينفعش يا أستاذة.

- أستاذة مين يا الدلعدي؟ إنت بتوصَّل (نبوية موسى)؟

تلقي الورقتين للسائق وتسهب قائلة:

- يخويا كله ينفع، بُنديرتك ٣٠ قرش وعايزجني؟

تترك السائق المتذمر وهي تتمتم بصوت غير مسموع: (جني لما يلخبطك، د إنت اتفرجت على رجلي بـ٣٠ جنيه بعنيك اللي يدب فيهم رصاصة).

تدخل نوشا إلى عمارة مصطفى، تلاحق السلم بقدميها وحذائها الأسود حتى تقف على باب شقته. تعيد هندام قوامها وشعرها

وتطلي شفتيها بمزيد من الأحمر وتطرق الباب ثلاث مرات.

يفتح لها مصطفى الذي لا يزال يلف منشقة حول وسطه، ويغلق الباب لترتمي نوشا بين ذراعيه وتعتصر رقبته بذراعيها، بعد أن وضعت الحقيبة البلاستيكية.

يمسك بشفتيها بين شفتيه لتبادله قبلات عاشقة كتلك التي قد غاب عنها عشيقها لزمن بعيد. يطوف بها حاضنًا ومًقبِّلاً، حتى يضع ظهرها على أحد الجدران عاصرًا جسدها بيديه وهي تحاول إبعاد جسدها عن الحائط قائلة:

– هدوم الشغل... هدوم الشغل والله.

ثم تعود لتقبيله بشراسة وبخطوات تبدو تائهة ولكن تعرف تمامًا الطريق إلى غرفة النوم. يستبقا إلى السرير الذي يئن تحت وطأة شوقهما وكان أزيزه لفترة لا بأس بها يعلن الحب الجسدي لما يحمله من طاقة كُبتت لشهور عدة لرجل اشتاق وامرأة أحبَّت.

بعد فترة كافية من التعبير فاض كلٌّ منهما وحوَّل رغبته إلى طاقة استنفذت شوقيهما حتى وضع الحب أوزاره واستلقيا كمحاربين أضناهما القتال.

المنشفة وملابس نوشا مبعثران حول السرير، وهي تنام عارية فوق صدر مصطفى، الذي يلاحظ علامات التمدد حول بطنها تبدو وكأنها وضعت مولودًا في فترة غيابه، ليمر بيده على العلامات متسائلاً.

- ولد ولا بنت؟

ترتبك وهي تقول:

- أنا تخنانة ٣ كيلو بس.

يرد باقتضاب:

- ولد ولا بنت؟

نوشا في محاولة باهتة للهروب:

- ده راجل جارنا، واتطلقت وراح لحاله.

ليعيد مصطفى السؤال:

- ولد ولا بنت يا نوشا؟؟؟

ترد باقتضاب:

- وهبة.

يبتسم مصطفى:

- يخصني؟

تقوم من حضنه:

- جبتلك سجاير بدل اللي خلصت، وجبت بيرة من البيت، وعديت على بتاع البسبوسة عرفاك بتحبها.

- لو كان يخصني وسألتيني كنت هقولك نزليه، فرض الحياة بقسوتها على أرواح عايشة فالجنة جريمة.

تتسع عيناها بعدم فهم، تتجاهل ما قاله وتسهب:

- بقولك جبت سجاير وبيرة وبسبوسة.

يساير تجاهلها مباسمًا:

- طيب هاتي واحدة.

تُلقي إليه بعلبة سجائر، يلتقطها ويشعل سيجارته، بينما تفتح هي زجاجتين من البيرة ولفافة الحلوى، وتعود تجلس إلى جواره. تعطيه قطعة من الحلوى في فمه، بينما يعطيها سيجارة مشتعلة ويُشعل له سيجارة أخرى.

نوشا:

- وحشتني.

- عندك شغل بليل؟

- شيفت الساعة ٣، شيفت ناشف، بس لو عايزني أستنى محروق الشغل على أصحابه، أستنى معاك.

- مظنش علاء هيسيبني فحالي، وعلية ساعة بالكتير وهتلاقيها فوق دماغي.

نوشا بوجه ممتعض:

- طيب ألبس وأسيبك؟

يمسك بذراعها:

- استني... إنتي كمان وحشتيني.

تبتسم وتعود لتضع رأسها فوق صدره من جديد:

- طولت أوي يا مصطفى، غبت عليا.

تضرب صدره بدلال وهي تقول:

- متغبش تاني كده، مبقدرش.

يضحك ويقول:

- استني عندي مفاجأة.

يقوم ويبحث بين لوحاته، ويخرج من بينها لوحة لامرأة عارية، يعرضها على نوشا قائلاً:

- خلصتها.

تنظر للوحة بإمعان واندهاش:

- ده جسمي! مش دي الصورة إلى بدأتها من كام سنة؟

تُمعن النظر، ترفع حاجبيها اندهاشًا بعد تدقيق غير طويل، وتسأله:

- بس إيه ده؟ ده مش وشي، وش مين ده يا مصطفى بيه يا فنان؟؟؟؟؟

ثم تردف بنبرة أعلى كمن اكتشف شيئًا مهمًا:

- يا نهارك أبيض... دي حتى مش وش فرنساوي من الكالحين بتوعك، أنا قولتلك داري وشي مش غيَّره.

- غيرانة؟

- إنت آه زودت السلسة الزرقة بتاعتي، بس الزُهرية إلى في الصورة دي مش عندك هنا.

- مش يمكن عشان أنا شايفك كده.

نوشا بخيبة أمل:

- تبقى مش شايفني أصلاً يا باشمهندس.

ثم تعيد النظر في اللوحة بابتسامة:

- إنت شايفنى حلوة زيها كده؟

- أنا شايفك من جوة يا نوشا.

مصطفى مسهبًا:

- عارفة، مهم جدًا إن كل رسام يحط اسم للوحة بتاعته، بس المرة دي أنا مش هسميها، هسيبك إنتي تسمِّيها.

- والاسم ده بيتحط فين؟ فوق كده في نص اللوحة زي عناوين الدروس بتاعت المدرسة؟

مصطفى ضاحكًا:

- لا... لا ينوشا، الاسم مجازي يعبِّر عن الحالة، مممممم حاجة كده زي اسمك مش مكتوب على جبينك، بس لوحده ممكن يحكي حدوتك.

- خلاص يبقي تسميها على اسمي.

مصطفى بدهشة:

- تعرفي أنا عمري ما عرفت اسمك الحقيقي.

- يمكن عشان عمرك ما سألت.

يمسك بيدها مسترضيًا ويقبِّل شفتيها قائلاً:

- طيب ممكن تعرَّفيني اسم لوحتنا الجديدة إيه؟

تضحك وتقول:

– حياة. اسمي (حياة).

تلمع عيناه كمن وجد خبيئته الضالة. ينتفض من على سريره، يمسك اللوحة وهو يقول:

– برافو، صح، حياة. هي حياة.

يمسك بلون أسود وفرشاة رفيعة قائلاً:

– عامةً أنا مبوقعش اللوحة إلا بعد ما ألاقيلها اسم يعبّر عن حالتها. إنتي مش متخيله إنتي ساعدتيني إزاي.

تقترب نوشا منه...

– يعني إنت هتحط اسمي عليها؟

مصطفى مبتسمًا:

– لا، هو الاسم مش مكتوب. بس بيبقي إحساس اللوحة.

نوشا بامتعاض:

– يعني ولا وشي ولا اسمي عليها، وبس عمَّال تقولي دي لوحتك!! لو يعني مش عايز الناس تشوفه على الأقل حطه على ضهر اللوحة.

يضع طرف فرشاة الرسم بين شفتيه مفكِّرًا:

– طيب وحياتك إنتي لأغيّر في مدرسة الرسم واكتب اسم اللوحة على ضهرها.

ويبدأ في الكتابة على ظهر اللوحة باللغة الفرنسية (LA VIE)

وهو يقول:

- لافي... حياة.

ثم يعيد اللوحة إلى وجهها مرة أخرى ويوقِّع في ركن اللوحة الأيمن السفلي بالإنجليزية: (ليسيبوس)

تتجاهل نوشا (حياة) ما نقشه مصطفى للتو على اللوحة، لتهبط بهدوء على ركبتيها وهي معلِّقة عينيها في عينيه وممسكة بخصره ناظرةً إليه بثبات وابتسامة وهي تقترب بشفتيها من جسده، وتسأل بصوت مثير:

- مش لسه قدامنا ساعة؟

وتعود به من جديد إلى ساحة الحب.

(٤)
الحـاوي

في الوقت نفسه

(مكتب علاء الحاوي المحامي)

الدور الثاني في عمارة بمنطقة الشاطبي؛ تطلُّ شرفة مربعة مطلية بلون مخالف ومغلقة بأعمدة من الألوميتال مُعلق بأحد أطرافها مكيف هواء مستورد تمَّ تركيبه بشكل عشوائي وخرطوم لصرف ماء الفريون مسدول بتراخٍ تاركًا رشح مائي على الجدار يشبه نقش فنجان قهوة لعجوز تعيس تحاول أن تستطلع مستقبلها. وإلى الجوار لافتة قديمة أضيف اسم (علاء) بخط صغير لكي يجد مساحته بين الاستاذ والحاوي، لتُقرأ: (الأستاذ علاء الحاوي محامي بالنقض والاستئناف).

بالداخل لفظ الجلالة يتوسط جدارًا عريضًا عليه بعض الشهادات العلمية وشهادات التقدير التي يضعها بعض المتباهين وهم واثقون أن أحدًا لن يقترب ليقرأ ما تحتويه تلك المُعلقات، على الرغم من أن المتعلمين الحقيقيين والمُكرمين بصدق؛ لن تجد صعوبة في استنباط مدى تعلمهم،

ولكن البعض قد يحتاج لفائفَ من ورق الحائط كي يثبت لمن حوله ولنفسه أنه هنا.

في المنتصف – وأنا أعني المنتصف حرفيًا؛ المنتصف الذي تم قياسه بدقة متناهية – يقبع مكتب عريض كلَّف البشرية شجرتين من الزان أو يزيد، ملفات مصفوفة بعناية فائقة، ولافتة ذهبية تحمل اسم الاستاذ علاء المحامي.

من خلف المكتب يجلس علاء، شاب ثلاثيني منمق إلى حد الاستفزاز، شارب أصفريحمل له مشطًا صغيرًا في جيب بدلته الداخلي جهة اليسارخلف حفنة كروت تحمل اسمه وصفته المهنية، وجه مربع وحاجبان كثيفان وشعريُفرد بالسشواركل صباح، ونظارة شمسية توضع على المكتب توحي أنه مشروع شُرطي لم يكتمل.

يجلس أمامه على المكتب رجل خمسيني يضع أمامه حقيبة صغيرة، ويقول:

– أنا معتمد على الله وعليك يا علاء بيه، أنا كنت ناوي أحط القرشين دول في تجارة ولا بنك.

علاء بهدوء:

– توء... صدقني يا حاج صلاح، التجارة وفوايد البنوك قلابين حسبة السنتين تلاته وهوب مش هتشوفهم ولا حد هيطول منهم حاجه... العقارات يا حاج، سعرها بيولع. طريق مرسى

مطروح ده بكره هيولع. الريس عينه عليه وحسب الله بيه الكفراوي عنده تعليمات يبني ويوسع ع الناس.

ثم يكمل هامسًا:

- الكلام ده من مكتبه.

ويردف وهو يفرك إبهامه بالسبابة (إشارة للمال):

- وصدقني المعلومة دي بفلوس، والكلام ده في سوق الاستثمار يساوي؛ ويساوي كتير. إنت بس عشان حبيبي وعميل عند الحاوي من سنين فأنا فاتحلك قلبي.

يفتح صلاح حقيبته الممتلئة بحزم من البنكنوت فئة العشر جنيهات ويضعها أمام علاء، قائلاً:

- ربنا يفتحها علينا وعليك يا علاء بيه يا غالي يا ابن الغالي.

يلقي علاء نظرة خاطفة على الحقيبة، ثم يقول:

- مظبوط... تمام يا حاج صلاح.

- مش هتعد يا علاء بيه؟

علاء مبتسمًا:

- شكلهم مظبوطين.

- عينك ميزان زي الوالد الله يرحمه.

ينظر إليه علاء بطرف عينه قائلاً:

- وهنعد تاني، دي فلوس ناس يا حاج، ثم إحنا هنروح من بعض فين؟ عامةً.....

يرن هاتف علاء:

- بعد إذنك ثانية.

يرفع سماعة الهاتف:

- أيوه يا سارة، ثواني.

يكتم سماعة الهاتف بيده موجهًا كلامه لصلاح مرة أخرى:

- عامةً يا حاج هتلاقي العقود جاهزة ووصل مخصوم منه العمولة.

يخرج صلاح من المكتب ليعود علاء إلى هاتفه:

- خيريا سارة... عايزإيه رضا؟؟... حوليه.

يطالع أظافره المربعة ويتأكد من أن طولها مناسب، بينما تحوِّل السكرتيرة مكالمة رضا بواب عقارمصطفى.

- صباح الخيريا علاء بيه.

- خيريا رضا؟

- كنت عايزأبلغك إن الحاج نصرأبو دهب اللي في السطح كان عايزيقابل حضرتك، وبيقول.....

علاء مقاطعًا:

- قولت هقابله لما ييجي وقت... سلام يا رضا ومتتصلش إلا لو في حاجة مهمة.

- ما هو بس كمان....

- اخلص يا رضا، إنت هتبسبس؟؟ في إيه؟؟

- مصطفى بيه وصل.

منتفضًا من على مكتبه:

- مصطفى هنا وساكت يا لوح؟؟ مش قولتلك لما يوصل تقولي ومديك كل تليفوناتي.

- ما هو وصَّاني مجبش سيرة إلا بعد العصر، ولو عرف هيطين عيشتي.

- وأنا هطين عيشتك وعيشة أهلك عشان إنت مش شايف شغلك...

حد جاله؟ علية وصلت؟

- مظنش يا بيه، عنده الست الطويلة اللي بتيجي.

علاء مبتسمًا:

- ااااه نوشا... طيب تمام، أنا جاي في السكة.

- بس يا علاء بيه.....

يقطع علاء المكالمة ويسحب جاكت بدلته المعلق على كرسي المكتب ويستعمل الهاتف محدِّثًا السكرتيرة:

- الغي أي حاجة... حامد يروح المحكمة، وأشرف يقابل العُملا الجداد، وأي ميعاد اعتذري بشياكة وغيَّري المواعيد لبكرة، ونسَّقي مع مواعيد بكرة. أنا عايز كل حاجة مظبوطة. وهاجي بالليل أتابع معاكي.

في سيارته البيجو ٥٠٤ رمادية اللون؛ يقود علاء وسط شوارع الإسكندرية، يختار دومًا طريق الترام ليمر إلى جوار أسوار جامعة الإسكندرية التي تخرَّج منها منذ عهد ليس ببعيد، ويود لو أن رفاق الأمس يقفون بمقربة من سور الجامعة كما كان عهدهم فيما قبل ليروا علاء ببزته المنمقة وسيارته. علاء الذي تولى منصب أبيه بحكم الوراثة، فكل شيء هنا يورَّث، فقد مرَّرله أبوه مع جيناته مكتبًا مرموقًا في المحاماة - أو هكذا يبدو- وملفات متخمة بالقضايا والعملاء. كان الحاوي الكبير كريمًا في عطائه، خاصةً أنه رحل مبكرًا وترك علاء ابنه الوحيد ينعم بما بناه هو لنفسه.

طريق الترام المؤدي إلى وجهة علاء ضيق بالشكل الكافي حينما تمر سيارته، فطُرقات الإسكندرية لها قلب يحس؛ تتسع لمن يستحق وتضيق على من يستحق. كل دقيقة ينظر علاء إلى نفسه في المرآة الأمامية يراجع هندامه ويعيد تصفيف شاربه ويعيد ضبط رابطة عُنقه.

من بين محطات الإذاعة يميل إلى إذاعتي (البرنامج العام) و(الشرق الأوسط) ففيهما ما يكفي من معلومات يفتح بها الحديث في الحانات ليلاً، وما يكفي أن يسلِّيه في الطُرقات.

يصل إلى العقار الذي يقطنه مصطفى، يركن سيارته موازية للرصيف ببراعة، ويخرج ليدور حولها متأكدًا من صفها بشكلٍ موازٍ. ثم يعيد هندام رابطة عنقه في المرايا الجانبية. يدخل

العمارة مهرولاً على السلم، ليجد أمامه نوشا في أحد الطوابق المحايدة؛ تحديدًا أمام شقة السيدة (استيلا ميكاليدس) التي يقطن أمام باب شقتها عشرات من القطط العاشقة لاستلا وكأنهم مريدون يقفون على أعتاب ولي منتظرين بهاء طلتها... تقف نوشا أمامه، تميل برأسها مدعية الاندهاش...

- علاء بيه. عاش من شافك، مش باين يعني في إيليت؟

علاء مبتسمًا:

- نوشا... إزيك؟

- أحسن من ناس كتير.

علاء متهكمًا:

- مظنش... ووهبة إزيه؟ عندي معلومات إنه تعبان وبتتابعي مع دكتور أعصاب.

تقترب منه نوشا، بينما يثبت هو ليحافظ على المسافة القريبة بينهما... تقول وهي تمضغ علكتها بعنف ملء فيها:

- لو كانت الواسطة نفعت كنت هتبقى ظابط مباحث محصلتش وكان زمانك مراذينا في قسم العطارين، بركة إن أبوك استرخص في الواسطة... آه، ولو بتسأل على وهبة... (بنبرة حاسمة): وهبة قوي وهيخف... ويقف على حيله... وهيبقى أحسن مني ومنك.

- طيب إيه... مش ناوية بقى؟

تنفخ من عِلكتها بالونًا وتحطِّمه بين نابيها ليصدر صدى صوت في سلم العمارة الصامت، بينما يزعج الصوت أحد ذكور قطط (استيلا) ويحوم بجسده متمسحًا في ساق نوشا وهي تقول بميوعة:

- ناوية على إيه يا علاء بيه؟ قلت مبغيّرش.

تُخرج من حقيبتها سيجارة مارلبورو تشعلها وتنفث دخانها في وجه علاء الذي ينظر إلى صدرها مبتلعًا ريقه. تُلاحظ ملامح الاستثارة عليه فتُخرج علكتها من فمها وتلصقها على الحائط المجاور له وهي تقول:

- شوف القط الحيحان بيحُك إزاي؟ وأنا أصلي مليش في السيامي ولا الفراخ البيضا الكالحة... مليش غير في البلدي.

تتركه مستأنفة نزولها، فيقاطعها بنبرة استفزازية:

- على كده بقى مصطفى حاسبك؟

نوشا بضحكة تهكمية:

- ليه يا لولو هو أنا موظفه عنده ولا من خدم أبوه زي ناس؟ أنا مرة حُرة... عندك بسبوسة فوق، حلوة للهبوط، كُلْ وادعيلي.

يخرج علاء مشط شاربه ويصففه من جديد قائلاً:

- بسبوسة؟ وماله حلوة برضه.

(٥)

غـُربة نوبي... بشـير

جنوب مصر خلف السد العالي

بحيرة ناصر حاليًا

عام ١٩٦٣

(بشير)... شاب نوبي في أواخر العشرينيات، يرتدي قفطانه النوبي الأبيض الواسع، وتعتلي رأسه عمامة نوبية كبيرة كقُبة مسجد أبيض ملفوفة بعناية، يسير إلى جواره ابنه (رضا) ليقفا أمام شاهد لأحد القبور. كان قد كتب بشير - الذي ورث جمال الخط من والده - بشكل غير تقليدي وبخط الرقعة؛ أبيات من شعر الحلاج، يرسمها بشكل دائري:

فما لي بُعْدٌ بَعْدَ بُعْدِكَ بَعْدَما تَيَقَّنْتُ أنّ القرب والبُعد واحدُ

المتغمدة في رحمة الرحمن /

نبيهة أبو طالب

بشير الذي يمتهن كتابة اللافتات كان ذا فلسفة صوفية وله باع لا بأس به بتاريخ الفنون فكان ما خطَّه على شاهد أمه رثاءً لنفسه وسلوى له عن رحيل أُمه.

يرفع يديه ويقرأ الفاتحة بصوتٍ خافت، وابنه رضا يقلِّد حركاته وتمتماته، حتى يصل إلى أخر السورة، ثم يمسح وجهه بيديه السمراوين ذاتا الحناء ويضعهما على شاهد القبر وهو ينحني على ركبتيه قائلاً:

- ربنا وحده العالم إنه مش بخاطري يا أمه. كلنا فايتين بيوتنا وأرضنا. بيقولوا الخير والخضار جاي، والمية هتكفي الكل. مش عارف من امتى والمية كانت بتقل؟ آدي الله وآدي حكمته، مفيش شيء بيستنى على حاله... هتوحشيني يا أمه أكتر ما إنتي وحشاني؛ وَنَسك وصوتك وريحة خبزك ودفسة راسي بدفا صدرك حتى قعدتي في حجرك... وحطة إيدي على مقامك يا غالية يا طاهرة؛ مكتوب علينا نتفارق ونفارق أرضنا، والنيل يعدي من فوق بيوتنا يروي عطش أهلينا يا أم الكرم والخير.

ينظر بعينين دامعتين لابنه رضا:

- ادعي لستك يا رضا، واحكي لعيالك إننا كنا هنا قبل الطوفان.

يُخرج قارورة مِسك من جيبه، يدهن يديه ورأس ولده ثم يمسح فوق مقام أمه وهو يقول:

- ملي عينك من أرضك يا ولدي محدش عارف هنشوفها تاني ولا لأ... أهو إلى بيحن لمكان بيرجع له، إحنا انكتب علينا نفضل عايشين الحنين من غير حتى ما نزوره... غُربة يا ابني ما بعدها غُربة، واتكتبت على جبينا.

ينصرف بشير ويتبعه رضا. يلتفت كل خطوتين يسترق البصر لشاهد أمه الواقف وسط جبَّانة صغيرة على بُعد خطوات من قريته الصغيرة على ضفاف النيل الذي احتشدت فوق صفحته الهادئة الهادرة عدد من القوارب والمراكب وباخرات تحمل أهالي النوبة متجهين شمالاً وجنوبًا بحثا عن وطن جديد يصنعون فيه ذكريات جديدة... قلوب تحمل حنينًا، وأجساد تحملها بواخر. والنيل يحمل كل هذا المزيج والشجون.

يكمل بشير مسيره حتى يصل إلى داره النوبي الصغير الذي قد خلا من الأثاث إلا من فُرن طينيٍّ صغير ينتظر أن يغمره الماء عمّا قريب وتسكنه أسماك النيل وتطوف حوله التماسيح.

البيت الصغير تستطيع أن تحس الروح تسكنه وكأنه حيٌّ بألوانه الزاهية وخط بشير الذي يُزين أركانه ينطق بالحياة. تلك الأركان التي كُتب عليها الموت بالإعدام غرقًا.

بجوار الباب الخشبي مرسوم كف منقوشة بنمط نوبي رشيق وفوقها (فسيكفيكهم الله). وعلى اليسار رسم ثنائي الأبعاد للكعبة المكية ورسم لباخره كُتِب حولهما: (اشتقنا يا رسول الله. لبيك اللهم لبيك).

في المنزل زوجته تلملم أغراضها ببطء، تتمسح الجدران كعاشقة صوفية تطوف بباب ولي. تطالع بعينيها الدامعتين جدران وساحة قد احتضنت أيامها الأولى بحلوها ومُرها.

على الباب سيارة موديل ٥٢ نصف نقل ماركة (فورد) وضع عليها تزويرًا شعار شركة النصر للسيارات التي أنشئت في أوائل الستينيات لتبدو أحدث مما هي عليه، والسيارة مصطفة وسط عدد من السيارات المحملة بالأثاث تطلق عادمها الأسود وصوت محركاتها الغاضبة بالفطرة. يوحي صخبهم بأن هزة أرضية وشيكة، وحان وقت الرحيل؛ الرحيل بما تحمله الكلمة من معنى، الرحيل المؤلم الذي لا يحمل في طياته حتى أمل العودة.

يساعد بشير زوجته في الصعود إلى السيارة، بينما يتمِّم السائق على ربط وثاق الأثاث فالطريق إلى الإسكندرية طويل ومُضني والرحلة اتجاه واحد إلى ذهاب بلا عودة.

تقول الزوجة:

- كُنا رحنا (قنا).

ليرد بشير:

- لينا لقمة عيش في إسكندرية وشباب الرابطة الكنزية عندهم فرع في العطارين، يعني لسه وسط أهالينا.

يتطفل رضا:

- لا يا أمه نروح إسكندرية فيها بحر وبلد كبيرة وفيها سيما.

يمد بشير يده في جيبه الداخلي ليخرج تمثالاً صغيراً من الرخام الأبيض لشاب يوناني منحوت بعناية فائقة، يبدو

ذا جسم رياضي متناسق، وشعر مجعد، عَارٍ تمام، في وضع حركة رياضية كتلك التماثيل المعبِّرة في الألعاب الأولمبية... يتأكد بشير من لف التمثال ووضعه في جيبه الداخلي بأمان، ثم يطرق على جسد السيارة الغاضبة ليقول للسائق:

- اتوكل على الله يا اسطى إحنا جاهزين.

تنطلق السيارة مخلفةً من ورائها مزيد من الدخان الأسود إثر احتراق كميات كافية من الوقود الرديء، محملة ببشير وأسرته الصغيرة وأثاثهم المرهق من أثر الفراق الأبدي الذي لا تطيقه الأرواح.

يسير رِكاب السيارات وكأنها جنازة مهيبة لأحد ملوكنا من الفراعين القدامى التي قد تحركت من آلاف السنين إلى وادي الملوك.

بشير وزوجته عيونهما معلقة على البيوت الصغيرة؛ تودِّع أيامها وشوارعها الطيبة الضيقة في المساحة والرحيبة في الروح.

تختفي القرية بشكل تدريجي حتى تصير بحجم أنملة، ثم تتلاشى من بُعد المسافات بالسيارة التي تُسرع مبتعدة تقودهم برعونة إلى المجهول.

مع شروق شمس اليوم الجديد تدخل السيارة تتهادى وهي متعبة إلى شوارع الإسكندرية النظيفة بالفِطرة في تلك الآونة، تحمل أحلام رضا وآلام أبويه المرهقين حتى تستقر تمامًا أمام

عمارة في المنشية (عمارة مصطفى) أو بالأحرى عمارة والده في ذلك الحين.

أمام العمارة يقف الحاج (رافع سراج الدين) المالك، رجل طويل القامة، ذو شعر مموج، بأنف طويل ومدبب، يرتدي بدلة سوداء، عاقدًا يديه خلف ظهره. وإلى جواره (نصر أبو دهب) رجل صعيدي مفرط في الضخامة، ذو شارب عظيم وكفين يمكنهما حمل الأهرامات ومنكبين أعرض من شارع سيزوستريس القابعة فيه العمارة.

يشير رافع إلى سائق السيارة بالوقوف، بينما ينزل بشير ليساعد زوجته التي تيبست ركبتاها من أثر السفر الطويل الشاق، ويحمل ابنه رضا النائم ليضعه في حضن أمه.

يرحب بهم رافع:

- يا مرحب يا مرحب، إحنا زرنا النبي... اتفضلي، اتفضلي يا أم رضا ادخلي ارتاحي في الأوضة إلى ع الشمال في البسطة وافردي ضهرك ونيمي الواد.

يومئ لها بشير بأن تستجيب لما قاله رافع. بينما يسهب رافع:

- وإنت يا حاج بشير اتفضل معايا أنا مكتبي لازق في الأوضة. ولا لسه محجتش؟

بشير مبتسمًا:

- والله لسه يا رافع بيه، الشوق للمصطفى واكل قلبي.

- لا، بإذن الله نزوروه عن قريب، ألف صلاة وسلام عليك يا

حبيبي... وإنت يا نصر ساعد الاسطى ونزِّل حاجات عمك بشير، واندهلنا على الخواجة ولو نايم صحّيه.

يرد نصر بصوت أجش:

- حاضر يا سي رافع. يلا يا أسطى لافيني لوح الخشب الكبير ده.

طارقًا على الخشب يختبر صلابته، ويسأل بشير غير المُنتبه إلا للحاق برافع:

- عِرق خشب مليح بايع يا أبو خالو؟

يتجاهل بشير حديثه.

يبدأ نصر في إنزال العفش، بينما يدخل بشير إلى مكتب رافع الذي يجلس على مكتبه، مغلقًا الباب من خلفه.

رافع:

- اقعد يا بشير إنت صاحب مكان يا راجل يا طيب. إحنا خلاص بقينا أهل، أنا كمان عندي مصطفى أكبر من رضا بشوية وعلية كمان أختهم الكبيرة.

يجلس بشير بشيء من الارتباك ويقول:

- كان الحاج قناوي قالي إن فيه مطرح عندك وشغلانة ناكل منها عيش.

- أُمال....

يخرج من جيبه علبة سجائر ويعرض على بشير واحدة، لكنه يشير بيديه رافضًا. يشعل رافع سيجارته ويسهب:

– ومن غير ما قناوي يقول إنت في بيت أخوك... إلا قولي يا بشير إنت كنت شغال إيه؟

– خطَّاط، بكتب إعلانات ودعاية، وبعلِّم العيال الخط.

– طيب حلو ده، مع تمن الحتة اللي معاك والشغل هنا؛ د إنت تبقي صاحب مِلك.

بشير متحسِّسًا التمثال في جيبه:

– أنا كمان جبت الحاجة معايا زي ما اتفقت مع قناوي.

– يا سيدي اصبر إنت مستعجل ليه؟ خد نفسك الأول. كفاية وشك السِمح. وأهو دلوقتي الخواجة يجي ويشوف الحتة إلى معاك.

يطرق باب المكتب ليشير إلى الباب، ضاحكًا:

– أهو جبنا في سيرة القط، مش كنا افتكرنا عشرة جني... ادخل.

يدخل الخواجة. رجل ستيني نحيف قصير القامة ببدلة صوف قديمة، يحمل حقيبة صغيرة تحت إبطه، يدور بعينيه في الغرفة ويتفحص بشير. ثم يلقي السلام:

– نهارك سعيد يا سيد رافع.

– نهارك سعيد يا خواجة. أعرّفك: بشير أخويا وحبيبي.

الخواجة يحيّي بشير، ليرد له التحية ويجلس أمامه.

رافع:

– ها يا بشير الدار أمان، الخواجة عِشرة عمر وواحد مننا، فرّجنا بقى معاك إيه.

بهدوء يمد بشير يديه المتجمدتين من القلق إلى جيبه ويُخرج لفافة بيضاء يضعها أمام رافع الذي يلتقطها ويفتحها قائلاً:

– اللهم صلى على حضرة النبي

يفتح رافع اللفافة ليكشف عن التمثال الرخامي الصغير، يتفحصه بعينين غير راضيتين وشفتاه مقلوبتان.

– بقى يعني يا بشير إنت جاي من أرض الخير عشان تجيب حته من عندنا.

ضاحكًا يمد يديه بالتمثال للخواجة الذي يمسكه بمنديله القماش ويُخرج عدسة مكبرة من حقيبته ويبدأ في فحصه.

بشير:

– حِتة من عندكم إزاي؟!

– الحِتة دي إسكندراني روماني ولا يوناني، وفي منها مضروب كتير، كنت عشمان فحاجة فرعوني ويا سلام لو دهب ولا حجر كريم تسوى شيء وشويات تساعدك في دفع الإيجار وتثبّت رِجلك معانا في الشغلانة.

– لا يا رافع بيه أنا مش دي شغلانتي. والحاجات دي وِرث عن جدي، وأصلية... والله أصلية.

ثم ينظر للخواجة الذي ما يزال منهمكًا في فحصها.

رافع:

- أهو الخواجة اللي يقول بقى.

يضع الخواجة التمثال ببطء على المكتب ليتوسط المشهد كشاهد غاضب على مصيره. يخلع الخواجة نظارته ببرود وابتسامة سمجة، ويقول:

- أصلية يا سيد رافع.

يطلق بشير زفيرًا طويلاً:

- الحمد لله.

يقاطعه الخواجة:

- بس سوقها صعب والطلب عليها مش كتير، هتغلّبكم في البيع وزبونها هيكون متعب ومش أي حد هيعرف يقيّمها ويتمّنها... غير الفرعوني خالص.

يطرق رافع بأصابعه على المكتب:

- أديك شايف يا بشير يا اخويا، أنا عايز أساعد والله.

- ده نسخة مصغرة من (أبوكسيومينوس) منحوت بأيد (ليسيبوس) شخصيًا. منحوتة بنفس دقة وأبعاد التمثال الأصلي لكن بحجم أصغر.

بينما يطالعه الخواجة من تحت نظارته الطبية مندهشًا من معلوماته.

يقاطعه رافع وهو ممسك التمثال:

- يا بشير الكلام ده تقوله للسواح... هنا الزباين بتحب

الفرعوني وبتحس بقيمته وبتعرف تقيّمه كويس. ثم لامؤاخذة أنا محطش حاجه كده فبيتي راجل قالع ملط

ويكمل ضاحكًا:

– ولامؤاخذه بتاعه زي العيل الصغير.

ثم ينفجر في الضحك، بينما يجاريه الخواجة بضحكة مجاملة، ليسهب رافع قائلاً:

– اسمه إيه؟؟ ابوكسمين ايه؟؟؟

يرد بشير بشيء من الإحباط:

– أبوكسيومينوس... ثم هو طريقة النحت وقتها... فلسفية... كانت تقلِّل من الأعضاء الذكورية عشان لما تتقارن بالراس تدي غلبة للفكر والـ.....

يقاطعه رافع:

– اصبر بس يا بشير، محلولة إن شاء الله، أنا مش الزبون، أنا هآخدها من إيدك أحطها فايد اللي يقدَّرها.

موجهًا كلامه للخواجة:

– اتوكل إنت يا خواجة، معلش صحيناك بدري.

الخواجة مغادرًا:

– لا ولا يهمك يا سيد رافع، اللي زيي أصلاً مبينامش.

ثم يخرج ويُغلق الباب خلفه.

يتأكد رافع من انصراف الخواجة ويقول:

– أنا اشتريت، بس الحسبة هتتغير. إنت يا سيدي تشوف طلبات العمارة وتخلي بالك منها وليك مني معلوم محترم أول كل شهر، والأوضة اعتبرها بتاعتك تدّخل خلوها في تمن الحِتة اللي معاك يبقى إنت كده مدفعتش حاجه وشغَّال وبتقبض وساكن كمان ببلاش، مرضي يا أبو رضا؟

يصمت بشير للحظات وهو ينظر إلى الأرض، ليعيد رافع السؤال:

– مرضي يا أبو رضا؟

يومئ بشير برأسه بالإيجاب بقِلة حيلة.

رافع:

– يبقى نقرو الفاتحة عشان البركة تحل.

يرفع كليهما يديه قارئا للفاتحة... وبدون أدنى إنذار يقتحم مصطفى الصغير مكتب أبيه... يقف مدهوشًا أمام التمثال الذي خطف بصره كُليًا وكأنه يعرفه منذ سنين عن ظهر قلب.

رافع ناهرًا ولده:

– إنت يا جحش، مش تخبط وإنت داخل.

وهو يحمل التمثال ليضعه بعيدًا عن نظر مصطفى الذي بقي بناظره معلقًا على التمثال.

رافع:

– تعالى سلّم على عمك بشير عنده واد مقطقط اسمه رضا

زي العسل، ابقى العب معاه.

يبتسم بشير إلى مصطفى ويقبِّله...

- إزيك يا مصطفى؟

مصطفى مبتسمًا:

- الحمد لله، إزيك يا عم بشير؟

- رضا يا حبيبي الحمد لله.

رافع:

- إيه اللي مصحيك بدري يا درش؟

- أمي كانت بعتاني وبتقولك إن ستي قهوات جاية؛ ابعت حد يجيبها من محطة مصر.

- حاضر يا سيدي. خدمة تاني؟

يهز مصطفى رأسه نافيًا وعينه لا تزال معلقة على التمثال.

(٦)

استيلا ميكاليديس

شقة مصطفى

(يوم العودة)

يجلس علاء على أحد الكراسي الوثيرة في الشقة مُطلاً على البحر، بينما مصطفى في الحمام كعادته يبول واقفًا غير موصد للباب غير مبالٍ بوجود علاء الذي لا يمنع نفسه من التعليق:

- إنت يا جدع أنت مش هتبطل العادة المقرفة دي؟

مصطفى ضاحكًا:

- مكسوفة يا قطة... إنت لسه ياض يا علاء بتطرطر وإنت قاعد زي النسوان؟

- دي نضافه يا همجي... فرنسا إيه دي اللي إنت جاي منها؟!

- معاك حشيش؟

- هو أنا تاجر المفروض يعني أكون ماشي بحشيش في جيبي؟

- يوووووه اخلص... معاك ولا نبعت نجيب؟

- لا طبعًا معيش. ثم إنت هتبعت مين ما أنا اللي هتورط وأروح اتشبه عشان مزاج سعادتك.

– طب بسرعة ورحمة أبوك عشان شويه وهتلاقي علية داخلة علينا وندخل في موشحات وجوزها اللطخ ده بدقن أمه مش هنخلص.

وما أن ينهي مصطفى جُملته حتى تتلاحق طرقات مسرعة على الباب. فيضحك قائلاً:

– أهي الموشحات جت وملحقناش نعمل دماغ تفصلنا.

الطارق لا يزال يطرق الباب بشكل متتابع، ليعلِّق علاء مازحًا:

– علية إيه؟ دي شكلها المباحث جت ع السيرة. أنا هبلغ عنك، أنا محامي محترم.

يفتح مصطفى الباب ليجد أمامه (استيلا) جارتهم الجريجية (اليونانية)، امرأة قصيرة ممتلئة إلى حدٍّ ما، ذات شعر قصير ممزوج بحناء فاتحة يعتليه الشيب، ووجه أبيض يميل إلى الحُمرة؛ ويُزيد الغضب من احمرار خديها والعرق يندي جبينها.

مصطفى بحماس:

– استلا، وحشتيني.

استلا بعصبية:

– الله يلعنك إنت وأبوك والحمار إلى واقف هناك ده (علاء) وأبوه هو كمان.

علاء:

– وأنا مالي يا ست إنتي؟

تقترب منه وفي يدها العلكة التي لصقتها نوشا على الباب، تلصقها على قميص علاء الذي ينزعج جدًا من تصرفها، ويحاول الكلام، لكنها تقاطعه بحزم كسلاح آلي متعدد الطلقات في يد محارب حديث محترف؛ قائلة:

- لمَّا تحب تعطّف وتقفّش ابقى اختار مكان مناسب مش قدام بيوت الناس، وقول للقحبة اللي شبشبتلك بالكلام متتفش ع السلم ولا تلزق لبنتها عندي ع الحيطة تاني، أهي اللبانة نشفت ووقعت ولحقتها من بوق القط كان هيبلعها وتلبِّك مصارينه واجري يا ستلا بالقط ع العيادة وادفعي يا استلا... كتكم القرف إنت وهي.

لحظة صمت من الجميع تقطعها استلا بهدوء وابتسامة:

- حمد الله ع السلامة يا حمار.

وتقبِّل مصطفى الذي يبتسم، ولكن متعجب من موقف علاء.

تسير استيلا بهدوء للباب وهي تقول:

- ابقى تعالى اتعشى معايا يا مصطفى، هات أختك وتعالى. ومتجبش الحمار ده معاك هبعتلك طبقه. وجوزها كمان ميجيش ولا هبعتله طبق أصلاً

تخرج بعدما وضعت علاء في موقف سخيف، يحاول التبرير، فيقاطعه مصطفى:

- انزل هات الحاجة. واضح إن نوشا طرقعتلك جامد.

لينفجر بعدها في الضحك مسهبًا:

– في بير السلم يا عيل؟

استلا ممسكة بالدرابزين تتهادى على السلم، لتجد أمامها نصر أبو دهب الذي يفزعها...

– يخرب بيتك إنت كمان، لسه عامل زي اللوح زي ما إنت، مش تتنحنح ولا تعمل صوت.

– وعليكم السلام يا ست استلا، حياة النبي توصّي الأستاذ مصطفى علينا في البيعة وأنا أراضيكي يا ست الكل.

تقف استلا التي بالكاد تصل إلى وسط نصر وهي تقول:

– عايز تبقى صاحب مِلك أنت كمان؟؟؟ وماله هي جت عليك.

– وماله يا اما، مش بني آدم إياك.

تفتح باب شقتها وبصوت مسموع تقول له:

– يا مه؟؟ تور وبيقولي يا امه، روح اشتري جلباية تانية ولا صابونة حتى، وبعدها تعالى اشترينا.

تدخل شقتها وتغلق الباب بعنف.

كل ركن في شقتها مُرتب بعناية فائقة. تُحف تملأ المكان، وصور توثِّق تاريخ فتاة جميلة كانت تهوى الباتيناج ولعب التنس في النادي اليوناني وتشهد كؤوسها على حُسن أدائها، وبعض الميداليات تحمل تواريخ الأربعينيات وحتى أوائل الخمسينيات من القرن الماضي... عبد الوهاب في الجرامافون

يغنِّي: (ودَّعني من غير ما تسلم) من رائعة (يا مسافر وحدك) لترُد عليه الستائر البيضاء بفعل هواء البحر كراقصة باليه وهي تتهادى لتكشف عن البحر الأبيض في الأفق بلونه الأزرق، ونجفة في البهو الرئيسي تتمايل بفعل الموسيقى والهواء لترسم خطوط إضاءتها يمينًا ويسارًا. بينما استلا في طريقها للمطبخ يتبعها قطيع من القطط يعرف بدقة موعد وجبة الغذاء، واستلا المنهمكة في تنظيف قطع السلمون الطازجة لتفرش وليمة غنية لقططها العشرين أو يزيدون، بينما تكتفي هي بكسرتين خبز وطبق صغير به قطعة من الجبن القريش مرصع بقطع الطماطم المُقطَّعة بعناية فائقة...

تفتح تلفازها الذي يعرض مسلسل (باقي من الزمن ساعة) للأديب (نجيب محفوظ). والذي يُعرض لأول مرة.

(٧)
ليسيبوس العظيم

إحدى ساحات معبد يوناني
في اليونان القديمة / أثينا
عام ٣٣٥ قبل الميلاد

(ليسيبوس) النحَّات صاحب البضعة وخمسين عامًا، والمكلَّف من قِبَل (الإسكندر الأكبر) بنحت عدد من التماثيل، ونحاته الخاص يقف أمام تمثال من الرخام غير مكتمل لـ(هرقل) الإله اليوناني وهو يصارع أسدًا، بينما يراقب عمله عن كثب (استيفانوس) الراهب المُخوَّل بهذا المعبد، يقترب من ليسيبوس قائلاً:

– مُدهش. التفاصيل ونعومة الحركة.

– أشكرك أيها الموقر، إنه (ابوكسيومينوس).

– رائع... رائع حقًا. ومَن غيره ليسيبوس العظيم قادرعلى إنتاج مثل هذه الأعمال.

– أشكرك أيها الموقر؟

– هل تسمح لي بالحديث؟

– ومَن يستطيع أن يمنع صوت الإله أن يصل إلى مسامع البشر؟ هيا... هيا تكلَّم، فإن قداسة زِيّك تخول لك حرية الحديث وقتما شئت.

– لا أظن أن الأمر يبدو بتلك الصورة، فالصوت هو صوتي، أنا مجرد خادم في المعبد أحاول الربط جاهدًا بين الأرض والسماء ليس أكثر.

– لا عليك سيدي الموقر، كل ما في الأمر أنني لستُ على وفاق في بعض الأحيان مع حال الآلهة. وإن كنتُ أخجل من الخوض في هذا في قُدس معابدهم.

استيفانوس مندهشًا:

– غريب...

– وما الغريب في الأمر؟

– كنتُ أظن أن النحّاتين والرسَّامين هم الأكثر إيمانًا.

يقترب استيفانوس من تمثال هرقل قائلاً:

– اُنظر... أنت من جسَّدتَ الإله لعَوام البشر ليروه ويلمسوه ويشعلوا النيران والقرابين ويقدموا الخمور لوجوه يعرفونها عن ظهر قلب. أنتم من أتممتم الإيمان في قلوب الناس بفنونكم.

ليسيبوس ضاحكًا:

– لا لا لا يا سيدي الموقر، أعطيتنا أكبر بكثير من أحجامنا...

مشيرًا إلى صدره قائلاً:

– هنا تظهر صورة الإله أو الحاجة إليه.

ثم يشير إلى رأسه:

– فيسري إلى هنا، ليتم تقييمه ومدى نفعه. وتشتهي العين التعرف عليه، فإن النظر إلى العظماء شهوة الرِّعاع والعَوام ممن يصطفون على الطرقات مزاحمين ليروا ملكًا أو أميرًا يلقون إليه بالتحية صارخين ليومئ لهم مجرد إيماءة دونما اكتراث... أنتم من تصفون ونحن نجسِّد ونُلبِّي رغبة العين لما يرتضيه العقل من صورة بهية لإلهه حتى تستقر الصورة في قلوب الناس ويستمتعون بمعبودهم ويُخلصون في عبادتهم له... (مبتسمًا بخُبث): ويتضرعون بقرابينهم وما يملكون حتى ترضى عنهم الآلهة.

استيفانوس:

– وأنت ماذا عنك؟

– أنا؟... ماذا عني؟

– هل لديك إله مفضّل؟... مممممم، دعني أُخمِّن...

– تفضَّل خمِّن.

– أراك دائم التأثر بهرقل، فقد يكون هذا انتماءً لوالده زيوس؟

ليسيبوس عاقدًا يديه خلف ظهره مُفكِّرًا:

– لم أنظر إلى القضية أبدًا من هذا الجانب.

- وكيف تراها إذًا؟

- هرقل ابن الإنسان، ألقته الآلهة في مخاطر دهماء، طبيعة إنسانية تحمل روح الإله زيوس بخلوده وألوهيته ورعونة الإنسان وخطاياه؛ خليط بين شهوات بني البشر وخلود ووقار الآلهة، تركيبة يحبها الناس... بينما أنا أُشفق عليه في كثير من الأوقات، وكثيرًا ما ألوم زيوس أن تركه يتحدَّى كل هذا بمفرده؛ مُطالب أن يحارب كإلهٍ بنصف طاقة ويشتهى كإنسانٍ بنُصف نفس ضعيفة.

- هذا من باب الحكمة، كي يتعلم بنو الإنسان أنهم أيضًا ذوو جَلَدٍ وإرادة، وأنهم قريبون جدًا من الآلهة.

ليسيبوس ضاحكًا:

- اعذرني أيها الموقر، كنتُ أفضِّل لو تركنا وشأننا فقط.

- إذًا، أنت ليس لديك إله مفضل على الأقل؟

- قطعًا لي. ولكن أنت من طلبت التخمين واقتحمت نواياي.

- ومن يكون إذًا؟

- إنه (ديونيسيوس).

- إله الخمر؟

- نعم... أطلق له الأبواق وأُغنِّي أهازيجه الخاصة... إله طيب يشاركني النبيذ؛ أو بالأحرى أنا من أشاركه إياه.

– ولماذا لم تجسِّده في عمل من صُنع يديك؟

ليسيبوس منفجرًا في الضحك:

– أيتها السماء، أيها الممجدون في جبال الأولمب.

– ما المضحك إلى هذا الحد؟

– أخشى أن يُغضبك.

– على الإطلاق، أنا مستمتع بالحديث معك ولا أظن أنه في سريرتك ما يغضبني. حتى وإن كان؛ أحب أن أعرفه.

ليسيبوس بهدوء:

– حسنًا، إن ذاك الاستجواب القائم دومًا في الكشف عن سرائر البشر هل تؤمن؟ بمن؟ ولِمَ؟ ولِمَ ليس سواه؟ هل تتعبد؟ هل تجتهد في عبادتك؟... كدتُ أستوقفك وأسألك: هل معك تصريح كتابي بالدخول في نيتي وطرح فرضياتك التي لم تكن موفقة للأسف؟ أو التعامل معي من منطلقها بالرغم من عدم صحتها؟؟... لو كنت جئتني منذ عشر سنوات لتشاجرنا يا سيدي الموقر.

استيفانوس:

– لم يكن الغرض الفضول. هذه ضريبة أن تحيا كرجل دين أو كهنوت. تجديد الإيمان في نفوس البشر مهمتنا... ولكن هل تعلم أنني أنا الآخر لو قابلتك وسمعت ردودك منذ عقود لتشاجرت معك.

يضحك كلاهما، ليقطع ليسيبوس الضحك قائلاً:

- ولكن دعني أجيبك عن سؤالك؛ لماذا لم أصنع تمثالاً لديونيسوس؟... رغم افتراضك أنني لم أفعل؛ ولكنني فعلتُ، كان لدي فائضٌ من الرخام مما يفيض من أعمال أولئك المُحِبون أن تبقى سِحَنهم لفتراتٍ أطول يتداولها الناس بأبصارهم. وكانت لي حديقة صغيرة تحتاج إلى طاولة وكرسي وكنت قد عقدت العزم أن أقوم بتقطيعها بحيث أستغلها بشكل مثالي لصنع تلك الطاولة، ولكن لسوء الحظ كانت قطعة الرخام قائمة بشكل عمودي ولم يكن معي من المساعدين من يساعدني على تسطيح تلك الكتلة أفقيًا كي أقطعها وأبدأ في عمل الطاولة...

- وماذا حدث بعدها؟

- نحتُها إلهًا... كان هو الأمثل لكتلة الرخام المنتصبة في حديقتي. ومن يومها وهو واقف في حديقتي أهديه النبيذ وأُصلِّي من أجله.

- كانت إشارة روحانية مُلفتة حقًا.

ليسيبوس ضاحكًا:

- أنت تحب تأويل الدلالات يا سيدي الموقر، وأنا أحترم ذلك، ولكن وقتها كان احتياجي كإنسان للطاولة أكبر منه للإله، حتى حديقتي الصغيرة في حينها كانت ترجو... لا تنظر لي بتلك

العينين اللوَّامتين. إن ترتيب احتياجاتنا بني الإنسان يتغير من وقت لآخر، حتى حديقتي الصغيرة ترجو من الآلهة ان تسقيها من ماء المطر وان تنبت كرومها بطيب الثمار وكنت اظنها في تلك الفترة كانت متخمة إلى حد جعل الطاولة تأتي قبل الإله... نحن لا نزور المعابد في أوقات الرخاء إلا حينما توشك رحلتنا على الانتهاء عند المشيب، وقتها ندرك أن مصيرًا ما ينتظرنا ونرجو رحمة السماء... العوام مثلي يتمنون قلوب الموقرين والكهنة مثلك، ولكننا لا نقوى أن نمارس حياتكم.

– أقدِّر صراحتك، وإن كانت تبدو فجّة ولكنه واقع عليَّ قبوله. ولكني كنتُ أتساءل إن كان ممكنًا أن تُسدي لنا خدمة؟

– قطعًا أيها الموقر، طالما ليست مالاً فأنا فداءٌ لك.

استيفانوس ضاحكًا:

– لا لا، ليس مالاً.

ليسيبوس مازحًا:

– أتمنى ألا تكون تريد مني أن أُعيده طاولةً أضعها في حديقتك.

استيفانوس ضاحكًا:

– لا لا، كل ما في الأمر أننا نعرف علاقتك الوطيدة بالقصر. والمعبد يحتاج إلى بعضٍ من الترميم، ونحن نقدِّر علاقتك بالإسكندر الأعظم، وكنا نفكِّر لو أن أحدًا من المقربين ينقل له الصورة؛ سيكون هذا أمرًا حسنًا.

ليسيبوس يحك جبينه:

– لأكون صريحًا معك؛ لستُ مقرَّبًا إلى هذا الحد، ولكن يمكنني أن أتحدث مع (دينوقراطس) معماري البلاط الخاص، وأظن أنه سوف يلاقي الأمر بكل ترحاب، فهو من تلاميذي المخلصين ومعماري مميز للغاية.

– سيكون هذا كرم منك يا سيد ليسيبوس. وإن كنت أظنك – دون تخمين هذه المرة – أكثر قُربا من الإسكندر.

– كنا في سابق العهد، لكن مؤخرًا تغيَّر الوضع بعض الشيء.

– هل من الفضول أن أسأل لِمَ تغيَّر الوضع؟

– لأنني غيَّرت في مقاييس الرأس والعضو الذكري المعتادة؛ مقارنةً بالجسد.

– ولِمَ؟

– تصغير الرأس يجعل الإنسان يبدو أطول في قامته مما يبدو في الواقع، والمحافظة على نِسب الإسكندر ستجعل منه شابًا قصيرًا شيئًا ما، وإهمال حجم العضو التناسلي يزكي العقل وينتصر للروح على شهوة الجسد.

– فلسفة تُحترم يا سيد ليسيبوس.

– أتمنى أن يكون للإسكندر مثل رحابة فكرك يا سيدي.

يضع يده على كتف ليسيبوس وهو متأهب للرحيل:

– سعيد بلقائك، وشاكرًا فضل تعاونك معنا.

– سيدي الموقر كلنا مِلك للآلهة ونسعى لإرضائها، وأنا أيضًا سعيد جدًا بلقائك والحديث معك.

يقاطع حوارهما (دينوقراطس) الذي يدخل حاملاً بعض الأغراض في يده...

– أستاذي العزيز ليسيبوس.

– تلميذي طيب الذكر... كنا في سيرتك الطيبة أنا والموقر استيفانوس.

استيفانوس:

– حسنًا، سأترك المجال لمُبدعي أثينا وأعود لعملي.

ليسيبوس:

– فلترعاك السماء أيها الموقر.

دينوقراطس بعد انصراف استيفانوس:

– يثيرني الفضول؛ أود أن أعرف ماذا كان يدور عني؟

ليسيبوس ضاحكًا:

– الآلهة تريد اختبار إيمانك وتود منك أن تعيد ترميم بعض أجزاء من المعبد المتهالك من النذور والقرابين.

– الآلهة؟؟

– أعني مندوبهم على تلك الأرض البائسة.

– آه فهمت... هذا أمر من أستاذي، وجاري تنفيذه.

يمسح ليسيبوس جبينه وتبدو عليه علامات التعب.

دينوقراطس:

– هل أنت بخير يا سيدي؟

– أظن أن الشمس كانت قاسية بعض الشيء هذا النهار.

– فلتسترح إذًا.

– وأترك العزيز هرقل وحده مع الأسد الغاضب؟

يُخرج دينوقراطس عمودًا صغيرًا بحجم الإصبع من الفحم المستخدم في الرسم:

– هذا الفحم من مناجمنا، ففتوحات الإسكندر بدأت تؤتي بثمارها.

يلتقط ليسيبوس الفحم منه بيده اليسرى التي تعوَّد الرسم بها... يُكمل دينوقراطس:

– هذا الفحم أكثر نعومة من السابق، يترك بعض الأثر على اليدين ولكنه يزول بسرعة، سيفيدك في التصوير الأولى لأعمالك أيها النحات الأعسر العظيم.

الشمس في حديقة المعبد حارقة، استنفذت كثيرًا من طاقة ليسيبوس الذي تداخلت في عينيه الصورة والألوان، وبدأ يشعر بدوّار ثم سقط مغشيًا عليه، ليجثو دينوقراطس على ركبتيه هو الآخر صارخًا بصوتٍ عالٍ؛ طالبًا الغوث:

– سيدي ليسيبوس... النجدة... بعض المياه من فضلكم.

جامعة الإسكندرية

مبنى كلية الهندسة - قسم العمارة

عام ١٩٧٢م

مصطفى الطالب بالسنة الرابعة ساقطًا -وليس للمرة الأولى- على أرضية المدرج متشنجًا مرتجفًا شاخص البصر، يعتصر لسانه تحت أسنانه وهو يزوم بأنين مسموع. والطلاب من حوله يحاولون إفاقته. يقترب مجدي المعيد المسؤول عن الفصل، يجثو على رُكبتيه، يميل رقبة مصطفى المتشنجة إلى الخلف ليحاول التخفيف من ضغط الفك وهو يشير بمنتهى الدقة لأحدهم بصوتٍ عالٍ حاسم:

- إنت: كوباية مية من الحنفية بسرعة.

ثم يشير للآخر:

- وإنت: قُطن من أوضة الإدارة في الحمام تالت رف شمال، بسرعة... الباقيين مش عايز حد غير واحد بس.

مشيرًا إلى طالب آخر:

- إنت: اِستنى.

الجمع متوقف لمشاهدة ما يحدث بحُمق الجماعات التي تشابهت أيامها وتبحث عن أي حدث يكسر ملل حواراتهم، ولا

مانع من أن ينسج عليه بعض خيوط الكذب لتكون الروايات بين الأهل والأصدقاء أكثر تشويقًا.

يصيح مجدي الذي يتناول القُطن وهو يجفِّف دمًا سال على شفتي مصطفى...

- يلاااا، مش عايز حد هنا.

يهدأ جسد مصطفى رويدًا رويدًا حتى يستقر. يستفيق ببطء لينظر حوله، يدرك أن نوبة جديدة قد هاجمته وسط رفاق الدراسة، والخجل لا يُشعره بألم جسده ولا نزيف لسانه وشفتيه الداميتين التين افترسهما بأسنانه في نوبة الصرع التي انتهت للتو... يحمل كتبه التي سقطت، ويشير للجميع أنه بخير...

يستوقفه مجدي:

- تحب حد يوصلك؟

يومئ مصطفى بالنفي، وينصرف دون أن يحاول النظر إلى عيني أحدهم، يود لو يصم فلا يسمع كلمات الشفقة التي تتناثر من حوله وتُلقى كأنها حجارة من سجيل تخترق جسده وتكسره أكثر من كونها تواسيه أو تدعمه.

على كورنيش الإسكندرية اختار مصطفى أن يسير ليصل إلى منزله. البحر دومًا قادر على أن يُهدئ من روعه، ويستهويه أن يغادر تلك المدينة التي ارتبط اسمه فيها بالمرض العصبي غير المفهوم أو المتعارف بين كثير من المحيطين به.

يصل إلى منزله. يفتح الباب متجهًا إلى الحمام. تـراه أمه آسمين، فتلحق به:

- مالك يا مصطفى؟... إيه الدم ده؟... رد عليا يا مصطفى.

يُغلق باب الحمام خلفه دون رد، بينما تقف آسمين على الباب محاولة التحدث من خلف الباب:

- افتح طيب وريني الجرح انضفهولك.

يخلع قميصه الملطخ بالدماء ويقف نصف عارٍ أمام المرآه يطالع نفسه.

آسمين:

- افتح يا حبيبي ومتوجعش قلبي عليك... طيب اشطف بقك كويس، أنا هحضرلك غيار جديد... وميهمكش يا صفصف.

وبصوت شبه باكي:

- كلنا جنبك يا حبيبي وبنحبك.

مصطفى يكتم البكاء في أنفه، وعيناه ينهمر منهما الدموع.

آسمين باكية:

- اوعى تزعل أو تعيط يا مصطفى، إنت راجل جدع، أنا ست مبعرفش أمسك دموعي.

هنا ينفجر مصطفى، يجلس باكيًا خلف باب الحمام.

تجثو آسمين على ركبتيها، تستشعر جسد ابنها من خلف الباب:

- الدكتورقال مع العلاج هتتحسن، وإحنا بنتحسن يا حبيبي... بكره نضحك ع الأيام دي.

مصطفى منهارًا في الداخل:

- أنا مش عايز أروح الجامعة تاني، ولا عايز بكرة ده أصلاً اللي هضحك فيه على الأيام الهباب دي... أنا بقعد أرفّس زي الدبيحة قدام ناس معرفهومش ولا يعرفوني... اللي بيحصل ده ليه يا أمي؟؟ تعرفي تقوليلي ليه؟

- عشان ربنا بيحبنا وبيختبرنا.

- حُب إيه يا أُمي؟؟؟ اللي بيحصل ده قسوة وقلة قيمة.

- اهدى يا حبيبي، كله هيبقى كويس. متعيطش في الحمام وحياتي عندك.

مصطفى متهكمًا:

- خايفة أزّعل المارد اللي راكبني؟... طب خليه يطلع لي وأنا أطّلع ميتين أمه.

- يا ابني بلاش الكلام ده، متزودهاش على نفسك.

تقوم آسمين لتشعل البخور وتفتح الراديو على إذاعة القرآن الكريم، بينما ينهض مصطفى ينظر بحسرة إلى جرح عميق تركته أسنانه في شفتيه، ويفتح كلتا يديه ليجدهما ملطختين بعض الشيء بلون أسود، ويبدو كأنه بواقي فحم على أطراف يده اليسرى وتحت أظافره.

(٨)
زينـة

الإسكندرية

يوم العودة قبيل الغروب

الإسكندرية في الثمانينات لها طابع خاص، هادئة إلى حد التأمل شتاءً، برغم أن ما يقارب مليوني نفْس يعيشون فوق زعفرانها إلا أنها تبدو هادئة تحوي كل الأطياف، ولكنها متحابة؛ زحامها دفء، والوِحدة فيها تثير شجون العشق...

يجلس مصطفى على أحد المقاهي، أمامه كوب من الشاي الكشري الساخن يقف إلى جوار كوب من الماء البارد على طاولة معدنية، وصوت محمد فوزي مطربه المفضل في الخلفية قادمًا من الراديو، يشدو: (تملي فقلبي يا حبيبي). ليس في باريس ولا برشلونة قد تجد تلك الأجواء، لكنك قد تعثر عليها في إيطاليا في المدن الساحلية أو في أثينا، فالبحر قد فصل الأرض ووصل المزاج العام والثقافات.

مصطفى الشارد في أيامه وذكرياته وأطفاله الثلاثة الذين أنجبهم من طليقته (هدى الخلاني) التي بقيت في فرنسا مع الأطفال: عثمان وعلي وعالية.

ربما صوت فوزي دومًا ما يثير شجونه، يبحث في عذوبته عن الحب، الذي - وبرغم زواجه وعلاقاته النسائية- لم يعثر عليه حتى الآن. فالحب من منظوره هو ذلك السراب الأبدي الذي يسعى به الإنسان للكمال بروح تطابق روحه، وكان دومًا ما يسأل: هل الحب فعلاً أكذوبتنا الصادقة؟ هل هو وهم اجتماعي يستهوي به الرجال آذان النساء لدعوتهن بأدب وتحضر إلى مضاجعهم لممارسة الجنس تحت مظلة إنسانية اسمتها الحضارات (الحُب)؟... أفروديت وعشتار وغيرهن من آلهة الحُب كُنَّ عرايا في معظم التماثيل التي نحتها الرجال. كُنَّ ذوات نهود مثيرة ومعاير جسدية مثالية... وإن كان هذا منظورًا ذكوريًا، فكيف هو الحب المثالي عند النساء؟ أهو الرعاية والقوامة المالية؟ أم هو الاحتواء والدعم النفسي والمادي وتلبية الرغبات؟

فالأمر مربك لمن لم يحب. يبدو كعملية مقايضة الرومانسية مقابل الجنس، والكلام المعسول مقابل اللمس، والإنفاق مقابل الاستقرار. فكل قصص الحب الخيالية انتهت بمأساويات، والواقعية انتهت بزواج دهس بثقل مسؤولياته أي عاطفة لنعيش. لا نطيق خِفة الوحدة ولا ثِقل الحب، ليبقى السرير متنفسًا للذكور، وتلبية رغباتهم في تمرير جيناتهم لأجيال قادمة. ويبقى الإنفاق وبعض من الاهتمام مردودًا ترتضيه النساء.

فالحب يبدو كما قال (محمود درويش): كذبتنا الصادقة. وإن كان الرجال؛ كل الرجال؛ رغم خشونة طباعهم يبحثون عن ذاك الحب الذي وجده بعضهم في أمهاتهم. وأمَّا عن النساء فحدِّث ولا حرج، فهنَّ الباحثات دومًا عمن يحبهن لشخوصهن، وإن أبدينَّ من الزينة والدلال يكون فقط بغرض اجتذاب نظر أحدهم لكي ينظر أعمق لما بداخلهن.

وسط زخم الأفكار يلقي مصطفى بناظره مطالعًا للمارَّة في الشارع من أمامه... كم تغيَّر الشارع في الإسكندرية: الألوان والملابس، الحجاب واللِحى. الملصقات الدعائية تغطي الجدران ووسائل المواصلات، بعض ذيول الرأسمالية تطوف بين الناس، تغيرت كثير من المفاهيم: اقترنت الرأسمالية بالدين فتجد وفود الحجيج يحملون معهم مسابح وبطاطين وألعابًا للأطفال؛ جميعها صُنِعت في الصين، ويهادون بها الأهل والأصدقاء وهم يقولون: هدية من عند النبي والنبي قبل الهدية. أي نبي أرسل مع الحجيج قفطان وسبحة بلاستيكية؟ قطعًا هو (بوذا) فكل ما حمله الحجيج صناعة صينية.

والإسكندرية كسائر مدن مصر تغيَّرت، فلقد قلَّ اليونانيون والطليان واليهود، فتغير معهم النسيج الاجتماعي، وتبدّل شيءٌ ما وجَّه المصريين وسلوكهم.

الزحام في رأس مصطفى والمشاهد التي يراها؛ تمثِّل إزعاجًا بعض الشيء... حتى تظهر هي.

هي... هي...

فتاة تجلس أمامه بثوب أبيض على سور الكورنيش، ولكن لا يرى ملامحها بوضوح كافٍ، تضع سماعات (الوكمان) ذلك الاختراع الحديث الذي طلَّ على العالم في أواخر السبعينيات ليمكِّنك من سماع الأغاني في كاسيت صغير بحجم كف اليد. يندهش مصطفى بعض الشيء، هل وصل الوكمان إلى مصر بهذه السرعة، يا للعالم الاستهلاكي النمط والطباع.

تثير الفتاة فضوله. يُبقي نظره معلقًا بها وهي تبدو غارقة في موسيقاها. تستدير في جلستها لتضع الشارع في ظهرها وتهبط لتسير أمامه على رمال البحر، فينهض مصطفى تاركًا ثمن الشاي على الطاولة ويقطع طريق الكورنيش ليراقبها عن قرب أكثر ويتابعها من على الرصيف. وبينما هي تسير على الرمال وبدأت تظهر له بشكل أوضح حينما اقتربت... إنها هي، هي، هي...

قدماها متناسقتان تنطبعان بخفة فوق الرمال كقُبلات يرسلها عاشق إلى محبوبته على شاطئ بكر لم تطأه قدمٌ من قبل، الموج يلاحق أثرها بروية وكأنه طرف جلباب صوفي يتمسح بأعتاب باب الأولياء المقدس يلتمس منه البركات، فيستحي أن يمحو الأثر ويأبى إلا أن يتبعه ويتحسَّسه. وصاحبة الأثر تمشي دونما التفات إلى ذاك الرمل العاشق والموج المتيم. ترفع طرف ثوبها لتكشف عن ساق خمرية كنبيذ منسي في قارورة آدم وأطراف

ثوبها المبتلة ملتصقة بساقها تعلن الحب لنعومتها، وخصرها المنحوت بمثالية يتمايل بهدوء كريشة تتهادى في يوم عليل فلا تسقط ولا تعلو، ونهدين كحبتي مانجو غضتين قد قُطفتا للتو يظهران بثقة مثيرة من متسع عنق فستانها، مستديرين لامعين، يخشى أثمن الحُلي أن يواري تناسقهما فهما ألين شيء قد تلمسه بعينيك قط... وشعرها خصلات حمراء مجدولة تومض في عين الشمس تتحدى بريقها تنساب كشلال نار، وكأن بركانًا ينساب على ظهرها كسلاسل أرجوحة أطفال حتى يعلو فوق مؤخرتها، تتهادى خصلاتها عكس حركة خصرها في خلاف لا يزيد الصورة إلا كمالاً.

من بعيد هو يجلس ويراقب كفهد ينتظر غزالاً شاردًا، عيناه تدرس تفاصيلها وتقطف من ثمار عودها، وأُذناه تسمع خُطاها البعيدة على الرمال، وحسّه يعد عليها حتى نبضات قلبها. يراقب من بعيد أنفها الدقيق الشامخ وعينيها المتسعتين الطموحتين وشفتيها الصغيرتين المستديرتين المبتسمتين كفارسٍ نال من كل أعدائه يمرُّ من تحت قوس النصر على بوابات وطنه بغرورٍ جميل. وهو يراقب كثب ويعشق فيها الغرور، فهي أجمل من باريس وأبهى من روما وأوضح من أقلام الفحم، هي اللون الأحمر بذاته وطاقته هي عمود من مرمر لين ازدان به معبد عتيق.

يقفز مصطفى من فوق سور الكورنيش ليسير خلفها وهي تسير

تحمل حذائها الأبيض وتضع سماعات الوكمان، ولا تنتبه له وهو يقترب منها.

يبدأ متحدثًا من خلفها:

– مساء الخير... لو سمحتي من فضلك.

لا تسمعه، فصوت موسيقاها الصادرة من الوكمان تحجب صوته، فيضطر لأخذ بعض الخطوات ليقف أمامها.

تعبس متعجبة من تصرفه. ترفع السماعات. فيبادرها قائلاً:

– معلش، آسف إني بزعجك.

– خير؟!

يسهب بلفة جسد مرتبكة:

– أنا بس كنت قاعد على القهوة اللي هناك، وشوفت الوكمان، وحابب أعرف لو حبيت أجيب واحد ممكن ألاقيه فين؟

الفتاة صامتة. ليسهب مصطفى في الحديث:

– أنا متأسف مرة تانية إني قاطعت خصوصيتك، أنا مش بعاكس والله، بس بقالي فترة بعيد عن مصروفعلاً مش عارف أقدرألاقيه فين.

– خلَّصت؟

– تقريبًا... بس لو الرد هيزعجك أو يعطلك أنا ممكن أمشي حالاً، وهسأل وهعرف.

– طيب... اسأل واعرف.

مصطفى بصوت محرج:

– آه مفهوم. آسف مرة تانية.

– ولا يهمك.

يبدأ بالالتفاف مستكملاً مسيرته بعيدًا وهو محرج ويستشعر خيبة الأمل... قبل أن يسمع من خلفه صوت الفتاة:

– بتحب المزيكا؟

يستدير مبتسمًا:

– بحب الكلاسيك: موزارت وبيتهوفين وشتراوس. وبأحاول أتابع الجديد.

– وبتحب مين كمان.

– محمد فوزي.

– الملحن ولا المطرب؟

– الملحن والمطرب والممثل.

– بنفس الترتيب؟

مصطفى مفكرًا:

مممم، مش متأكد، بس يمكن يكون ده ترتيبه بما إني رتبته كده، كانت القهوة لسه مشغله (تملي فقلبي)، استنيت لما خلصتْ وبعدها جيت أسألك.

– تعرف إن الغنوة دي اتكتبت في القطر؟

مصطفى يقترب خطوتين:

- لا معرفش. إزاي؟

الفتاه بحماس:

- بُص يا سيدي، الشاعر عبد الفتاح مصطفى كان مسافر مع فوزي؛ طلع ورقه بيضا وكتب أول كوبليه، وكنوع من التسلية راهن فوزي إن يلحنها، وفوزي فعلاً قبل الرهان ولحَّنها.

- أول مرة اسمع الموضوع ده.

- دايمًا في حدوتة حلوة ورا كل عمل حلو: كتاب؛ لحن؛ أغنية؛ لوحه. دايمًا بتلاقي حدوته حلوة، أو ممكن معاناة بتترجم في شكل عمل فني.

- أنا شايف إن الفن طاقة بتتحول من مشاعر أو تجربه لشيء ملهم، وكل واحد بيترجمها بأدواته: الرسام لوحة، والشاعر أغنية أو قصيدة. عندك مثلا موسيقى (هكذا تحدث زردشت) لـ(يوهان شتراوس) كانت نتاج قراية كتاب لـ(نتشيه) بنفس الاسم اللي مستوحيها من قصة (زردشت).

- حلو ده، أبقى أدور عليها وأسمعها... وإنت بقى كنت هربان فين يا أستاذ..... معرفتش اسمك؟

مصطفى ضاحكًا:

- آسف معرّفتش نفسي... مصطفى سراج، ومكنتش هربان، كنت مستقر برة مصر في أوروبا لفترة.

- يا ساتر يا رب، أنا بخاف من الحاجات اللي بتيجي من أوروبا

وخصوصًا اللي بتيجي من ناحية البحر. (وهي تشير اتجاه البحر).

- ليه بس؟ البحر ده مليان خير.

- للسمك والصيادين. لكن ياما جاب مصايب.

- مصايب؟ ليه؟؟

تجلس الفتاة وتشير لمصطفى أن يجلس بجوارها. ثم تسهب:

- عندك مثلا من قيمة ١٠٠ سنة، يعني سنة كام يا درش.

- ممم، ١٨٨٢.

- برافو عليك... خناقة يا سيدي حصلت ورانا هنا في شارع السبع بنات، السيد العجان اسم الله على مقامك كده حمَّار....

مصطفى ضاحكًا:

- يعني إيه حمَّار؟

- يوووه يعني زي التاكسي كده بس مشغّل بدل العربية حمار كانوا بيسموه مكاري... بس شكلك نسيت العربي وهتتعبني.

يضحك ويربِّع ساقيه ويقترب بحماس:

- لا والله بس المصطلح جديد على ودني.

- اكتبه عندك بقى عشان متسألش تاني.

- حاضر.

- عمك سيد العجان ركب معاه زبون مالطي... عارف يعني إيه مالطي؟ ولو قولت كلمه عيب هسيبك وامشي.

مصطفى ضاحكًا:

- لا لا فاهم، يعني من أهل مالطا.

- برافو يا درش. أهو الراجل المالطي ده دوَّخ عمك سيد يمين وشمال من قهوه لقهوة، وساعة الحساب حمرق معاه ومرضاش يدفع الأُجرة. كلمة من هنا على كلمتين من هناك؛ قامت خناقة، وهوووب... مصريين بيضربوا في مالطيين وإنجليز بيعجنوا في النص، وخناقة راح فيها ناس كتير... تخلص الحكاية هنا؟ أبدًا، الإنجليز عينهم على مصر وبيدوروا على حِجة يدخلوا بيها، حكومات تتحرك وحركات شعبية وبرلمانات تدخل وهمه مفيش. وعنها يا مؤمن، شوية والمراكب كانت مرصوصة هنا وبتدغدغ في إسكندرية...

مصطفى المشدود للقصة:

- وبعدين؟

الفتاه: وبعدين إيه؟ الإنجليز دخلوا يا مصطفى، قوم إلحق اشترك في المقاومة.

يضحك كليهما ويكففها مصطفى؛ ثم يقول:

- بس متخافيش أنا مش جاي من إنجلترا، أنا جاي من فرنسا.

- يوووووه، أنيل، ده أخوك بونابرت كان هنا وبهدل الدنيا، وسأل عليك.

مصطفى ضاحكًا:

- قوليله بيقاوم الإنجليز وهيجيلك.

- والله يا ابني إسكندرية دي اتمرمطت، ويا حبيبتي موعودة بالقصيرين من أول الإسكندر لحد بونابرت. عارف لو جالها حد أطول شوية؛ كان ممكن قِبلته.

مصطفى مستمر في الضحك:

- يخرب عقلك، إنتي دارسة تاريخ مع مين؟

الفتاة بتهكم:

- كنت بآخد درس تاريخ مع إسماعيل يس... تاريخ مين يا أستاذ اللي آخد فيه دروس؟ أنا التاريخ يا أستاذ.

- لا في دي معاكي حق.

- دوشتك معلش.

- دوشتيني؟... لا بالعكس أنا مبسوط أوي بالكلام معاكي.

تنهض الفتاة لترتدي حذاءها وتنفض بعض الرمال من على فستانها من أثر الجلوس...

- أستأذن بقى يا أستاذ مصطفى وأسيبك تكمل ضحك لوحدك.

- إنتي هتمشي؟؟

- أُمال هكمل باقي عمري معاك؟... أكيد همشي.

- لا مقصدش، كان بس قصدي....

- طيب أستأذن بقى. الوكمان عايز حجارة ولازم أعدي أجيب واحدة وأنا مروحة.

ينهض خلفها قائلاً:

– طيب أنا ممكن آجي معاكي نجيب حجارة.

تندهش الفتاة، ليقاطع هو اندهاشها:

– لو مش هيضايقك.

– مممم و... ماله... تعالى.

مصطفى مبتسمًا:

– شكرًا.

رصيف الكورنيش يعرف عُشاقه، وكيوبيد يحلِّق بسهامه دومًا هناك يقرِّب القمر ويهدِّئ الموج في لحظات الهمس، ويحرك النسيم لتتطاير معه خصلات البنات وفساتينهن، يعرف دومًا متى تسقط القلوب في الحب فيلحقها بسهامه.

تقود الخطوات مصطفى والفتاة إلى محطة الرمل، رائحة الفشار تفوح لتملأ المكان بالمرح، وفي المنتصف شاشة بدائية تحتوي على معالم الإسكندرية وتحتها بضعة أزرار بمجرد أن تدعس على المكان تضيء بلون أحمر على الخريطة المرسومة على الشاشة وخطين من الترام الأصفر الذي يجوب ضواحي الإسكندرية القبلية والأزرق المرفه الذي ينطلق موازيًا للبحر ويسمح لك بنسمة عليلة ورؤية متقطعة للبحر.

السينمات تضيء لوحاتها الإعلانية، ما بين (حدوته مصرية) و(العار) و(غريب في بيتي)، وجوه الممثلين مرسومة وفقًا لمدرسة رسم خاصة بتلك الحقبة؛ تحمل أرواح الشخصيات

المجسدة أكثر منها وجوه الممثلين المعروفة.

يعبر مصطفى والفتاة تقاطع شارعي سعد وصفية زغلول حتى يصلا إلى محل خردوات صغير يقع إلى جانب سينما ستراند التي تحمل أفيش فيلم (غريب في بيتي)...

تقترب الفتاة من البائع:

- مساء الفل يا عم توفيق.

توفيق الخردواتي:

- مساء الفل يا ست البنات.

- لو سمحت عايزة...

- حجارة قلم وشوكلاتة روكيت.

تضحك الفتاة:

- خليهم؟ بقى معايا ضيوف.

- حجارتين؟

- هأكِّل الضيوف حجارة يا عم توفيق؟ بقولك معايا ضيوف.

يضحك توفيق ويضع أغراضها في حقيبة بلاستيكية. بينما يهم مصطفى لدفع الحساب. تضع الفتاة يدها على يده لتمنعه من أن يخرج النقود من جيبه...

- عيب يا خواجة إنت ضيفنا.

توفيق:

- خليها علينا إحنا خالص.

تُخرج النقود من حقيبتها وتحاسب توفيق، وتخرج هي ومصطفى من المحل.

مصطفى:

– بقى أنا خواجة أنا؟

– خلاص يا عم الحامي متزعلش، تعالى هاتلي فشار وعصير فراولة من الناحية التانية.

– ده استغلال ده عشان أنا جاي من برة ومعايا فرانكات.

– على فكرة الشوكولاتة أغلى من كيس الفشار.

يشتري مصطفى الفشار والعصير ويجلس مع الفتاة على ناصية تقاطع شارعي صفية وسعد زغلول.

– يا خبر أبيض، أنا بقالي سنين مكلتش كمية الفشار دي.

بينما يرفع زجاجة عصير الفراولة... لتقاطعه الفتاة:

– د أنت قولونك هيزمرلك طول الليل لو مش متعود ع الفشار.

يضحك أثناء الشرب لينسكب بعض العصير على قميصه الأبيض تاركًا بُقعة حمراء. فيرد ضاحكًا:

– أديني هطّلت على نفسي زي العيال الصغيرة.

– هطّلت؟ إنت منين يا أخ؟

– إسكندراني، بس أُمي من الصعيد. ثم إنتي يعني فوّتي الحمَّار ومسكالي في هطّلت؟

الفتاة تضع الفشار وتدّعي أنها تمسك قلمًا وورقة:

- استنى هكتبها أنا كمان: هطّلت يعني كبيت أو دلدقت.

انتهى كيس الفشار والعصير الذي تباطئ كليهما في انهائه، حتى قامت هي إلى صندوق قمامة معدني مثبّت على أحد أعمدة الإضاءة كما جرت العادة في ذلك الوقت...

تقف أمام مصطفى، وكيوبيد يُغمض إحدى عينيه ويشد قوسه إلى أخره، والنسيم يفي بوعده ويحرِّك خصلات الفتاة التي تقول:

- أنا لازم أمشي.

- مش هتكملي معايا بقية حياتك؟

ويبتسم، فتبتسم هي وتقول:

- عرفت بقى يا أستاذ إنك جاي تعاكس؟ قولي ليه؟

- ليه؟

- لأنك وقفت عملتلي بيتهوفن هناك، وبس عايز أعرف الوكمان ده منين؟ وأديك بقالك ساعه عمال تلوك وتاكل ففشار ومفكرتش مره تجيب سيرته؟

مصطفى يضع كفه على رأسه:

- أخ الوكمان صح... بس هتقوليلي لما أقابلك تاني. ولعلمك مش ماشي دلوقتي قبل ما اعرف اسمك.

- يا عالِم بقى هلحقك ولا هتروح فرنسا تاني؟

- لا أنا قاعد يا!!؟؟؟

تمد يديها:

- زينة... وصحابي أوي اللي بيعزموني على فشار بيقولولي يا زوزو.

مصطفى مُسلِّمًا:

- ماشي يا زوزو، هشوفك إمتى؟

- يا أخي بلاش طمع.

ثم تغلق عينيها بشده وتصنع دائرة صغيرة بسبابتها وإبهامها:

- إسكندرية اااااد كده، وأديك شايف أنا بخلص وباجي أسمع مزيكا وألّف اتفرج ع الفتارين... هتلاقيني متخافش.

تلوح له بيدها وتستدير...

يرد:

- أنا برده بكون هنا كتير، هستناكي.

دون أن تلتفت ترفع سماعاتها وتشير بالإيجاب بإبهامها، وتُكمل المسير وسط زخم المارة. تركب الترام الأصفر المتجه إلى الضواحي القبلية في عربة خُصصت للسيدات. يراقبها مصطفى وهي تجلس تضع رأسها على الزجاج.

يتهادى الترام ويلوح لها مصطفى حتى يغيب الترام عن ناظره، ليقطع سرحانه أحد الرجال يقف ومعه ميزان وهو يقرع بعملة معدنية على الزجاج المغطى لوجه الميزان قائلاً:

- اوزن نفسك يا أستاذ... اعرف وزنك يا روميو.

يضحك مصطفى ويسير في الطريق إلى البيت.

يضحك كلما تذكر ضحكاتها ونكاتها، يبتسم كلما تذكر ملامحها وخصلاتها.

يمر الطريق سريعًا من تحت قدمه، حتى يصل إلى شقته ليجد علية أخته تنتظره. تهرول إلى الباب تحتضن مصطفى حضنًا عميقًا...

- حمد الله على سلامتك يا قلب أختك.

مقبِّلاً رأسها:

- وحشتيني يا لولو.

تلاحظ علية اللون الأحمر على قميصه أثر، فتعلِّق:

- إيه ده يا حبيبي إنت تعبت تاني؟

- يوووه يا علية تعبت إيه. دا عصير فراولة.

- طيب يا حبيبي أحضّرلك العشا ونقعد نحكي وإحنا بنتعشى.

- لا عشا إيه؟ أنا على أخري، واكل فشار.

ثم يبتسم:

- وقولوني بيزمر.

- فشار؟! طيب.

تنظر بملاحظة النساء الناضجات إلى أخيها بُخبث، وتقول مبتسمة:

- اسمها إيه يا مصطفى؟

مصطفى بابتسامة:

– زوزو.

علية ضاحكة:

– سعاد حسني مرة واحدة!

– أيوااااا، هي سعاد حسني.

– ودي قابلتها إمتى ووو....

مصطفى يضع يده على فمها قائلاً:

– وحياة ولادك يا لولو بُكرة... نتكلم بكرة. عايز أنااااام.

يتركها، بينما هي تغني له، وهو يقرع بأصابعه متمايلاً في طريقه إلى الغرفة....

علية تغنِّي:

– خلي بالك من زوزو

– زوزو

– زوزو النوزو كونوزو.

(٩)

مارتيوبوليس

على بُعد قرابة الـ٥٠ كيلو من الإسكندرية

عام ٤٧٧ بعد الميلاد

الإسكندرية كعادتها شاهد على عصر آخر، فذاك الجزء من مصر التابع للدولة البيزنطية تحت حكم الإمبراطور (زينون) ومصر تحديدًا تحت ولاية (انثيميوس)...

قبلها بأكثر من ٤٠٠ عام اُستشهد (ماري مرقس) ودُفِن جسده في عام ٣١١ في الكنيسة التي أنشأت هناك لتشهد ميلاد المسيحية في مصر بما قدَّمته من شهداء اُستضعِفوا واُضطهِدوا لحقبة زمنية، مما أنشأ مفهومًا جديدًا للمقاومة الناعمة (الرهبنة)، وبدأ معها ظهور الرُّهبان الذين اختاروا العُزلة إلى أقاصي الإسكندرية التي أصبحت فيما بعد أديرتهم التي اختاروا أن يعيشوا فيها بعيدًا عن فِتن الدنيا وملذاتها وعذابات الاضطهاد وآلامه.

وهناك في (مارتيوبوليس) كان الرمل المُقدَّس ذو المعجزات الذي حلَّتْ بركته وشُفيت به ابنة الإمبراطور؛ هناك حيث دُفن

القديس مينا. فأُنشِات كنيسة يحج إليها الناس ملتمسين البركة والاستشفاء. وحولها ظهرت حياة جديدة مدينة تحمل اسم مارتيوبوليس وهي كلمة يونانية ذات شقين مارتيو وتعني الشهيد وبوليس والتي تعني الدولة المدنية أو المدينة، فكانت تعني (مدينة الشهيد).. وكعادة المدن في تلك الحقبة كانت دومًا مطمعًا لغارات من جيوش بربرية؛ أي غير نظامية ولا تنتمي لإحدى الإمبراطوريات السائدة ذات الهيمنة فسُميت بالبربرية. وكانت تلك الحملات تعكِّر صفو الحجيج وتزعزع أمنهم.

ونظرًا لما كان للإسكندرية من أهمية كمخازن للغلال للدولة البيزنطية وشريان هام يصل بين الشرق والغرب وتطل بطبيعة الحال على البحر المتوسط. فكانت مخاوف الإمبراطور على المنفذ الساحلي المهم تدفعه للتفكير في حمايته من هجمات البربر، فأوكل إلى والي مصر (انثيميوس) أن يكوِّن حامية قوامها ١٢٠٠ جندي يكونوا جبهة دفاعية للمدينة لصد تلك الهجمات وحماية مارتيوبوليس.

وفي ثكنات تلك الحامية كان الحدث...

الغبار يعلو فوق الأرض ببضعة أمتار، فالهواء دومًا قادر على حمل التراب بعيدًا عن الأرض، أو قد يكون التراب هو القادر على امتطاء الهواء ليوحي أن هناك حراكًا عنيفًا يجري فوق الأرض مُعلنًا وجود فرسان يمتطون خيولهم وجنود شِداد يصولون.

فدائمًا معاهدات التراب والهواء اللذين يتصافحان فوق الأرض تحجب العين من أن ترى السماء بوضوح، وتمنع الصدور أن تمتلئ بالهواء لتعيش في سلام.

وعلى الأرض جنود في زي القتال تحت شمس شتوية تتوارى أحيانًا خلف السحب وكثيرًا خلف الغبار؛ يقفون بحماس في تدريباتهم، والجميع متأهب ويقظ، فالسيف الخشبي الذي يحمله صديقك في التدريب إذا وصل إلى صدرك ليعلن إصابتك قد يُلحق بك العار، بينما السيف المعدني الذي قد يغرسه عدوك في قلبك قد يمنحك شرف الشهادة ولقب الشهيد. فحريٌّ بك كعسكري أن تحرص على سمعتك وسط الرفاق ليكون الموت شرفًا في ساحات القتال وليس ضعفًا في ثكنات التدريب.

في تدريبك العسكري إنسَ الألم؛ بل استمتع به وهو يسري في عضلاتك ومفاصلك المُجهدة. لا تسمح لقدمك أن تخذلك بالتقهقر إلا مراوغةً، فتلك الخطوة للخلف في التدريب قد تعني انسحابًا في ساحة الحرب، وما أدراك ما طعم الانسحاب. اصرخ في تدريبك قدر المستطاع فلن تزيد صديقك إلا حماسًا ولن تلحق بعدوك إلا الخوف.

اضرب بقدمك... اجعل الغبار يعلو فوق الرؤوس.

لا تترك سيفك إلا مزروعًا في قلب من اعتدى عليك

وفي وسط التدريب تجد (نوب) شاب ذو جسد لا ينم أبدًا عن مُحارب، أيدٍ ناعمة ولكنها واثقة، تلعب بالسيف الخشبي بنعومة فيطير ليطعن هذا في جانبه ويتدحرج ليغرس ذاك في ظهره. بهلوان يمسك سيفًا يطوف به بين أصدقاء الجندية وخصوم التدريب.

وفي شرفة عالية يقف (ليو) قائد الحرس الذي سُمِّي تيمنًا باسم الإمبراطور ليو. رجل فارع الطول، عيناه ثاقبتان تريان هندام أخر جندي في ساحة التدريب. ذو صدر عريض وساعدين قويين وقدمين راسختين في الأرض كعمدان معبد فرعوني صامدين أمام الزمن. ينام في غمده سيف عظيم. يوحي لك أنه بيُمناه فقط قادر على مبارزة نصف جنوده وهزيمهم. ذو بشرة سمراء جاء من بلاد الجنوب وأصبح قائدًا للحامية ومنوطًا بتدريب الجنود. الحسم في نظراته قد تُخبرك عن تلك الجثث والأشلاء التي قابلها، وذاك الجرح الغائر في جبينه مرورًا بخده الأيسر ينسج أسطورته في القتال.

عيناه الحادتان تلاحظان (نوب) فيأخذ خطوتين إلى سور الشرفة، يفك يديه المنعقدتين خلف ظهره ويبدأ في التصفيق ٣ مرات كإشارة منه على الثبات؛ ليثبت كل من في ساحة التدريب. يشير بيده إلى وسط الساحة في اتجاه (نوب):

- أنت... تعال إليَّ.

ثم يشير للباقين في الاستمرار.

يرتبك نوب بعض الشيء وهو يهرول في طريقه إلى القائد العام حتى يمثل بين يديه. يقف وهو يلهث من أثر التدريب والعَدْو، والعرق يغطي جبينه.

يجلس ليو وهو ينظر إلى نوب قائلاً:

- من أنت؟

- اسمي نوب يا سيدي، متطوع لخدمة حامية الكنيسة.

- غريب. تبدو لي مصري الملامح... وجسدك لا ينم عن أنك مقاتل.

- عفوًا يا سيدي، هل كان في تدريبي ما هو مخيب للآمال؟

- ما هي وظيفتك؟

- جندي في الحامية يا سيدي.

- أقصد قبل طلب انضمامك إلينا.

- كنت أصنع الفخار يا سيدي... ولكنني رسام أنقش الفخار وأبيعه لعلية القوم.

ليو ضاحكًا:

- هذا منطقي بالنسبة لي، فهذه ليست بنية لعسكري.

- ولكنني قادر على القتال.

- أنا من يحدِّد من هو قادر على القتال. ولكي تكون مؤهلاً يجب أن تكون مؤتمنًا في نواياك وانتمائك.

ثم يسهب:

– أنا أعرف أغلب جنودي ممن معك في ساحة التدريب، أما أنت فلا أعرفك، وملامحك قد تثير الشكوك.

– هل اُستدعيتَ من قِبل قائدك من قَبل يا سيدي ليسألك عن انتمائك لدولتك برغم لون بشرتك المغاير عن باقي الجنود؟

ليو بعصبية:

– أنا هنا من يسأل أيها الجندي.

– وأنا سؤالي ضمني أعني به الاجابة يا سيدي.

– ما الذي دفعك أن تترك الإسكندرية وتأتي منضمًا إلى صفوف الجنود؟

– لأنني رافض لمبدأ الخضوع والاستسلام.

– ومن أخضعك يومًا ولمن استسلمت؟

– أنت تعلم يا سيدي أننا في الإسكندرية نعيش في كنف الكنيسة، تلك الكنيسة المفرطة في التسامح، والتي تقدم شهداءها كندورٍ للمعتدين. وحتى حينما ابتعد الرهبان وتركوا الكنيسة بما لها من سُلطة؛ لم يسلموا من أذى البرابرة وهجماتهم. أو ليس هذا كافٍ ليثير بعض الدماء في عروقي؟

ليو تبدو على وجهه ملامح الاقتناع... ينادي بصوتٍ عالٍ:

– زينا،،، زينا.

تدخل (زينا)، فتاه بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ممشوقة

القوام في زيّ عسكري تطغى فيه الأنوثة القوية، أنفها الدقيق الشامخ وعيناها المتسعتان الطموحتان وشفتاها الصغيرتان المستديرتان المبتسمتان كفارس نال من كل أعدائه يمرُّ من قوس النصر على بوابات وطنه...

إنها هي... هي...

تقترب زينا من ليو قائلةً:

- الأمر لسيدي القائد.

- لكِ هذا الفتى، سكندري مراوغ... أريد منكِ أن تجعلي منه مقاتلاً؛ إن كان يصلح لهذا. وعلميه كيف يتلقى التعليمات من قادته، نحن لسنا في مدرسة للرسم أو حانة على الشاطئ.

تُومئ برأسها وتنصرف. ويشير إلى نوب كي يتبعها.

تسير زينا ومن خلفها نوب لتبدأ في الحديث وهما متوجهان إلى ساحة التدريب...

- من أنت؟

نوب باقتضاب:

- نوب.

زينا بحسم:

- أعطني تفاصيل أكثر أيها الجندي.

- نوب، مقاتل منضم حديثًا إلى الحامية وأعمل كرسام على الفخار فيما مضى.

زينا تلقي بسيفها إلى نوب، وتقول:

– ولماذا تركت الإسكندرية؟

يلتقط السيف قائلاً:

– أبحث عن العدل الذي لن يتحقق إلا بالقوة، والحرية التي لن ينالها الضعفاء.

تبدأ زينا في القتال، ويجاريها نوب ببراعة وهما مسهبان في الحديث...

– إنها حرب، قد لا تعود منها بلا روح وجسد لتنعم بها بحرية أو عدالة.

– على الأقل أبغى عدالة السماء وقتها.

– أنت تؤمن بالله يسوع؟

– الإيمان مجرد شك لا يرتقي إلى المعرفة ولا يدنو إلى الظن.

يستغل ثغرة في أداء زينا ليلمس صدرها ويُسقط قطعة صغيرة من سترتها العسكرية المصنوعة من الجلد السميك. تنظر إليه باندهاش وتمسك القطعة المقطوعة في يسارها، ثم تسهب:

– لقد أثرتَ غضب القائد، وللتو أثرتَ غضبي.

– هل أغضبه أنني أحاول جاهدًا؟ أم أنني سكندري؟ أم أنني رسام أجيد القتال أكثر من جنوده المرتزقة؟

تسيطر عليه بحركة سريعة وتضع السيف فوق عنقه، قائلة:

- هو معجب بك كجندي أيها الاحمق، ويريد أن يمحص في نواياك وليس قدراتك.

يرفع السيف من على عنقه بهدوء، ويقول:

- هل هناك من هو أحق مني كسكندري أنتمي إلى الكنيسة؛ أن اصطف كواحد من جنودها؟

تغمد زينا السيف في غمده، وتقول:

- نحن في عصر الإمبراطوريات؛ تضيع هوياتنا ونقاتل تحت رايات قد لا تُعبِّر عنا فقط لنضمن لأنفسنا مكانًا.

- هل أنا أهلٌ لها؟

زينا تبدأ في الانصراف:

- أنت من أهلها... فقطعًا أنت أهلٌ لها. ولكن تذكَّر: نحن في مارتيوبوليس ولسنا في الإسكندرية، لذا فأنت ضيفي اليوم يا نوب.

ثم تضع في يديه القطعة من سترتها العسكرية:

- هذه هدية أيها الضيف. أنت تستحقها.

يضحك وهو يأخذ القطعة في يديه:

- إذًا وجب عليَّ أن أضع عُنقي التي أفلتها للتو بين يديكِ أيتها المُحاربة.

- زينا، اسمي زينا... وعنقك بين يدي على كل حال أيها الرسام المحارب.

تبتعد، ليلحقها بالنداء:

- نوب... اسمي نوب.

تبتسم دون أن يري نوب هذا، ويبتسم هو الآخر وهو ينظر إلى القطعة في يده.

(١٠)

ايـنـادورو

الإسكندرية - في منزل مصطفى

الساعة السابعة صباحًا، بعد العودة بيوم

يستيقظ مصطفى على صوت أخته تتحدث إلى زوجها (رجب) بصوتٍ عالٍ كما تعودا.

رجب رجل ثلاثيني متدين ذو لحية كثة، يرتدي جلبابًا قصيرًا، صوته عالٍ دائمًا، شريك في بعض تجارات استهلاكية، ينتمي إلى تيار ديني متزمت.

- بصل يا حاجة علية معاكي، بالله عليكي.

يخرج مصطفى من الغرفة ينظر لرجب بلوم على صوته العال، فينهض من على طاولة السفرة...

- أبو نسب صهري العزيز. ليك واحشه يا أبو عثمان. أمال مجبتش العيال معاك ليه من فرنسا؟ ااااه أكيد المدارس والحاجات دي... تعالى افطر معانا، جايب فول وشوية فلافل عجمية. جايبهم.....

يقاطعه مصطفى:

- يا شيخ رجب، يا شيخ رجب لو سمحت الصوت أنا لسه صاحي... وبصل إيه الساعة نيلة سبعه الصبح، إنت هتطبخ؟... قهوة يا علية لو سمحتي.

يشعل مصطفى سيجارته.

رجب:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ليه كده يا درش ع الصبح؟ ربنا يعافيك يا أخي.

- يا أخي الصوت أبوس إيدك صاحي مصدع.

- ما هو لو مش عشان صحتك عشان فلوسك وعشان السجاير حرام.

- بص يا بولي... مش كان اسمك بولي قبل الدقن برده... ملكش دعوة بيا ولا بصحتي ولا فلوسي ولا بمِلتي، عشان أنت ربنا خلقك لحياتك أنت، فوحياة دقنك يا شيخ ركِّز في حياتك وفي الفول والبصل والعجمية اللي إنت جايبها.

تدخل عليّة بالقهوة وأطباق الإفطار. يهم رجب بسحب رغيفين يفركهما على الطاولة ويقطع منهما، ويبدأ في الأكل بنهم.

علية:

- أصل الشيخ رجب بيحبك وبيخاف عليك، ده حتى هو وعلاء مدورين فلوس بابا بالمليم وبيتابعوا مع المشترين، إنت عارف

إن الحاج نصر بتاع الموبيلا اللي واخد الروف عايز يشتري العمارة وعارض سعر كويس، وكنا مستنينك تيجي تخلّص.

ينظر مصطفى شذرًا لهما:

– عمارة إيه اللي تتباع؟ ولمين؟ لنصر؟ دي متحف، ولو خدها هيهدها ويبني مكانها خابور إسمنت يقعد عليه إن شاء الله.

رجب:

– وماله نصر؟ راجل دوغري وقرشه حاضر، يعملها عمارة يعملها جراج هو حر يا درش.

مصطفى:

– بولي... خليك في حالك.

– ما هو ده حالي يا نسيبي، فلوس مراتي وحقها.

– العمارة دي مش هتتباع، ولو إنت ناسي شرع ربنا أنا ليا فيها التلتين.

– هبيع تلتها. ولا هو مش من حقها؟

يسحب مصطفى سترته ويهم بالخروج.

علية:

– استنى بس يا مصطفى، إنت رايح فين؟ رجب عايز الصالح اسمعه للأخر.

يخرج مصطفى من الشقة... وأثناء نزوله على السلم تداهمه نوبة جديدة، نفس الألم، دوار شديد، صور متفرقة تمر أمام عينيه، وجوه وملامح يعرفها، بشر بأزياء غريبة في عصور غريبة عنه... يتمسك بسور السلم محاولاً المقاومة.

– لا مش وقته خالص.

يشعر بثقل في لسانه وذراعيه يسري إلى ساقيه، يقاوم ولكن دون جدوى. يهوى على ركبتيه ويسقط بدنه على السلم مرتطمًا بالأرض، ويرى نفسه في غيبوبته أنه هو (نوب) الرسام المحارب ومعه (زينا) يسيران في أحياء الإسكندرية القديمة، يمران بجانب الكاتدرائية القديمة في مبناها الصغير قديمًا. تقول زينا:

– ليس بوسعك مقاومة الإعياء، وأظن أن حالتك لا تحتاج إلى الطب المتعارف عليه... كاد قلبي يقف خوفًا عليك أيها الرسام.

تقف وتضع إصبعها في منتصف صدر مصطفى، وتسهب:

– هناك شيء ما في روحك. هذا ما يجب عليك أن تبحث فيه: روحك أيها الرسام.

يسير مصطفى صامتًا كمن يسيرون في أحلامهم وهم واعون، مدهوشًا في شوارع الإسكندرية القديمة التي تبدو مألوفة بتلك الحال بشكل لا تُخطئه عيناه، هو يعلم عن ظهر قلب

هذه المشاهد، ويعلم أيضًا بصدق كيف سيؤول الحال في المستقبل...

يسيران حتى يقفا أمام منزل صغير؛ أو بالأحرى عِشة منصوبة على شاطئ البحر في منطقة في الأغلب هي محطة الرمل حاليًا... ترفع زينا ستائره العشة لتشيرله أن ينتظرها خارجها. ثم تخرج بعد دقيقتين لتقول:

- هيا تقدَّم.

يدخل مصطفى للعشة ليجد سيدة عجوز ذات بشرة سوداء تُشعل أمامها بخورًا، وبحوزتها بضع صدفات من البحر، وعلى صدرها كردان من ذهب فرعوني النمط. تشيرله بالجلوس...

- مرحبا يا ولدي نوب.

- هذا ليس اسمي يا خالة.

- هذا اسمك الآن أيها الرَّحالة.

- هل أنا احلم؟

- ومن منا يمكنه الفصل بين الحلم والواقع؟ فالعقل غبي يا ولدي لا يمكنه أن يفرِّق بينهما.

- لا لا أنا أحلم، أنا اسمي مصطفى.

- وقد تكون مصطفى في أحلامك، بينما أنت نوب ها هنا في الواقع. هات كفك يا ولدي.

يمد مصطفى كفه لتمسحه السيدة بمنديل أزرق... ترسم خطوطًا فوق كفه المبسوط. تتغير ملامحها، تنزعج وترمي بعض الصدفات أمامها على الرمال، ترسم خطوطًا وتتمتم بترانيم غير مفهومة له.

تنظر في الأرض صامتةً لفترة... يقطع صمتها مصطفى قائلاً:

- يا سيدتي.

- ايـنادورو، اسمي ايـنادورو.

لا يفهم أن الاسم يعني الهبة أو الهدية باليونانية... يسهب:

- يا سيدة ايـنادورو: هل رأيتِ ما يسوءك؟

- ليس هناك ما يسوءني في كفك، ولكن ما قد يؤرقك أنت أيها الحي.

- الحي؟؟؟... ما الذي قد يكون مؤرقًا؟

- روحك... معلقة كمشكاة بين العوالم يا ولدي. روحك تفني أبـدانَ وتعود من جديد تبحث لها عن هوية... أنت تسعى للموت ولا تجده.

- ولكنني لا أسعى إلى الموت يا خالة.

- حدثتني صديقتك المحاربة أنك سعيت لتصبح راهبًا كي تموت عن الدنيا ويُصلَّى عليك صلاة الجنازة ككل الرهبان، ولكن الدير لم يفتح لك بابه. وأنك الآن محارب صلد إلى حد التهور أحيانًا في المعارك؛ كمن يحاول أن يقتل نفسه ولكن

دون جدوى... وقفتَ على أعتاب الدير شهورًا ولم يسمحوا لك بالدخول، وحاربتَ كالمجانين دون حذر أو درع لتموت، وفشلت... كُتِب عليك أن تبقى معلقًا حتى يأتي من هو من صُلبك ونسلك لينهي مأساة وجودك ويقتلك.

مصطفى مدهوشًا:

- وهل الحياة مأساة؟

- الخلود نقمة... والأرواح تُنهك وتتعب من طول السفر يا ولدي، وترجو المستراح في دارٍ تليق بها، فالأبدان ليست إلا معابر لخلود حقيقي.

مصطفى رافضًا يقوم غاضبًا:

- لا لا أنتِ تهزين، هذا دجل وخرافات.

يلطم وجهه بقوة:

- أريد أن أستيقظ. أنا أكره تلك النوبات.

- هوِّن عليك أيها الحي، هوِّن عليك يا ولدي، ستموت يومًا في زمن معلوم ومكان معلوم، فالمدن تختار موتاها بعناية، المُدن تختار موتاها أكثر مما تختار أحياءها.

يتوه وجه اينـادورو من جديد بين وجوه كثيرة يعرفها مصطفى عن ظهر قلب: (قهوات) والرجل الذي سقاه السّم و(دينوقارطيس)، وجوه كثيرة وأصوات متداخلة...

لطمات على خد مصطفى من علية...

– مصطفى، قوم يا حبيبي، فوق.

مصطفى في غرفته. يقف أمام سريره رجب وعلية ونصر واستيلا، وهو منهك لا يقدر على الكلام، وبالكاد يقول:

– أنا كويس يا علية، اخرجوا واقفلوا الباب لو سمحتي.

نصر:

– ألف سلامة يا باشمهندس، هي العمارة وشها شوم عليك يا ولدي.

رجب:

– اقرأ سورة الكرسي والمعوذتين يا درش، وأنا ع الباب لو احتجت حاجة.

يتجاهل مصطفى حديثهم ويعود في نوم كمحارب مثقل عاد وحيدًا من أرض المعركة مهزومًا فاقدًا كل الرفاق.

(١١)
إيليت

الإسكندرية

ليلة شتوية باردة عام ١٩٧٨

يجلس مصطفى مع علاء في بار إيليت بمنطقة العطارين، المطر يهطل بالخارج فيغطي الزجاج، المكان يبدو هادئًا إلى حدٍ كبير كعادته في ليلة ثلاثاء من التي تنتصف في الأسبوع غير قابلة لاحتمالات ومفاجآت كالتي قد تسر الخاطر في آخرها.

نوشا النادلة تضع المشروب على طاولة علاء ومصطفى اللذين يواصلان شرب كأسهما الرابع.

علاء:

– يا أخي لا إنت أول ولا أخر واحد يطلّق. والعيال هجيبهملك بالقانون؛ المصري بقى الفرنساوي هجيبهم، وكل بلد وقانون وله سكة.

– مش عايز أجبر ولادي على حاجة يا علاء، ولا عايز آخدهم من حضن أمهم عافية. ووحياة خالتك شُغل المحامين ده مش معايا، إنت مش ناقص زباين.

- أحا، أُمال نسيب لها العيال وفيهم بنت؟ دي فرنسا يا صاحبي، وإنت فاهم.

- يا اخي يلعن أبو دماغك إنت كمان... غيَّر الموضوع وحياة أبوك.

علاء مشيرًا برأسه إلى نوشا:

- واخد بالك من الفرس اللي هناك ده، صدرها طالع من القميص وهي بتوطي والجيبة يخرب بيت كده أوووف... بص بص يا ابن الكئيبة.

مصطفى يستدير ليرى نوشا التي بدأت في تنظيف الطاولات من حولهم، والزر الأخير من قميصها مفتوح يكشف عن نهدين يتحركان... تنظر نوشا إلى عين مصطفى وتبادله ابتسامة.

مصطفى:

- آه، بشوفها ساعات.

تقترب منهما ومعها فاتورة:

- معلش يا بهوات مضطرة أحاسبكم، شيفتي خلص.

يسحب علاء الفاتورة ويدفع ثمنها مضيفا خمس جنيهات إكرامية.

تتجاهله وتوجه كلامها لمصطفى:

- يدوم العز يا مصطفى بيه.

علاء:

- الله يعني أنا اللي دافع التبس، ويدوم يا مصطفى بيه؟

- لا مؤاخذة يا باشا، أصل مصطفى بيه صاحب مكان وخيره ع الكل. وكل فين وفين لما بنشوفه.

تأخذ الحساب وتنصرف.

علاء:

- أقوم أمشي أنا بقى؟

نوشا:

- لا يا علاء باشا إنت منورنا، إنت صاحب مكان.

ينهض من كرسيه:

- طيب يا درش أنا يدوب كده عشان عندي محكمه الصُبح.

يضحك مصطفى:

- يا أخي يغور العدل من سِحنتك.

- بكرة تجيلي متكلبش ولا ملفوف في ملاية وتقول إلحقني يا لول، وهسيبك تتربى في الحبس.

يضحك كلاهما. ويرد مصطفى:

- يالا غور في داهية إنت كمان، مش هلاقي غيرك إنت يا أفَّاق.

يسحب علاء مفاتيحه ويخرج من البار.

يراقب مصطفى المطر من خلف الزجاج، متابعًا علاء الذي يقود سيارته وهو يصفِّف شاربه بمشطه كالمعتاد.

المطر في الإسكندرية ذو طابع خاص، يغسل الشوارع حتى ترى انعكاس وجهك فيها. السكندريون يحبون المطر وكأنهم

من طينة بها نسبة المياه أعلى من التراب، هم ينتمون إلى الماء كالسمك، يقفزون من فوق البِرك المائية من أثر الشتاء كراقصي الباليه المحترفين، ولا يكترثون كثيرًا إذا ما قرَّر المطر المفاجئ أن يباغت أجسادهم وأرواحهم ولا يستترون في العادة من المطر.

خلف الزجاج تقف نوشا وقد ابتلَّ قميصها وكشف عن حمالة صدرها بعدما خلعت معطفها المتواضع تضعه فوق رأسها وشعرها المفرود بعناية خشية أن يبتل ويعيده إلى طبيعته الحلزونية، تبحث عن وسيلة مواصلات بلا جدوى. يلحق بها مصطفى الذي تحركت غرائزه ليقفز في سيارته ويقترب منها قائلاً:

- تعالي هوصلك.

تنحني إلى زجاج السيارة وهي تضع سترتها فوق رأسها وقد كشف الزر المفتوح عن صدرها أكثر والماء بلل القميص ليظهر من تحته حمالة صدرها الوردية...

- لا يا باشا، روح إنت، أنا هتصرف.

- يا بنتي اركبي، ولا عاجبك وقفتك كده؟

تفتح نوشا باب السيارة:

- أركب وماله.

مصطفى بدأت الاثارة تبدو عليه فيزيائيًا، وتأثير الكحول جعل

الرغبة تغلب على ميزان عقله. يبدأ في الحديث:

– معلش أنا آسف، بس أنا معرفش اسمك.

– أنا نوشا... هو المفروض بنحط اسمنا على القميص ناحية الصدر كده، بس لقيت الزباين بتتلكك وطول النهار قال بتستهجى في اسمي.

– تخيلي بقى لو زبون أعمى وبيقرأ باللمس.

نوشا بضحكة رقيعة:

– أهو دا اللي ناقص.

– وتحبي أوصلك فين يا نوشا؟

– إنت طريقك فين؟

– أنا ساكن في المنشية، أول العطارين، شارع سيزوستوريس.

– لا كده مش طريقي أنا طالعة كوم الدكة.

– شالله يا سيد يا درويش.

نوشا تضحك ضحكة عالية رقيعة.

مصطفى:

– لا إنتي تنشفي الأول من المية دي وبعدين نروّحك، ميصحش تروّحي مبلولة كده.

تضع العلكة في فمها، وتقول:

– خايفة تفهمني غلط، بس العيال في الحته هيقعدوا ياكلوني

بعنيهم، وأنا الجاكت مش هشيله من على دماغي، أنا مش هعمل شعري كل يوم.

- إنتي كده زي القمر وشعرك يجنن.

تضحك نوشا:

- ربنا يجبر بخاطرك يا مصطفى بيه.

- تحبي ناخد حاجة سخنة ونقعد نحكي شوية؟

- وسيجارة، أحسن دماغي هتطق من لَكْ الزباين.

مصطفى ضاحكًا:

- واضح إننا صدعناكي.

- يوووه يقطعني، والنبي منقصد. ثم هو إنت زي أي حد؟ دا أنا بتمنى القعدة دي من يوم ما رجلي دبت في المحل.

يقود سيارته وهو يختلس النظر إلى صدرها الذي تعمدت أن تتركه متصدرًا للمشهد، وهي تقول:

- أصل أنا عمري ماخرجت مع حد. كنت متجوزة راجل نطع كده وراح لحاله. عايشة مع أمي. ومخبيش عليك ماسكة قرش خايفة أروح أتنيل أحب يطلع واطي زي اللي قبله ويلهف القرشين وياخد مزاجه ويطير.

يصلان إلى باب عمارتة مصطفى، الذي يصف سيارته، بينما نوشا لم تكف عن الحديث، فيقاطعها:

- طيب ممكن نكمل كلامنا فوق؟

تنظر حولها بتردد... فيقول لها:

- لو هيضايقك بلاش... ومن الآخر كده أنا معجب وعايز أعبَّر عن إعجابي.

- يالهوي يا باشا، أنا بصراحة كده معجبة أكتر، بس معجبة من غير طموح، يعني ولا تهيني وتقولي حسابك كام زي اللي جايبها من الشارع، ولا أصدَّعك وأقولك وعدت وخلفت. صحوبية كده من اللي عمرها قصير.

- يا سلااااام، ده إيه العرض المُغري ده؟ تعالي بس نكمل كلام فوق.

يدخلان الشقة وهي مرتبكة. يحاول أن يلمس جسدها، فتتقهقر إلى الخلف. يقول لها:

- على فكرة، لو ملكيش غرض أنزل أروّحك حالاً.

- وحياتك إنت أنا قايدة نار أكتر منك. بس أصل أنا أول مرة آجي مع حد غريب... أنا عارفة إنك مش مصدقني، بس وحياة النبي أنا ماحد لمسني غير جوزي.

- قصدك طليقك.

- أيوه هو هباب البرك.

- إنتي مش متجوزة أكيد؟

- وحياة النبي مطلقة من سنة واكتر.

يقترب منها، يقبِّل شفتيها، فتتوه للحظة وكأن الطير على

رأسها. تضع يديها على شفتيها:

– يا لهوي.

مصطفى ضاحكًا:

– يالهوك!... هو ماكانش بيبوس؟

– كان بيقط، لكن ده بوس، أول مرة حد يحضن شفايفي.

يكرِّر القبلة بإتقان أكبر ولمدة أطول.

– يخرب عقلك يا باشا، إزاي كده؟

– إزاي إيه؟

– بتبوس حلو كده إزاي؟

يمسك بيدها:

– تعالي أما أعلمك إزاي.

تفلت يديها من يديه:

– طيب إديني دقيقة أدخل الحمام... الحمام منين يا مصطفى بيه؟

يشير لها، وهو يقول:

– بلاش بيه وباشا وجو الطرابيش ده، على الأقل هنا. قوليلي يا مصطفى بس.

نوشا من الحمَّام:

– وده يصح؟

- يا ستي يصح، هو أنا الخديوي؟

تضحك ضحكة رقيعة وتخرج من الحمام وقد خلعت ملابسها، ليخطو مصطفى إليها بهدوء، يقبِّل جسدها وهو يثير غرائزها، بينما هي تستجيب وتتبعه إلى غرفة النوم، ليصب فيها غضب طلاقه وكبت وحدته التي طالت، وتسكب هي من فيض مشاعر حب يائس من طرف واحد وجسد امرأة اعتادت أن يكون لها شريكًا يومًا ما كمن قُطعت عنهن معونات الحب الجسدي لسنوات.

الجسد يترجم المشاعر بأشكال مختلفة، والجنس متنفس الفقر ورفاهية الترف وفرج الكبت ولغة مشتركة للحب والألم والملل... رياضة الفقراء ولهو الأغنياء وخمر الغارقين مدمني اللذات... والأجساد دومًا ما تصغي إلى الغرائز وإن أرهقتْ الأرواح معها في سعيها المحموم للذة.

في صبيحة اليوم الثاني آثار معركة الجسد أنهكت خشب السرير، والثوب المبعثر من ليلة الأمس مازال في موضعه شاهدًا على حب وكبت نفَّس عنهما الجسد في علاقة حميمية... وهناك على السرير المنهك تستلقي نوشا عارية وقد وضعت وسادة على رأسها كعادتها في النوم. مصطفى الذي لم يغلبه النوم؛ قضى ليلته في رسم لوحة لجسد نوشا العاري إلا من رأسها التي قد وارتها بالوسادة ليلة الأمس.

تستيقظ نوشا، تفتح عينيها لتجد مصطفى جالسًا منهمكًا في لوحته...

– يا لهوي، الصبح!!... دي أُمي هتفشخني.

مصطفى ضاحكًا:

– مش هتلاقي حاجة تتفشخ أكتر من اللي اتفشخ.

– إنت بتتريق؟ دي زمانها ماشية بمنادي.

تلملم أغراضها مهرولة.

– يا بنتي استني كُلي لقمة وبعدها انزلي.

تهدأ نوشا للحظة:

– إنت صح، أنا أقولها: أنا جيت إمبارح وإنتي نايمة وصحيت بدري نزلت.

تقترب منه، تقبِّله.

– كنتي هايلة إمبارح على فكرة.

– يا لهوي، أمال أنا أقول إيه؟ دا أنا غرَّقت الدنيا.

تسحب ملاءة السرير وهي تقول:

– هغسل دول بسرعة وأحضَّرلك فطار قبل ما أمشي.

– لا، حد هيجي ينضف. عايز قهوة بس من فضلك؛ لو مش هضايقك.

– يا خرابي، تضايقني؟ دا أنا هعملك كوباية قهوة عمرك ما...

تقع عيناها على لوحة جسدها العاري...

- يخرب عقلك، إنت رسمتني؟

مصطفى بقلق:

- إنتي زعلتي؟

نوشا مبتسمه بلهفة طفل:

- إنت رسمتني أنا؟... دي جميلة أوي.

مصطفى مبتسمًا:

- كويس إنها عجبتك.

نوشا تحاول لمس اللوحة.

- حاسبي لسه طرية.

تقترب بصدرها من وجهه، وتقول بدلال:

- هي إيه اللي طرية؟

يقبِّلها وهو يمسك صدرها، وقد بدت مظاهر الاستثارة تظهر على جسده...

- اعملي القهوة وتعالى.

نوشا من المطبخ:

- وإنت رسام ولا مهندس؟

- تصدقي إنتي أول حد يسألني السؤال الصعب ده، بس والله ما أنا عارف يا نوشا. الاثنين يمكن؟ ولعلمك بحب النحت،

وبطل الجمهورية في الشيش.

– الـ إيه؟

– الشيش يا نوشا، عارفة نادي السلاح اللي ع الترام؟

– ااااه، الناس اللي بتلبس لبس المنحل ويضربوا بعض بسيف شبه إريل العربية؟

مصطفى ضاحكًا:

– أيواااه، هو ده.

– ودي مش خطر يا مصطفى بيه؟

– يوووه لبسيني طربوش تاني... بيه إيه؟ ما أنا قاعد قدامك عريان أهه.

نوشا تضحك:

– طيب مش خطر دي يااا مصطفى؟

– لا، ما إحنا بنبقى لابسين لبس المنحل بقى.

– إلا قولي... هو مين الشنب الأصفر اللي على طبق بودنج فانيليا ده إلى بتجيبه معاك؟ مش شبهك ولا دمك خالص.

مصطفى ضاحكًا:

– يخرب عقلك، قصدك علاء؟... دا محامي أبوه وأبويا كانوا أصحاب؛ الحاوي المحامي.

– آااه، الحاوي بتاع القضايا الشمال.

– أيوه هو ده.

– من غير زعل يعني؟

– من غير زعل.

– راجل كلح وشبه بتوع حملة فريزر.

مصطفى ضاحكًا:

– أيوه أيوه. هو أصلاً مش من إسكندرية.

تدخل بالقهوة، لياخذها ويرتشف منها.

نوشا:

– وقال يقولوا الإسكندرانيه كالحين! ييجوا يشوفوا الكلاحة.

مصطفى مُعجبًا بالقهوة:

– يا بنت اللذينة. عملتيها إزاي دي؟

تتحرك بدلال تجاه مصطفى وتجلس على الأرض بجواره:

– ولسه هعمل اللي يعجبك، بس إنت تقشَّر.

يمد يديه إلى الجرامافون، بينما نوشا منشغلة بما هو أهم لديها، لتملأ المكان موسيقى فالس الربيع لـ(شوبان).

الغيوم تظلل سماء الإسكندرية من خلف الزجاج المطل على البحر، ورضا يكنس سلم المنزل مدندًا لحنًا نوبيًا ذا السلم الخماسي الرشيق،

وعلى سطح البناية يحاول نصر بصوته الأجش أن يُغنِّي شيئًا

(جبتو منين الجمال ده كله) للريس حفني على لحن (خدني معاك إن كنت مسافر).

ونوافذ استيلا يشدو منها عبد الوهاب كعادته في الصباح: (ليه تشغل بالك مين يرحم حالك).

الناس كل الناس يغنون في الإسكندرية، وكأن الفن قد وُلِد في أحضانها، أو أن الفنانين قد اُعتمدت شهادات فنونهم ها هُنا.

(٧)
إمّة الزغاليل

الإسكندرية

عصر اليوم الثاني بعد العودة

يجلس مصطفى على سور حديدي على الرصيف كان موجودًا من قبل في تقاطع شارعي صفية زغلول وسعد زغلول. هذا السور يحاول يائسًا أن يمنع المارَّة من النزول من على الرصيف ويبقي فتحات عند تقاطعات الشوارع الرئيسية عند مناطق عبور المشاة المظللة بالأبيض التي يظن المارَّة أنها فقط لتزيين الطريق متجاهلين كل قواعد السلامة في العبور والسير.

يجلس على السور إلى جوار عشرات من باعة افترشوا الرصيف بمنتجاتهم، فهذا يبيع كُتبًا دينية وثقافية من الفئة التجارية الرائجة، وآخر معه ميزان يزن المارَّة، وذاك يفترش لِعبًا للأطفال، وآخرين وآخرين... والحراك الإنساني يدور من حوله، وهو يبحث بين المارة عن (زينة) الفتاة التي التقاها بالأمس والتي رآها في غيبوبته وأدرك بعد فترة أنها تحمل نفس الملامح لذاك الوجه الذي أضافه للوحة جسد (نوشا)...

مصطفى نفسه لا يعلم هل ينتظرها لأنها زوزو التي خطفت روحه بالأمس، أم لأنها زينة التي قد يجد عندها جواب لحاله.

يطول الانتظار، والوجوه تتغير أمامه؛ نساء ورجال يطوفون وسط المدينة، سعي سرمدي عبثي.

كان من عادته أن يتسلى بوجوه المارة، يُحدِّق فيها ويضع لكل وجه اسمًا وقصةً وحالاً، فهذا الأصلع يبدو كـ(طلعت) محاسب بشركة قطاع عام، وهذه السيدة هي مدام (ناهد) يبدو هذا من صدرها، ربة منزل على الأرجح. أما هذا المسِّن فهو الحاج (فاروق) الذي لا يزال ناقمًا على حِراك عبد الناصر وآسفًا على الملكية؛ قطعًا على المعاش.

وبين تأمله في وجوه الخلائق وخياله المتصنع لواقعهم الذي تعكسه ظواهرهم؛ تظهر هي...

إنها هي... هي...

ببنطال جينز أزرق كالسماء وكنزة صفراء كرمال البحر، كم من السهل أن تكتشف وجودها، تستشعره وتحسه، تستبصره قبل أن تراه، هي غير كل المارة، مختلفة عن كل ما يحيط بها؛ هذا الخلاف الذي يبرز المعنى من وجودها، فهي بذاتها لها كينونة مغايرة، لها هالة وطلة تخطف البصر والفؤاد.

يشير لها مصطفى بحماس، وتبادله نفس الإشارة بنفس الحماس. تقترب منه وهي تربِّع يديها وتقول بسخرية:

- شوف الصُدف يا أخي.

- لا طبعًا مش صُدفة، أنا جاي أجيب حجارة من عم توفيق.

- ااااه، وأنا اللي فاكراك واقف مستنيني.

- ليه هو أنا مداينك عشان أقف لك في الشارع؟

- طيب معطلكش بقى، روح هات الحجارة بتاعتك أنا بتاعتي لسه شغالة، وجايبه شريط جديد وهتمشي أسمعه وأنا بتفرج ع الفتارين.

مصطفى ضاحكًا:

- طيب خلاص متزعليش هتمشى معاكي.

- ده إيه ياخي القلاطه دي؟ ومين قالك إني أصلاً عايزة أتمشى معاك؟

- طيب يا ستي... كنت مستنيكي وقاعد بقالي ساعة ع السور لما قعدتي فقفقت. حلو كده؟

- نُص الكلام حلو، موضوع الفقفقة ده بقى يا ريت تعتبره من أمورك الشخصية.

- تشربي قهوة؟

- مممم أهو ده كلام حلو، نتمشى لمحل البن البرازيلي وناخد قهوة.

- وماله نتمشى.

- بس دوبل.

- دوبل... هو إنتي دافعة حاجة.

- لا هديك شيكولاتة مع القهوة يا بخيل يا جِلدة.

يسيران في شارع صفيه زغلول حتى يدخلا في شارع كنيسة الأقباط ليمرا إلى جوار الكنيسة المرقسية التي رآها مصطفى في نوبته بالأمس. يفرك رأسه ويهزها وهو يحاول ألا تهاجمه الأحلام خوفًا من أن تُصيبه نوبة من الصرع وهو معها، فالمشاهد لا تزال عالقة في رأسه، كحالات (الديجافو) التي نكون متيقنين وقتها من أننا كنا هنا من قبل. يشعر مصطفى وكأنه في طريق العودة من نفس الطريق الذي سلكه في نوبته الأخيرة مع زينا.

تلاحظ زينة هذا بينما هما ينعطفان في شارع سيزوستريس الذي يعيش فيه مصطفى، والذي فيه محل القهوة البن البرازيلي...

- مالك؟ شكلك تعبان. تحب نقف؟

- لا خالص.

- لا بجد شكلك تعبان، إنت كويس؟

مصطفى متنهدًا:

- طيب ممكن نوصل بس للبن البرازيلي ونتكلم.

- آه طبعًا، بس لو تعبان أنا ممكن أمشي بجد مش هزعل.

– لا أرجوكي أنا عايزك تستني.

– لا ما هو أنا برده مش هسيبك وإنت تعبان كده.

– طيب تعالي نقعد ونتكلم.

يصلان إلى المحل ليجلسا على طاولة اعتادها مصطفى ليتعرف النادل (أشرف) عليهما...

– مصطفى بيه وحضرتك يا آنسة....؟ إسكندرية دي صغيرة أوي.

مصطفى:

– قهوة يا أشرف لو سمحت.

زينة:

– وأنا يا لوفة والنبي.

مصطفى مبتسمًا:

– لوفة؟!

– أصل أشرف ده بيظبطني في البن، ولما بخلع مبيجريش ورايا بصراحة.

مصطفى ضاحكًا:

– طيب كويس إنك قولتيلي، أنا بخاف أجري فبادفع.

– ها، ناوي تتّوه كتير ولا هتحكي ع اللي تاعبك؟

يصمت مصطفى للحظة. فتكمل هي:

- ممكن متحكيش لو مش حابب.

- بالعكس، أنا عايز أحكي أوي. وليكي إنتي بالذات.

تقترب بالكرسي منه...

- احكي متخافش.

مصطفى متنهدًا بعُمق:

- بُصي يا ستي، أنا عندي صرع....

ترفع حاجبيها باندهاش.

مصطفى متهكمًا:

- متخافيش قوي كده، مش مُعدي.

- لا والله أنا آسفة رد فعلي كان غبي، بس أنا يعني مش شايفة مشكلة، مممم يعني مممم عادي، ناس كتير عندها مشاكل صحية ونفسية وعصبية مش مستاهلة إنك تتضايق أوي كده. مقصدش إني أقلِّل من إحساسك بس أقصد أكيد بيكون في علاج وحلول.

- المشكلة مش في الصرع أنا متقبل ده رغم سخافته وقسوته أحيانًا.

- طيب فين المشكلة؟

- المشكلة في اللي بشوفه لما تجيني نوبات. في العادة الصرع مش زي النوم.

- لا مش فاهمة وضحلي.

- بصي يا ستي، الدكاترة برة مصر اللي أخدتهم كعب داير من لندن لباريس لفرانكفورت بيفسّروا الموضوع على إنه خلل في الجهاز العصبي بيكون نتيجة إن الكهربا اللي في المخ اللي بتدي إشارات للجسم مش منتظمة.

زينة علامات عدم الفهم تعلو وجهها:

- لا مش فاهمة أوي، بس يعني إيه اللي في الموضوع بعيد عن التفسير الطبي ممكن يكون؟ مزعج وإيه اللي بتشوفه.

- شوفتك إنتي... وقبل ما نتقابل.

زينة صارخة:

- أنا!!!

في لحظة دخول أشرف بأكواب القهوة التي كادت تنسكب من يده... فينظر إليه مصطفى:

- لا مؤاخذة يا أشرف، حط القهوة من فضلك.

- آسفة معلش، بس أنا فعلاً اتخضيت.

- عشان كده كنت عايز أقابلك تاني.

- أوعى تكون دي طريقة جديدة عشان تقولي أنا بشوفك وأنا أعرفك من زمان عشان تعلقني بيك، أنا مش حمل كده وحياتك.

مصطفى ضاحكًا:

– يمكن ده جزء من الخطة. بس والله دا اللي حصل.

– طيب بتشوف إيه؟ وبتشوفني فين؟

– في زمن غير الزمن ومُخي مصدق كل التفاصيل. إمبارح مثلاً كنا بنتمشي في إسكندرية القديمة وأخدتيني لعرَّافة اسمها (اينادورو) فاكر ملامحها وملامحك جدًا.

– بس ده طبيعي ممكن يكون بسبب إننا اتقابلنا وحكينا في التاريخ كتير. ممكن عقلك الباطن خزِّن الحوار وترجمه في شكل حلم أثناء النوبة اللي جاتلك.

– يمكن.

– المهم أنا... قولت حاجة في الحلم؟

– تؤ...

– وكمان مطلعني كومبارس صامت؟

– بس العرَّافة قالت لى ابني اللي هيقتلني.

– يا ساتر يا رب. أنا هابدأ أخاف منك يا جدع أنت.

ينظر مصطفى بشيء من الخجل إلى فنجان قهوته وهو يلفه بين يديه. فتتدارك زينة:

– أنا آسفة مقصدش كده، أقصد من أحلامك.

– يا ستي، أنا نفسي بخاف من نفسي ساعات.

تضع يدها على يده:

– متزعلش مني وحياة زوزو، أنا مدب أصلاً وكلامي بيتفهم غلط.

وتستمر بصوت مرح:

– اسمع بقى يا جدع إنت، موضوع الكهربا اللي في المخ ده عمل لي خُرم في دماغي ولازم أقرأ عنه عشان أفهم.

مصطفى مطوحًا يديه مللاً، ثم عاقدهما:

– يووووه، عندي فوق كتب عربي وإنجليزي وفرنساوي عن المخ والأعصاب مش عند أكبر جرّاح مخ وأعصاب، خُدي اللي إنتي عايزاه.

– لا يا عم، كتبك لأ... أنا ولا بسلف كتب ولا استلفها. كتابي تحت باطي ومش عايزة حاجة من حد.

– على كده مضيّعة فلوسك على كُتب التاريخ؟

– لا خالص، أولاً أنا بشتري مستعمل من مكتبة الصفا هنا في شارع العطارين...

– آه عارفها.

– ثانيًا وده الأهم: أنا معنديش فلوس يا راسمالي عشان أضيعها. أخري أفرتك جوز جنيهات على كتاب مستعمل وشيكولاتة روكيت وحجر بطاريه وبالباقي لبان.

مصطفى ضاحكًا:

– أهو موضوع البطارية ده اللي خارب الميزانية.

زينة تنهض بسرعة:

- قوم بينا.

- في إيه؟ كبسة؟؟

- ليه هو إحنا في غرزة؟ نقوم نشوف حاجة في مكتبة الصفا.

- يخرب بيت دماغك، وأنا اللي فاكر نفسي كهربة دماغي بايظة.

- قوم قوم خلينا نشوف.

يسيران في طريقهما إلى مكتبة الصفا في شارع العطارين حيث مسجد العطارين يقف شاهدًا على عصر آخر وحضارة أخرى كُتبت بعض سطورها في الإسكندرية وفي الشوارع الجانبية من شارع العطارين التجاري في وقتها: محال أصحاب الأنتيكات والتُّحف والتي يمتلك فيها مصطفى بفعل الميراث محلاً كبيرًا؛ وقد يكون الأهم؛ كان يمتلكه والده رافع يومًا ما، وصُنَّاع قِطع الأثاث الفريدة، ومحلات النجف التي تضيء الشوارع بطرازات مختلفة، وأبنية قد أُعيد بناؤها بعد ما هدم الإنجليز تلك المنطقة بقصف بحري شرس غيَّر ملامح الحي القديم وأعيد إعماره في منتصف القرن الثامن عشر.

العطارين، تلك القطعة من الأرض الراسخة مثل التاريخ واللينة كالصلصال. فكل حضارات العالم مرَّت من هنا، اختمرت مع أركان الحي وتركت آثارها بحلوها ومُرها دون رتوش،

فالمكان لا يزيِّف الماضي، والتاريخ المرتبط بالمكان يصعب تزويره. من هنا مرَّ الروم والفرس والإنجليز والفرنسيون، وكل الديانات السماوية تركت بصمة هنا: الكاتدرائية الأقدم في الشرق الأوسط ومسجد العطارين واحد من عشرات المساجد والمعبد اليهودي؛ كلهم في حي واحد... وأطياف من كل المِلل والألوان تعيش بتناغم كعازفي الأوركسترا دون نشاز في لحن التعايش؛ إيطاليون ويونانيون وبقية من الإنجليز والفرنسيين وأهل صعيد مصر من قبيلة العرابه ونوبيون، وغيرهم. الكل يعيش في هذا الحي بتناغم وقبول للآخر.

يصل مصطفى وزينة إلى مكتبة الصفا في منتصف شارع العطارين. تدخل زينة بثقتها المعتادة وكأنها فتاة تدخل غرفة ابنة خالتها، تسلِّم على من في المكتبة، بينما مصطفى يقف في الخارج ينتظرها.

تتحدث زينة مع صاحب المكتبة الذي يبدو عليه التفكير لثوانٍ معدودة، ثم يشير إلى جزء في المكتبة متخم بالكتب كباقي أرجاء المكتبة، فتبدأ زينة رحلة بحث بين عناوين الكتب المستعملة المفهرسة بعناية. بينما يقف مصطفى يشعل سيجارته على باب المكتبة، فيلفت نظره عقد فرعوني النمط مُعلَّق في محل صغير للغاية لبيع التذكارات النوبية الجميلة يقع بجوار المكتبة... يقترب من فاترينة العرض يتفحص العُقد...

إنه هو... نفس العقد على رقبة (ايـنادورو)

يُطفئ سيجارته ويهرول إلى المحل الصغير... أنفاسه متلاحقة والقلق لسببٍ ما يسيطر عليه...

المحل بسيط مريح للنفس، رائحة العطور النوبية الجميلة، ورجل نوبي عُجِن بماء الطيبة يمسك مروحته النوبية الملونة يلوح بها يمينًا ويسارًا خالقًا نسمة لطيفة، وابتسامته كانت كفيلة لجعل مصطفى أكثر هـدوءًا... أسمر البشرة، تجاوز السبعين عامًا، يرتدي جلبابه الأبيض الطيب بالفِطرة، وطاقية (شبيكة) بدا الشيب من حولها جليًّا كنقاط فضة تغطي سمار رأسه.

يبتسم له مصطفى:

– مساء الخير يا حاج.

الرجل ضاحكًا:

– ربي يسمع منك يا ابني، قولي يا عم بدر.

– يا رب يا عم بدر نقولك يا حاج قريب.

– إن شاء لله إنت وإحنا.

– ممكن أشوف العُقد الفرعوني.

– والله ممكن تشوفه، بس هو مش للبيع، للعرض فقط.

– مممم فاهم يا عم بدر، أصل أنا شوفت واحد شبه كده وكنت عايز أتعرف عليه من قريب.

بدر يقوم من كرسيه:

- شوفته فين؟

- أقولك يا عم بدر، شوفته في المنام.

- خير يا رب.

- لا خير. كنت باقرأ الكف باين، وهو كان حاجة شبهه كده موجودة في المنام.

بدر ضاحكًا:

- طيب دي رؤية حلوة، واهي بتحصل وشوفنا وشك السمح. وعمك بدر بيقرا الكف كمان.

مصطفى بتعجب:

- بتتكلم جد يا عم بدر؟

- جرَّب.

- أجرَّب جدًا... دا إيه اليوم اللي كله علامات ده؟

ضاحكًا يخرج يُخرج نظارته الطبية ويضعها على عينيه:

- طبعًا بتقول ده مش شايف كفي أصلاً؛ هيشوف المستخبي إزاي؟

- لا يا عم بدر، كلك خير وبركة.

يجلس بدر على كرسيه، ويسحب كرسيًا آخر لمصطفى ليجلس أمامه ويمد كفه ليقرأه بدر...

– ورينا المستقبل فيه إيه ؟

يمسك بدر بكفه ويمسحه بمنديل أزرق، بينما مصطفى في ذهول؛ فهو نفس المنديل الذي استعملته العرَّافة...

بدر:

– حاشا لله يا ابني، دي فتوحات من رب الروح نطمِّن بيها عبيده.

يطيل النظر في كف مصطفى، ويمسحه من حين لآخر، ثم ينظر في وجهه ويعيد النظر لكفه.

مصطفى بقلق:

– أنا روحي متعلقة يا عم بدر؟

– قالت لك إيه في المنام لما قرت كفك ؟

– وعرفت منين إنها ست ؟

– طالما لابسة عُقد تبقى ست.

مصطفى باستسلام:

– أنا روحي متعلقة يا عم بدر؟

– رحمات ربنا واسعه يا ابني.

– ابني اللي هيموتني يا عم بدر؟

– لا حول ولا قوة إلا بالله، كفك طيب يا ابني، وغيبك عند اللي خلقك.

– قول يا عم بدر اللي شايفه، أنا عارف إنك شايف حاجة.

– شايف مال كتير وخير كتير وعمر طويل بإذن الله وصبيه زينة. لكن أجلك، لا استغفر الله علمه عند الله. بس بتحيا وبتحيا كتير، مكتوب على كفك (حي)...

تقطع زينة الحوار ومصطفى في حيرة من أمره:

– يعني إنت قاعد مع الراجل البركة ده وسايبني في مستودع الكتب لوحدي.

بدر:

– لا إن كان العقد ليها؛ يبقي ليها ولا بيع ولا عرض...

مصطفى على وجهه ملامح الوجوم، بينما بدر يخرج العقد الفرعوني ليضعه في يده:

– يبقى حلال عليكم.

زينة:

– يا نهار أبيض ع الشياكة. حلو جدًا يا مصطفى.

تضعه حول رقبتها، بينما مصطفى يطالع بابتسامة محاولاً مجاراة الأجواء... فيما نظرات بدر تهرب من عيني مصطفى المتسائلة.

زينة:

– لا أنا كمان أجيبلك هدية وأنفَّع الراجل السُكرة ده. مممم....

تنظر إلى المعروضات، بينما مصطفى يحاول استقراء أي ملمح

على وجه بدر الذي لا يحيد عن الابتسامة والنظرة الهادئة كلاعب بوكر محترف يُخفي أوراقه...

يقطع بدر أفكاره:

– اسمك إيه يا ابني؟

– نوب.

ينظر له بدر متفاجئًا من الرد، ثم يضحك ضحكة تميل إلى الاصطناع.

تعلّق زينة:

– إيه نوب ده، جاي من نوبة؟

– اسالي عم بدر، هو اللي عارف كل حاجة.

بدر بتلجلج:

– آه جاي من بلاد النوبة بلاد الدهب، ونوب يعني دهب.

زينة:

– لا اسمه مصطفى... عندك حاجة بحرف الميم أو اللام؟

– عندي اللي تهادي بيه، ويتهادى ويُهدى.

يُخرج قطعة جلدية (كالتي أخذها نوب من زينا) محفورًا عليها حرف الميم بالعربية ومعلَّق بها حلقة معدنية تُستعمل كحاملة مفاتيح... يضعها في يد زينة وهو ينظر إلى مصطفى:

– حلوة دي؟

زينة:

- مفيش حاجة فضة يا عم بدرزي شعرك الحلو ده كده؟

بدر ضاحكًا:

- ربنا يكرم أصلك يا أم قلب دهب. بس شوفي يمكن عاجباه.

مصطفى يتلقى الرسالة بكل وضوح ويقول بهدوء:

- هاخد دي يا زينة عجباني جدًا.

تحاسب زينة، وينصرفان من محل بدر، بينما النظرات تحوي أسئلة وإجابات بين بدر ومصطفى، لتنتهي بوداع مؤقت.

تحمل زينة الكُتب، ومصطفى يطالع ميدالية المفاتيح الجديدة القديمة. تسهب زينة في حديث مطول عن الكتب وعناوينها وشغفها لمعرفة كيف يعمل المخ وأنها ستجد إجابات بين صفحات الكتب المستعملة التي اشترتها من مكتبة الصفا. بينما مصطفى يحاول أن يكون لطيفًا قدر المستطاع كي لا تشعر بما فيه من اضطراب. حتى يصلا إلى العمارة التي يقطنها مصطفى ليقول:

- زوزو على فكره أنا ساكن هنا.

- إيه جو الاستدراج ده وماما فوق عيانة؟ لا يا عم يفتح الله.

مصطفى ضاحكًا:

- يا باي على السينما اللي واكله دماغك.

- طيب اطلع بقى ارتاح، بكره هجيلك بالحل اللي مجبتهوش

دكاترة باريس يا باشمهندس.

- والنبي إنتي بتاعت كلام، هو أنا بعرف ألاقيكي أصلاً؟

- يا راجل يا ناكر للجميل دا أنا نازلة بدري عن معادي ساعتين عشان أشوفك، وعارفة إني هاجي ألاقيك ملطوع في الشمس.

- لاااا والله، يعني إنتي مش جاية صُدفة ولا بتاع، وجاية تقابليني؟

- مين قال كده؟ أنا قولت كده؟؟

- لا أُمي اللي قالت.

- شوفت، مش أنا دي طنط.

- طيب يا دكتوره زوزو، ممكن ميعاد ومكان محددين.

زينة بسخرية:

- مممم... جدولي زحمة... بس بُص،. ممكن بُكرة نفس الميعاد على إمّة الزغاليل.

- فين يا اختي؟

- هارك ابيض، إنت إسكندراني إزاي؟ روح روح ارجع باريس ولا شوف إنت جاي من انهي مركب ولا طياره... بقى مش عارف إمّة الزغاليل؟

- إيه إمّة الزغاليل دي؟

- مكان ما قعدت وفقفقت النهارده.

تشير زينة بيدها شكل التقاطع:

– شارع صفية زغلول وشارع سعد زغلول، التقاطع ده اسمه إيه؟

مصطفى منفجرًا في الضحك:

– أيوه صح، إمّة الزغاليل.

– شكلي وقعت في سايح ولا إيه؟

– إلا هو إنتي منين أصلاً؟

– من هنا من العطارين طبعًا.

– غريبة، عُمري ما شوفتك، وكمان مش سامع لهجة إسكندراني في لغتك.

– على فكره مش من الإتيكيت أبدًا إنك تسأل بنت أسئلة كتير، معلومكش كده في باريس؟

– لا، ثم أنا يدوب معرفش غير اسمك.

– ده غيرك حفي عشان يعرف اسمي.

– طيب تليفونك؟

– تليفون إيه يا أستاذ إنت فاكرني محافظ إسكندرية؟... بس عامةً هات رقمك وأنا هبقى أكلمك.

يكتب لها رقمه، ثم تقول:

– أسيبك تروح ترتاح وأنا هطّقس وأقولك على اللي قريته.

تلوِّح له مودعة، بينما يلوح هو لها بابتسامة تقل تدريجيًا حينما يعيد النظر إلى القطعة الجلدية من جديد.

يلمح مصطفى سيارتي علاء ورجب مصطفتين تحت باب العمارة، فيقرر عدم الدخول، ويهيم على وجهه في شوارع العطارين. يمر من أمام محل والده كالغريب يرفض حتى الدخول فيه.

من شارع إلى شارع يطوف مصطفى ضواحي العطارين، حتى يتملكه الإرهاق، وتتعب معه الشمس فتقرر المغيب. بينما يقرر هو العودة إلى المنزل، ولا تزال سيارتا علاء ورجب تقبعان كالحمل تحت منزله، فلا ملاذ من لقائهما.

(١٣)

حــي

مصطفى العائد من نزهة قصيرة مع زينة بعد لقاء العم بدر النوبي؛ يدخل منزله ليجد علية وزوجها الشيخ رجب ومعهما علاء...

علية:

– حمد الله على السلامة يا صفصف.

مصطفى مقبلاً رأسها:

– الله يسلمك يا لولو... ريحة أمك في شعرك يا علية.

– ألف رحمة ونور عليها. علاء ورجب جوه.

– يوووووه مش وقتهم خالص.

– ورحمة أمك اِهدا. أخر مرة اتعصبت؛ تعبت تاني.

– قولي للبهوات اللي جوه مصطفى مبسوط ومش عايز وجع دماغ.

يدخل إلى غرفة الصالون، يحييهما، ويجلس... فيقول رجب:

– أهه صاحبك وصل... أنا هشّهده.

مصطفى:

– وحياة دقنك دي أنا مافايق لك وجاي تعبان.

– يا أخي اتقي الله، دي سُنة عن المصطفى.

– مخدتش منه غير الدقن.

– بإذن الله أطبَّق سُنته في كل ركن من حياتي، إنت مستكتر عليا فتوحات ربنا؟

مصطفى بضحكة خبيثة:

– الحقي يا علية جوزك هيتجوز عليكي.

علية من المطبخ بصوت عال:

– يبقى نهاره اسود، دا أنا أحلق له دقنه وأخليه الأغا رجب.

علاء ومصطفى يضحكان، ووجه رجب يتلون من الإحراج:

– لا ما هو إحنا مش في عهد الصحابة عشان أعدِّد في الزوجات.

علاء:

– حبيبي يا شيخ بولي (وإن خفتم).

– والنبي بلاش إنت يا علاء.

– ها معاك كام يا رجب مقولتليش؟

– ما هو لما درش يرضى علينا ويفك الكيس مش عارفين نبيع.

مصطفى:

– يا سيدي ما تبيع، هو رافع سايب شوية؟... كام عمارة في إسكندرية وقدهم مرتين في القاهرة، وتجارة وأراضي. بيع اللي إنت عايزه، بس بلاش عمارة العطارين... وبلاش لنصر تحديدًا... ربنا هيحاسبك ع القُبح اللي هيحصل.

رجب:

– ربنا يرحمه عمي، كان راجل فاضل وخيره فائض.

مصطفى ضاحكًا:

– ومسألتش نفسك عمك الفاضل ده جاب فلوسه منين؟ ولا إنت ميخصكش غير الفلوس أيًّا ما كان مصدرها؟؟

– ولا تزر وازرةٌ وِزر أخرى يا مصطفى.

علية تخرج بصينية بها أكواب شاي:

– اتكلم عن بابا كويس يا مصطفى. وإنت يا رجب خِفْ وبلاش الشويتين بتوعك، عايزين نتكلم في المفيد.

علاء:

– ايوااا، المفيد... المفيد إنك سايب حالك في باريس وشغلك والمعارض بتاعتك عشان نصفي أمور الوِرث وكل واحد ياخد حقه بدل الدنيا ماهي واقفة.

مصطفى:

– دنيت مين اللي واقفة يا سيادة مستشار العيلة بالوراثة؟ إنت بتحصّل في الشهر إيجارات بس فوق النص مليون جنيه، يعني يعيشونا ملوك، غير الأسهم والشركات اللي بتضخ أرباح سنوية بالملايين كل سنة.

علية:

– قول الله أكبر يا مصطفى، ما يحسد المال.....

مصطفى مقاطعًا:

– ما هي دي النقطة يا علية، ما يحسد المال إلا أصحابه، هل إحنا بقى أصحابه؟

– يا اخي اتكلم كويس عن أبوك، إنت لا عارف تبِّره وهو عايش ومستخسر تبره وهو عند اللي خلقه

– والله أنا بعمل كده عشان أبِّره... لو فيه في ماله اللي مش لينا؛ يبقى يروح لصاحب الحق.

رجب:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، طلَّع نصيبك صدقة يا أخي، لكن متوقفهاش لنا إحنا في مصلحتنا.

– ده لو كان ليك نصيب أصلاً يا شيخ أحا إنت راخر.

رجب بحِدة:

– لا كده قِلة أدب يا مصطفى، هو إحنا بنشحت منك؟

– يا ريتك بتشحت، إنت بتسرق أو بتشارك في سرقة... عمك يا شيخ، أبوكي يا علية هانم؛ كان تاجر آثار، يعني فلوسه مشبوهة.

علية:

– اسكت يا مصطفى ومتتكلمش عن اللي مش عارف يرد غيبته.

رجب بعصبية:

- لا إنت باين عليك الحالة زادت معاك.

مصطفى:

- حالة إيه؟

صمت في الغرفة...

- ما تنطق يا دلدول يا حرامي الجمعية، حالة إيه؟؟

علاء:

- مفيش لزوم للكلام بالطريقة دي يا مصطفى.

- إنت مش سامع البغل ده بيقول إيه؟

رجب:

- لا ما هو أنا مسمحلكش تغلط في أبوك وأختك واقفة وقُدَّام الناس.

- أبويا مغلتطش فيه، لكن إنت بغل ودلدول عادي... عارف عادي ليه؟ عشان إنت ميهمكش غير الفلوس والمصلحة. أقولك فلوس حرام تعالى ننضفها، تقولي ولا تزر وازرة وزر أخرى. لكن لو عيل جعان عندك مد إيده؛ تقطعهاله بشرع ربنا اللي بتفصّله على مقاس جلابيتك. طيب إيه رأيك إني أنا والمحامي المحترم المتجوز بنسكر وبنجيب نسوان؛ تعالى اجلدنا لو تقدر. دي اسمها ميكافيلية والغاية تبرِّر الوسيلة؛ بلغة الشارع: تعريص... أنا بكلم مين؟ ما تفوق يا عم الشيخ، بأقولك مال آثار مسروقة ومنهوبه من عرق الناس وحضاراتهم.

رجب:

– وافرض يا اخي. مين أفتى لك إن فلوس الآثار حرام؟... دي لقيطة طالما مش لاقيها في الحرم وعدّى عليها ٣ أيام؛ فهي ملك لك.

– والنبي إنت مصدَّق نفسك؟

– أنا مصدَّق شرع ربنا.

– أنهي رب ده اللي يحلِّل لك السرقة؟

– لا لا كده كتير، إحنا هنكفر كمان؟

علاء:

– يا جماعة، يا جماعة: الكلام ميبقاش كده.

مصطفى:

– أمال يبقى إزاي يا عم الهادي الحكيم.

– إنت بتتهم أبوك من غير دليل.

– يا أخي أنا شايفه بعيني وشايف الآثار بعيني بدل المرة ميت مرة، وأبوك الله يرحمه راخر كان شريك في الهم ده.

– لا يا مصطفى... معاك دليل توريهوني وأسمعك وأشوف كلامك، لكن كلام مسهب ملوش أصل؛ أقولك حاسب على كلامك

– مسألتش نفسك ولو مرة أبوك اللي خد عيار في نُص راسه؛

اخده منين؟

حالة صمت يسود الغرفة.

يكمل مصطفى:

- دا شغل مافيا يا حضرة الأفوكاتو، ياللي رحت القسم تمضي على قفل قضية قتل أبوك وتأييدها ضد مجهول عشان الشوشرة واسم المكتب اللي هتورثه، وعشان ماحدش يدعبس ورا القرشين اللي سابهم لك.

علاء بعصبية:

- دا كلام فارغ يا مصطفى، إنت بتهزي بأي كلام، أبويا محامي وليه بدل الخِصم عشرة.

- وإن كان رافع قبل ما يموت قال لي.

صمت من جديد في الغرفة... تقطعه علية:

- بابا؟؟ بابا الله يرحمه في أخر أيامه كان في مصحة نفسية بعد موت عمي الحاوي الله يرحمه، ومتاخدش على كلامه.

مصطفى ضاحكًا:

- حلوة منك يا علية... تعرفي مستند مهم يقدمه علاء بيه في المحكمة مع حالة الصرع اللي عندي تاخدي حكم بالحجر عليا من أول جلسة، مجنون ابن مجنون.

يصمت الجميع وكأنهم يقفون عرايا أمام مصطفى، الذي يسهب:

– بيعوا اللي إنتوا عايزين تبيعوه، املوا بطونكم من فلوس الناس... وإنت يا علاء: دوَّر مكتب أبوك واملاه قضايا تعويضات وحَجر وسمسرة... وإنت يا شيخ: وسَّع تجارتك واملا محلاتك بفلوس الناس... بس العمارة دي مش هتتباع.

تجثو علية على ركبتيها أمام مصطفى:

– ورحمة أمك وأبوك ما تعمل في نفسك ولا فينا كده، إحنا كلنا على أخرنا يا مصطفى، وأنا مبقاش ليا غيرك.

– وأنا موجود يا علية، هو أنا رحت فين؟

– أبوك نفسيته تعبت بعد ما بقى لوحده والناس مشيت من حواليه. سفرك كسره، وموت أمك هدّه، وبعدها موت عمك الحاوي خلَّص عليه... إنت ناسي لما كنت بتجيبه من حلقات الذكر مع الدراويش؟

– كانت أحلى أيامه. كان راضي ومسلِّم أمره... واللي متعرفهوش يا علية إنه كان خايف.

علاء:

– وحِّدوا الله يا جماعة... إنت يرضيك إيه يا مصطفى؟

– يرضيني إنكم تسيبوني أنام. أنا يومي كان طويل ومليان، وفعلاً معنديش مساحة لا أتخانق مع حد ولا أتكلم في اللي راح.

علية:

– خلاص... خلاص يا حبيبي ارتاح.

– إنت مش غريب يا علاء، البيت بيتك يا شيخ رجب طالما الحاج نصر مشترهوش.

يدخل مصطفى إلى غرفته وتلحق به علية...

– ورحمة أمك تسيبيني أنام.

– مش قبل ما تقولي جاي مزاجك متعكّر ليه؟

تكمل علية بابتسامة:

– زوزو إديتك ميعاد وطنشتك؟

مصطفى يخرج حاملة المفاتيح الجلدية من جيبه، تلاحظها علية... يفك أزرار قميصه... تقول له:

– طيب ما زوزوزجات وباين جايبة هدية، أورديحي آه ومش مقامك، بس جات.

مصطفى مبتسمًا:

– والنبي يا علية إنت فايقة. اطلعي برة يخرب بيت جوزك.

يضحك كلاهما. يقول مصطفى:

– أنا عارف كان عقلك فين؟

– أبوك بقى الله يرحمه باينله جوزنى خلاصة حق.

– ويعني هيجيبه من برة... الزناتي الكبير نفسه مجوز أمك لرافع خلاصة حق.

– يووووه إنت هتدور على جدك كمان؟

يرتمي مصطفى على السرير:

– طفِّي النوريا علية وخلي جوزالخيل اللي برة يكملوا موضوع غسيل الأموال ده بهدوء عشان أنا عايزأنام.

علية تطفئ النور:

– ربنا يهديك لينا وعلينا يا ابن أُمي وأبويا.

عينا مصطفى تحملقان في القطعة الجلدية، بينما يغلبه النوم...

يرى في نومه (رافع) يلبس ثوب الصوفية؛ جلباب وعمامة بلون أخضر؛ في إحدى حلقات الذكر... ينظرإلى مصطفى وهو يردد ويتمايل بجسده: حي، حي، حي... حيييي.

ثم يقف مُخرجًا مسدسًا من جيب جلبابه الداخلي ويُطلق الرصاص على مصطفى، لكن الرصاصة تُخطئه وتصيب رأس الحاوي الذي كان يقف خلف مصطفى، ليمر علاء ويمسح دم أبيه من على الأرض مبتسمًا، ويأخذ ما في جيوبه وساعته الذهبية كقُطّاع الطُرق ويجري بعيدًا. بينما يعود رافع إلى الذِكر، ومصطفى ينادي بصوت عالٍ وهو غير قادر على الصياح كحالات الجاثوم: علاء، أبوك يا علاء أبوك يا علاء، ويعلو صوت الذِكر مردِّدًا: حي حي حي حي.

يقوم مصطفى مفزوعًا من نومه وقد أغرق العرق وسادته وملاءته... يسمع صوت علاء في الخارج، فيخرج من غرفته

ليجد علية وعلاء ورجب...

- هو إنت بايت هنا يا علاء؟

علاء ضاحكًا:

- صباح الفل. لا يا درش سبناك ترتاح وجبتلك الحل وجيت بدري ألحقك قبل ما تغطس زي كل يوم منعرفش فين.

علية:

- اسأل عليه عند سعاد حسني.

- إنت ماشي مع سعاد حسني؟

رجب:

- سعاد حسني سعاد حسني؟

مصطفى ينظر لعلية بامتعاض:

- مش لاقيه غير دول تطّلعي عندهم إشاعة؟

علاء:

- إشاعة حب يا (سُونة).

رجب:

- طب وماله نروح نكلِّم أي ريجيسير نخطبهالك.

مصطفى:

- أبو تقل دمك منك له ليها.

علية :

- أنا رايحة أعمل القهوة، ولو جيت لقيتكم ماسكين في بعض هنسل الشبشب عليكم كلكم.

رجب بسخرية :

- الله، وأنا مالي يا حاجة؟

علاء موجهًا حديثه لمصطفى :

- بلاش البيت ده وخلينا نمشي معاك للأخر، بس نفك شوية سيولة في أرض متطوحة على طريق الساحل متسواش تلاتة تعريفة لقيت واحد نشّيلها له بسعر معقول، ولو يا سيدي أثبت كلامك بدليل واحد يسكّتنا؛ وعد مني أجيبلك كل قرش من حباب عنيهم.

- يا عم روح حاسب على أزايز البيرة السُّحت اللي نُص بارات إسكندرية شارب فيها سفلقة.

- مصطفى، فوق كده واعقل الكلام، ماحدش بيرمي ماله حتى الحرام ع الأرض نصيبك حقك يا ابن الناس، لكن أختك ملكش حُكم عليها.

- طز فيك وفيها. عايزني أعمل إيه خليني أخلص من سِحنكم دي ع الصبح؟

- أيوه كده يا صفصف... توقيع صغير هنا، ونخفى كلنا.

- هات يا عم المحامي.

يُخرج علاء أوراق البيع، بينما يبتسم رجب... يوقِّع مصطفى، فيقول علاء:

- بس كده يا سيدي، أروح أسجِّل الأرض للراجل وأجيبلكم شوية فكة، وزّعهم بقى رحمه ونور، هات بيهم قُرص؛ اللي يريحك.

رجب:

- ويا سلام لو تدخل بيهم معايا في مشروع حلال يخدم دين ربنا؛ يبقى أجمل هدية لروح الحاج.

- إنت ليه مُصِّرإني أشتمك؟

علاء:

- خلاص يا رجب وقَّعنا وكل واحد حر... يالله هتوكل على الله أوصل المحكمة والشهرالعقاري وأجيب الفلوس ونتقابل أخر النهار.

رجب:

- خدني في طريقك بقى يا علاء يا اخويا عشان عربيتي لسه هستلمها بعد صلاة الضُهر.

مصطفى ممتعضًا:

- ونِعمَ الزُهد.

- وأمَّا بنعمة ربك فحدِّث.

- برضه مش هشتمك.

رجب ضاحكًا:

- مقبولة منك حبيبي يا أبو نسب.

••••

نفس اليوم عصرًا... تجلس زينة على إمة الزغاليل في انتظار مصطفى الذي يسير إليها...

- يعني بذمتك في حد يدي معاد لبنت زي القمر ويسيبها تتعاكس وهو جاي متأخر؟

- بذمتك حد عبَّرك؟

- آه، عم توفيق قالي يا قمر، وبتاع الجرايد قالي يا عروسة، وواحد كده معدّي قالي كلمه عيب أقولها، والراجل الضخم اللي هناك ده قالي تعالي نشربوكي الساقع بدل ما انت قاعد لوحدك يا جميل.

- قالك يا جميل؟

- آه والله حتى اسأله... إنت أصلاً المفروض تروح تتخانق معاه.

- لا وحياتك أنا مش ناقص خناقات.

- ليه مين ضربك تاني؟ هو أنا كل ما أسيبك شوية تتضرب؟

- أنا تقريبًا من يوم ما رجعت مبعملش حاجة غير الخناق

وحالات صرع.

– مممم، الظاهر إن مزاجك مش رايق.

– لا خالص... وحشتيني.

زينه بابتسامة:

– بجد؟

– بجد.

– طيب مقولتش ليه من الأول؟

– هو إنتي ادتيني فرصة؟

– طيب خد فرصتك، وإيه كمان؟

– هو إيه اللي وإيه كمان؟ وحشتيي وبس.

زينة بخيبة أمل:

– وبس؟... طيب.

– هتفسّحيني فين؟

– وكمان أفسّحك؟ يا خرابي... تعالى يا شاطر، تحب تروح السينما؟

– أحب قوي.

– تعرف إن سينما بلازا اللي في شارع فؤاد بتاعت الحبيبة دي من أقدم السينمات في التاريخ؟

– قولي يا جبرتي.

زينة متعلقة في ذراع مصطفى:

- لو الانجاچيه ميضايقكش يعني، أنا ممكن أحكيلك بس طول ما إنت مأنجچني كده.

مصطفى مبتسمًا وهو يشعر بدفء ذراعها حول ذراعه وهي متعلقة به لفارق الطول.

تتابع زينة:

- بص يا سيدي، تاني فيلم اتعرض في الدنيا كلها كان عندنا هنا في العطارين، برده كان في نادي محمد علي اللي هو قصر ثقافة الحرية دلوقتي، عارفة؟

- آه طبعًا عارفة.

- أمَّا بقى أقدم سينما موجودة هي سينما بلازا اللي في شارع فؤاد، الشارع أصلاً عمره فوق الـ٢٢٠٠ قول ٢٣٠٠ سنة، من أيام الإسكندر.

- مش هتصدقيني لو قلت لك إنه صاحبي.

- هو مين؟

مصطفى ضاحكًا:

- الإسكندر.

- المقدوني؟

- لا أستاذ إسكندر أبو دكتور زكريا اللي ساكن في التالت.

- لا المقدوني ده كان قمر وعنيه ملونة... مقدوني بقى.

تهيم خطوات مصطفى المستمتع بلف ذراعه حول ذراع زينة التي لم تكف عن الحديث من سينما إلى أخرى ومن مشهد لآخر من شارع السلطان حسين لمحطة الرمل والنبي دانيال إلى شارع العطارين وشارع فؤاد، تحكي ويسمع وكأنه يعرف... رحلة وكأنها استشفائية لرجل فقد ذاكرته القديمة يطوف بابنته لتتذكِّره انه كان هنا يومًا ما.

أمام سينما أمير يقفان ومعهما شطائر الفول وحديثهما الموصول لم يتوقف للحظة. بينما في قلب مصطفى ما يشوبه وفي ذهنه مئات الأفكار والهواجس التي قد تقود أي عاقل إلى الجنون.

تنظر زينة في ساعتها:

– يخرب عقلك قاعد تلوك تلوك، أهي الساعة بقت ٦ ونص.

– يا خبر ٦ ونص... طب وإيه يعني؟

– حفلة ٦ راحت يا أستاذ.

– آااه، طيب سواريه ماينفعش؟

– لا طبعًا، أنا أخري ماتينيه.

– طيب والحل؟

– هاروّح طبعًا.

– طيب أروّحك.

– تروحني فين؟ هو أنا عيلة؟

– برده مش عايزة تقوليلي ساكنة فين؟

تضحك وتشير على قلب مصطفى:

– ساكنة هنا في العطارين يا أبو إسكندر. وبعد إذنك بقى عشان لسه مخلصتش البحث بتاع كهربة المخ.

– طيب اسمعي. أنا هخرَّم من كوم الدكة وأطلع من محطة مصر على باب عمر باشا.

– عند السوق؟

– بالظبط... لو على طريقك نتمشى سوا.

– ليه أنت مش مروَّح؟

– عندي زيارة حلوة كده أنا محتاجها.

– مممممم، على فين؟ حد يسهر معاك سواريه؟؟

مصطفى ضاحكًا:

– طيب والله رايح جامع.

زينه باندهاش:

– جامع؟

– آه جامع الميرغني اللي هناك، ليه قصة كده.

– لا إن كان في قصة يبقى طريقي طبعًا. قول يا شهرزاد.

يبدأن السير في خط السير الذي رسمه مصطفى مسبقًا، ويبدأ في الحديث:

– بقى أنا أبويا في أخر أيامه ماكانش مظبوط نفسيًا.

– الله يرحمه.

– كان بيحب جدًا يروح حلقات الذِكر، وكان في طريقة صوفية اسمها الطريقة الميرغنية في المسجد ده.

– اسمع عنها.

– كان أبويا يقعد بين المغرب والعشا هناك يذكر وسط الناس، مع إنه كان راجل أعمال.

– وطبعًا قالوا عليه مبقاش مخه موزون.

– بالظبط كده.

– بدون قطع كلامك...

تشير زينة إلى منزل في كوم الدكة:

– نقرا الفاتحة لباباك والشيخ سيد.

– سيد مين؟

زينه تنظر له بامتعاض:

– سيد درويش يا خواجه أو سيد الدراويش كلهم، درويش المزيكا ودرويش إسكندرية.

مصطفى مبتسمًا وزينة بدأت تضع يديها على وجهها وهي تقرأ حتى تنتهي...

– ها، كمِّل.

– مفيش، بس وحشني قولت أروح أسمع الذِكر.

تضع زينة يدها على كتفه:

– أبوك ولا الذِكر؟

– مش عارف، يمكن الاتنين.

– حلو إن الواحد يلاقي حد يوحشه ويفتكره.

مصطفى محاولاً تغيير الموضوع الحساس بالنسبة له:

– بتحبي سيد درويش؟

– يا خرابي، دا خطيبي.

مصطفى ضاحكًا:

– يا بنت إنتي عيشي الحاضر شوية، هو كله ماضي؟

– مفيش حاجة اسمها حاضر.

– بمعنى؟

– الزمن يا ماضي يا مستقبل، الحاضر لحظة صعب تمسكها... يعني إحنا كنا عند سينما أمير؛ قرَّرنا نروح جامع الميرغني، سرقنا المستقبل باللي خططنا له في الماضي... مفيش حاضر يا باشمهندس.

– مممم، منطق معقول برضه.

– قصدك فلسفة.

– يا بااي... نرجع لخطيبك.

- مين فيهم؟

- خلينا في الشيخ سيد بما إننا لسه قاريين له الفاتحة.

- الراجل ده تحسه جاي من زمن تاني، راجل سافر كده بالزمن جابلنا أخر المزيكا وحطها لنا في زمن غير الزمن... تحسه كده روحه متعلقة بين أزمنة كتير، اختار أحسن ما في الزمن وحطه في ميعاد بدري عشان ناس أكتر تستمتع... إنت فاهمني؟

يبتسم وهو ينظر لها بدهشة:

- أنا يمكن أكتر واحد فاهمك في الموضوع ده.

- إنت بقى إيه؟ أنا عارفة إنك غاوي كلاسيكيات وبتحب فوزي، وإيه كمان؟

- المزيكا يا ستي أنواعها بتعددها مذهلة، بأحسها بتعبَّر عن الإنسان بأصوله وتطوراته، زي نظرية دارون كده في أصل الأشياء.

- لا مش فاهمة.

- يعني الموسيقى الغربية الكلاسيكية طلعت منها الحضارة الإنسانية يوناني ورماني وحتى فرعوني، واتفرعت موسيقى كنسية ودينية ورُبع تون، وموسيقى بصوت وريحة الخشب والأرابيسك. ولو الموسيقى راجل وست يبقى الجاز راجل دوشة ومش مفهوم وحاد والهاوس ست ناعم ودافي وحنين.

- طيب والمزيكا والبلوز؟

مصطفى مبتسمًا:

- ما بلاش.

- ليه بلاش؟

- البلوز صوت الآلهة.

- نعم يا اخويا؟

- الآلهة بتوع زمان من أول أزوريس لحد زيوس، صوت غليظ دافي مقنع وفيه طرب.

- لا بس كفاية لحد ما أوصّلك الجامع، هتكفّرنا يا هندسة وإحنا رايحين جامع.

يضحك ويغني لها بصوت أجش مقطوعة بلوز لـ (بي بي كينج): سويت ليتيل انجل.

تتعلق بذراعه، تنظر لعينيه في بوادر قصة حب مع فارق السن والطول لرجل يغني البلوز في حي شعبي وهو في طريقه إلى المسجد.

مجنونة أنتِ يا ماريا... مجنونة أنتِ يا إسكندرية.

كان الوقت الذي قضاه مصطفى مع زينة كفيلاً أن يهدِّئ روع روحه. حتى انصرفت وتركته أمام مسجد الميرغني وهي ملوحة له، بعد وعد منهما بموعد قريب قد يكون في الغد، بعد أن أعطاها رقم هاتف منزله لتتصل به وتؤكد معه الميعاد لاحقًا.

(١٤)

كبيرُهم الذي علَّمهم السِّحر... الزناتي

صحراء قُرب صعيد مصر

شتاء عام ١٩٤٤ - ليلاً

سيارتان للنقل محملتان بالرجال وعتاد الحفر تقفان في نقطة معينة عند مدخل ضيق بين جبلين...

ينزل الرجال يترجلون. مسيرة من الرجال يتقدمهم صبي خمري اللون نحيف يرتدي جلبابًا صعيديًا بسيطًا، يسير حاملاً مشعلاً، وخلفه بعض الرجال منهم شابان في العشرينيات: رافع، والحاوي المحامي العشريني حديث التخرج قصير القامة أبيض البشرة ذو شعر فاتح وعينين ملونتين تميلان إلى الرمادي؛ خليط من جينات أوربية وبقايا من جنود قد تخلفوا عن العودة مع حملاتهم وبقوا في دلتا مصر وتزوجوا منها. هاجر أجداده إلى الإسكندرية طلبًا للرزق...

يقف معهما الخواجة، شاب أوروبي المنبت مصري اللهجة والخصال نحيف كساق بامبو جاحظ العينين ذو بشرة بيضاء

كمن ماتوا من البرد في سيبيريا، وعيناه زرقاوان كالبحر، وشعر أصفر يُبشِّر بالصلع القريب.

وفي وسط الرجال يسير كزعيم أو ملك متوج عليهم رجل ستيني ضخم الجثة كجبل يسير على قدمين كما تسير الجبال يوم البعث الأعظم، رأسه مكعب كصندوق صلب حديدي وعيناه لامعتان كنجمتين، يرتدي جلبابًا وعباءة صعيدية، عمامته كعمامة أكثر أهل الأرض عِلمًا، فكما ورد كان حجم العمامة بقدر العِلم يومًا ما، وشومته لها رأس حية لا تغادر يمناه الضخمة، شاربه الكثيف يغطي شفته العلوية، يرتدي خاتمًا ذا فصٍ أزرق ضخم مهيب، مُهاب كالصحراء، واسع الصدر، عريض الكتفين... إنه كبيرهم، إنه (الزناتي).

الفتى الذي يتقدمهم يسير وكأنه يسير في غرفته، وكأنه يحفظ المكان عن ظهر قلب، رغم أنها المرة الأولى التي تطأ قدماه هذه الأرض. يصل إلى نقطة معينة، فيتوقف ويرفع مشعله ليتوقف الرجال من خلفه...

يبدأ الحاوي في الحديث همسًا لرافع:

– هنقف هنا؟

ينظر رافع للحاوي شزرًا ويطلب منه الصمت مشيرًا بسبابته فوق شفتيه.

بينما يمد الزناتي عصاه يوكز الحاوي في ظهره ليصمت.

يقف الفتى... يرتعد... يرتعش بقوة... يتمتم... يسقط على الأرض متشنجًا، يقفز فوقه أحد الرجال؛ شيخ مُلتحٍ ذو لحية بيضاء، يُمسك برأسه ويبدأ في تلاوات وأدعية متفرقة، يُقسِم على أحدهم ألا يؤذيه ولا يؤذي الفتى، يُقسِم بسليمان وموسى وربهم الأعلى.

يقف الحاوي في ذهول، بينما يشير الزناتي بعصاه للرجال ليبدأو الحفر، يرسم لهم بعصاه دائرة كبيرة تُحدِّد محيط الحفر، يغرسها في منتصف الدائرة ويقف مراقبًا للعُمال الذين يخرجون عِدّتهم: معاولهم ومجارفهم، وهم يسمون بسم الله أو الصليب؛ كلٌّ بما يؤمن، تلاوات خافته وتراتيل متقطعة وسط ضرب الفؤوس والمعاول.

يهدأ روع الفتى الذي يفيق، يقترب منه الزناتي ويضمه إلى صدره وهو يمر بكفه الضخم مع آيات قرآنية للرُّقية. ويقول له:

– عفارم عليك يا أبانوب.

– تعيش يا كبير.

– أنا بعُمر جدك...

مشيرًا للرجال من حوله؛ يتابع:

– دول يقولوا لي يا كبير، لكن إنت تقول لي يا جدي.

– ربنا يخليك يا جدي.

يمد الزناتي يديه في جيبه ويخرج جنيهًا من الذهب يضعه في

يد الصغير، بينما الحاوي يراقب بعينين تلمعان وقد سال لُعابه من صوت سُرّة الذهب في جيب الزناتي.

الزناتي موجهًا كلامه للشيخ:

– كمِّل يا شيخ، خلّص البقرة وليك عندي جنيه دهب لما نُجبر.

دقائق معدودة تمر وسط الذِّكر الذي يُطمئن قلوب الرجال. يجثو أحدهم على ركبتيه، وقد بدأت الأرض ترضى على من فوقها وتعطيهم من أثر من سبقوهم: رأس ذهبيه لتمثال فرعوني. بفُرشاة دقيقة يمحو العامل أثر التراب الذي جمعته الأيام لتخبِّئ كنوز الماضي والفُرشاة تمحو بفضولها البشري لتكشف عن تمثال بحجم كف اليد، يحمله العامل ويهرول إلى الزناتي يضعه بين يديه. فيقلب فيه يمينًا ويسارًا، ويقول:

– عفارم يا رجالة، شِدوا حيلكم، ناخد اللي فيه النصيب وتروّحوا مرضيين بإذن الله.

يمر الشيخ بوعاء فيه ماء يقرأ من القرآن وهو ينثر الماء فوق التراب ويمسح جبين الرجال بيده.

ساعات قليلة مرَّت والزناتي يجلس على كرسيه وسط رجاله في الصحراء على ضوء المشاعل، وتحت قدمه عشرات من القطع الأثرية يتولى رافع لفها بعناية وفرزها ويكتب بقلم أحمر رقمًا على كل قطعة. بينما أبانوب منشغل بالجنيه الذهبي في يديه وكذلك الشيخ. والحاوي يحاول أن يساعد رافع ولكن

دون جدوى تذكر أو تُلاحظ.

الزناتي:

– كام حتة يا رافع؟

– ١٦٣ يا كبير.

– بارك الله فيما رزق... في حاجة تحت لسه؟

– العمدان والتابوت.

– خليهم للتاريخ يا ولدي، بكرة ييجي اللي يعرف يطلّع منهم خير.

ينهض الزناتي من على كرسيه. ويسير الرجال يحملون القطع الأثرية على إحدى السيارات، يركبها الزناتي إلى جوار السائق، وفي الخلف تُغطَّى الآثار بحِزم من القصب يجلس بجوارها رافع والحاوي.

تنطلق السيارة الأولى محملة بالرجال المرهقون وهم يملون أعينهم بأُجرتهم الكريمة المجزية التي وضعها الزناتي في كفوفهم الخشنة، والعتاد المنهك من حولهم، عائدين جنوبًا إلى الصعيد. بينما السيارة الثانية مع الزناتي تسير شمالاً إلى الإسكندرية.

في الخلف فوق أكوام القصب التي تستر عشرات من القطع الأثرية يجلس رافع والحاوي ملتحفين ببطانيتين من الصوف...

الحاوي:

– الشُغلانة دي مرمطة يا رافع.

– دلوقتي تقبض وتحس بالعز. إنت بس عشان أول مرة.

– بس المشي كده مش خطر؟

– متقلقش، طول مالكبير راكب جنب السواق إنت أمان.

– إلا هو مين الواد الصغير اللي خد أُجرته دهب؟ ومين الشيخ ده؟ وإيه الميه دي؟

– يا جدع سبني أريّح في السكة وبلاش أسئلة كتير.

– ما أنا عايز أفهم.

– الواد ده دلَّال. ساعات العيال الصغيرة اللي مبلغوش بيبقوا واصلين وبيحسوا بأماكن الآثار، وتلاقيه يدوخ ويسورق جنب المنطقة، وده أهم من العشر رجالة لأنه هو اللي بيقولك على السكة. والشيخ ده عشان يقرأ، عشان لو المقبرة مرصودة هو يفك الرصد ويقرأ ع الرجالة بمية وملح.

الحاوي ضاحكًا:

– وإنت مصدَّق؟

– أنا مصدق إني بأروّح بجوز جنيهات ما أحلمش أمسكهم في شهر. الرجالة بتصدق يا حاوي، وعشان يشتغلوا لازم يصدّقوا ويأمنوا.

مع شروق اليوم التالي تصل السيارة إلى مخزن رافع بالإسكندرية، مخزن كبير على ضفاف بحيرة المحمودية من المفترض أنه يخص زراعة الزناتي، وإن كان يحتوي على قطع أثرية وتماثيل كافية لفتح متحف للحضارة المصرية بكل عصورها من الفرعوني والروماني واليوناني والبيزنطي وحتى الإسلامي.

يبدأ رافع والحاوي في رص القطع بعناية. ويستغل الحاوي فرصة انشغال رافع ويضع تمثالا صغيرًا في جيبه الداخلي، لكن رافع يكتشف فِعلته حينما قام بِعدّ القطع مرة أخرى فوجدها ناقصة قطعة، لكنه تجاهل الأمر حتى لا يضع الحاوي ونفسه في مشكلة مع الزناتي، فألف قطعة لن تنقص كثيرًا إذا ما نقصت منها قطعة واحدة.

يقف رافع والحاوي على بعد خطوات من الزناتي الذي يتحدث مع الخواجة...

– تمام يا خواجة كده حقك وصلك؟

– تمام يا حاج.

يقترب الخواجة منه ويهمس:

– إنت واثق في العيال دي يا حاج؟

– جرا إيه يا هباب البِرك إنت، هي سيرة؟ قولنا ما تخافش يا خواجة. الزناتي يعرف كيف يختار رجالته.

- طيب يا حاج أنا هستأذن، وتوصل بالسلامة إن شاء الله.

ينصرف الخواجة، يراقبه الزناتي حتى يبتعد، وبعدها يشير للشابين رافع والحاوي أن يقتربا منه...

- قولي يا حاوي، ناوي تكمل في الحقوق ولا ناوي تتلحلح في السوق وتعمل قرشنات زي صاحبك؟

- لا يا حاج أنا بحب ألقّط رزقي على خفيف، لكن عيني على مكتب ووظيفة وأبقى أفوكاتو.

يخرج الزناتي بعض الأموال يمد يديه للحاوي...

- امسك يا ولدي، ده حقك وفوق حقك يا بتاع الحقوق... أي حاجة تعوزها في علامك ولا مكتبك لو نويت؛ تيجي وتقول لعمك الزناتي، دواري مفتوح.

- كلك خير وبركه يا حاج.

- روَّح إنت... وإنت يا رافع وقفلي حنطور وتعالى وصلني لمحطة الوابور.

الحاوي:

- لو كنت يا حاج محتاج مني حاجة أنا تحت أمرك.

- روَّح... روَّح يا سيادة الأفوكاتو، لما تعوز عمك تعالى وأنا لو عوزتك هعرف أجيبك.

ينظر له الزناتي بعينين قاسيتين شيئًا ما:

– أوعى تفكّر إني مش هعرف أجيبك لو عوزتك. إنت تحت إيدي يا حاوي.

– وأنا تحت أمرك يا حاج.

يشير رافع لعربة الحنطور. يصعد الزناتي وبعده رافع، ويقف الحاوي ليسأله الزناني:

– قولي يا حاوي، لو القانون قال إن البيع والشرا ده مينفعش؛ هتكمل بيع وشرا معانا؟

الحاوي بعد صمت لم يطل:

– القانون دايمًا له سكة يا حاج، المهم إنت تقول والحسنة تبقى حاضرة، وأنا دايمًا في ضهرك.

– عفارم عليك يا حاوي... اطلع يا أسطى.

تنطلق العربة التي يجرها الخيل في شوارع المنشية وقرع حدوة الفرس ذو رنين يعلو فوق أرضيات الشوارع المبللة بفعل المطر. يتكئ الزناتي بيديه ورأسه على عصاه ناظرًا إلى رافع ويخيِّم الصمت للحظات، يدير الزناتي وجهه وهو يطالع الشوارع من حوله:

– بلادكم حلوه يا رافع.

– حلوة بوجودك يا حاج.

– يمكن لو ربنا قدَّروا تولدت هنا ولا اتربيت هنا كان زماني بقيت حاجة تانية.

- إنت ما شاء الله يا حاج؛ عُمدة هنا وهناك.

- مسألتنيش يعني أنا جايبك معايا ليه؟

- أنا مبسألش طول ما أنا معاك يا حاج، أنا هنا عشان أنفِّذ وبس.

- وأنا دماغك بتعجبني... أنا ربنا مرزقنيش بولاد، اتجوزت بدل المرة ٣، وأخر جوازة كانت من عندكم من بحري، وربك مكتبش بصبي.

- البركة فيك وحسك في الدنيا يا حاج.

- اسمع يا ولدي كلمتين أبرك من عشرة: أنا هديلك آسمين الكبيرة تشيلها في عنيك يا رافع وأنا أشيلك فوق دماغي وتبقى ولدي والخير ليكم من بعدي.

- يا حاج ربنا يديك طولة العمر، وأنا متنيش ليك كلمة.

- النزولة الجاية نقرا فاتحتكم، وبعد شهرين تكون جهزت حالك وتتنك هنا في اسكندرية تدوَّر الشُغل من هنا.

- والحاوي؟

- مجايبك، إنت اللي تقول.

- ينفعنا يا كبير.

- ينفعنا كيف؟

- الحاوي يتيم وغلبان بس عنيد حارب لحد ما خلص حقوق.

ودماغه شغالة.

- خلاص يبقى كتفه في كتفك، بس إنت اللي تشغله. الحاوي اليُتم أكله والجنيه بقى أبوه وامه ويبيعك لو إنت جنيه عشان اتنين جنيه، خايف وعايز يأمن نفسه... لكن إنت لا، قلبك جامد وعضمك عفي، بس هتفضل محتاجه ولازم تعرف دايمًا تشغله وترميله اللي يخليه طوعك.

- ولو شبع؟

- مش هيشبع. اللي زي الحاوي مبيشبعش. الحرب اللي دايرة؛ بُكرة تخلص والحكومة زي غيرها بكرة تحرَّم تجارتنا. ولما يبقى ليك شريك فاهم قانون عارف وداري بحواريه أبرك من صاحب مال يغرقك... بس المهم تكون شاريه وتفهّمه إنه رقم اتنين وميحلمش يبقى رقم واحد أبدًا.

- إنت شايف إنه مينفعش صاحب؟

- إنت ومُرادك معاه، اللي بيربي كلب يا ولدي يعرَّفه إنه هو ولي نعمته، بُكرة صاحبك يكبر في المقام، بس طول ما يدك في حنكه هيفضل طوعك، وحرّص من عضته وخوّنه، وإن مد إيده ألسعه بالنار بس متقطعلوش إيد.

- مفهوم يا كبير.

- إنت واعي للي عمله الحاوي؟

رافع يحك رأسه مترددًا.

الزناتي بحزم:

– واعي ولا لا؟

– كنِّف حتة في عِبّه وهو طالع من المخزن. بس وحياتك يا حاج أنا سكت عشان هو من طرفي، بس النية إني أرجَّع اللي أخده.

– عفارم عليك... يبقى تطلع عليه ترجّعها، وتمنها حلال عليك. ومهر آسمين واصل، يبقى عليك المطرح والعفش تدبَّر حالك وتجهز.

– شرف ليا يا كبير.

– اختار رجالتك يا رافع، شبّعهم، واللي يطمع منهم ترجَّع منه حقك.

– مفهوم يا كبيرنا.

يقف الحنطور أمام محطة القطار، ينزلان، ويدفع رافع للسائق أُجرته. ينصرف الزناتي بهدوء وهو يسير فوق الرصيف المؤدي إلى القطار، يلوِّح له رافع مودِّعًا، ثم ينصرف من المحطة مُفكِّرًا فيما قاله الزناتي.

الفرصة لا تلوح مرتين، ولتاجر مثل رافع تلك هي فرصة العمر: ميراث متخم وزوجة ورجل يضع بين يديه كنزًا يُغنيه طوال حياته... عرض لا يرفضه من هو مثل رافع، مال وفير لا ينقصه إلا كلاب الحراسة التي وجب عليه ترويضها جيدًا كما أوصاه الزناتي.

يسير رافع في شوارع العطارين، يمر على أحد المطاعم ويشتري بعض اللحم المشوي، ثم يمر على إحدى البقالات اليونانية ويشتري منها زجاجات البيرة وبعضًا من الجبن والزيتون. ويذهب في طريقه إلى منزل الحاوي الذي يسكن في حارة متواضعة، فهناك تقبع عمارة متهالكة، وفي شقة صغيرة يسكنها شاب له أحلام كبيرة؛ يسكن الحاوي.

الشقة الخالية نسبيًا من الأثاث، كرسيان وطاولة ومكتب للمطالعة وغرفة نوم ومطبخ خالٍ إلا من كوبين وطبقين. فالحاوي غير معتاد على استضافة الناس، وحتى زواره لن يجدوا غير كوب من الماء يُقدَّم لهم.

يطرق رافع باب الحاوي الذي يسأل من خلف الباب:

- مين؟

- افتح يا حاوي.

يفتح الباب ويدخل رافع حاملاً معه الأكل والمشروبات:

- كنت نمت؟

- لا أبدًا قاعد باقرأ وبأراجع شوية في الكُتب.

- جعان؟

- ميت من الجوع.

- طيب تعالى بسم الله.

يفتح رافع لفافة الطعام فيسيل لعاب الحاوي. يرص رافع

الطعام والمشروبات على الطاولة وينظر إلى الكُتب:

– قريت كل الكتب دي يا حاوي؟

– ولا ألف مرة. تقدر تقول حافظها.

– كلها في القانون؟

– أُمال يعني في الطبيخ؟ أكيد في القانون.

– مين اللي كتب القانون ده يا متر؟

– المُشرّعين وأساتذة القانون.

– يعني ناس زينا؟

– ناس آه بس مش زينا، دول ناس دارسين القانون في أوروبا وبيحاولوا يطوروه عشان يكون مناسب في مصر، بس أغلبه قانون فرنساوي.

– يعني المُشرعين دول همه اللي بيقولوا مين يتعاقب إزاي لما يغلط، وإنت دورك تسلِّك الغلطان.

– تمام كده.

رافع يخرج مطواة من جيبه يضعها على المنضدة، ويشعل سيجارته...

– والمُشرعين دول قالوا اللي يسرق ياخد كام سنة؟

يبتلع الحاوي لعابه بصعوبة:

– مش فاهم.

- لا صحصح معايا، هو مش إنت حافظ الكتب دي؟

يتابع رافع بعصبية:

- اللي يسرق يا حاوي يطس كام سنة؟

- على حسب التهمة وحسب الدلائل والقرائن.

ينتفض رافع من كرسيه بخفة يسحب مطواته ويطوق الحاوي بذراعه القوي واضعًا المطواة فوق الجزء الأيسر من رقبته، ويقول بحدة:

- اللي يسرق ياخد من ٣ لـ ٧ سنين، وكتب الطب بتقول إن تحت المطواة دي شريان اسمه السباتي بيوصَّل الدم للدماغ؛ الدماغ الغبية اللي حافظة كتب القانون، وإن المطواة الحلوة دي تخلص عليها في سحبة واحدة.

- ورحمة أبويا وأمي كُنت.....

رافع مقاطعًا:

- والقانون بيقول جريمة زي القتل فيها حبل مشنقة، بس إمتى؟

يصمت الحاوي مرتعبًا، بينما يسأله رافع بعصبية:

- إمتى يا حاوي رد؟

- لمَّا يكون في شهود وسلاح جريمة ودافع للقتل، أنا بقى ماحدش قطرني وأنا جايلك، ولا عين شافتني وأنا داخل منطقتك، يعني أسحب السلاح سحبة صغيرة وأسيبك ترفّس

زي الخروف... شغلتنا دي أنا فيها المُشرِّع والقانون نفسه، وأنا السجَّان والجلاد.

الحاوي مقاومًا:

- رقبتي يا رافع السلاح يطول.

- ما هو هيطول لو مدخلتش جبت الجِتة وجيت تترزع تطفح لُقمتك.

- حاضر... حاضر يا رافع، الجِتة جوه في الدولاب.

يفلته رافع ليسقط على الأرض. فينهض متحسِّسًا عُنقه.

رافع بعصبية:

- اخلص.

يستجيب الحاوي، يدخل غرفته ثم يخرج ومعه تمثال فرعوني صغير، يضعه أمام رافع الذي يشير له بالجلوس، فيجلس بارتباك وقلق.

- أول وأخر مرة تحاول تغفِّلني يا حاوي، شُغل التلت ورقات أنا اللي بدعته، ولو إنت تربية ملاجئ فأنا تربية شوارع، واللي في كُتبك أنا حافظه أكتر منك، بس أنت حافظ برخصة وحمار ما انتاش فاهم.

- ورحمة أُمي كنت.....

- ورحمة أمك كداب، ومش عايز أسمع كدب تاني، قوم...

يرفع صوته بعصبية:

- قوم هات كوبيتين وتعالى ناكل.

يحضر الحاوي كوبين ويبدأ في الأكل، بينما يصب رافع كأسًا ويبدأ في الشُّرب... يسأله الحاوي:

- إنت مش هتاكل؟

- لا... كُل إنت، أنا هامِّز بس.

- طيب الزناتي عرف؟

- الزناتي طلب رقبتك، لولا وقفت معاك وقولت له إنك تلزمنا... عايز تشتغل معانا يا ابن الناس وتزود دخلك تفهم أصول اللعبة، لكن تلعب لوحدك رقبتك هتطير يا حمار... مفهوم؟

يومئ الحاوي بالإيجاب وفمه ممتلئ بالطعام.

يُكمِل رافع:

- أنا طلبت إيد بنت الزناتي. مهرها كان رقبتك، بس أنا أقنعته إنك تلزمني والشغل هيوسع معاه... دورك تحفظه وتنفذه من غير كلام.

- مبروك.

ينهض رافع ويحمل التمثال يضعه في جيبه الداخلي متجهًا إلى باب المنزل:

- مبروك عليك رقبتك. هنعوز مخزن، ورجالة أمينة تشوِّن

معانا، وعايزك تبدأ تظهر في الجمرك، ومن الصبح تبدأ إجراءات شركة تصدير.

- هنصدّر إيه؟

- قصب... هنصدّر قصب ع الورق. أنا شغلي هيبقى من برة مش عايز أظهر في المينا تاني... إنت دخلتك عليهم محامي وصغير لسه حافظ كتب القانون هتطمنهم وتنيمهم وميبقاش في حوالينا عينين مفتحة. عايزك تنتشر في المينا وتصاحب طوب الأرض والرصفان وتشوف مين له سكة، مين بياكل ومين محتاج، واللي تشك فيه تبعد عنه، مش عايزين خواجات معانا؛ مننا للمشتري، أخرك تظبّط بحَّار ولا مساعد قبطان وترش ع المكاتب عشان الدنيا تسلك.

- مفهوم.

- متخلنيش أندم إني سبتك... بالهنا والشفا يا متر.

يخرج رافع ويترك الحاوي في حالة قلق وتوتر ويغطي ارتباكه بالأكل بنهم.

(١٥)

النـداهـة... نصر أبو دهـب

القهوة العالية في محطة مصر

عام ١٩٦٢

يجلس الحاوي مع صديقه رافع، بينما عبد الحليم حافظ في خلفية المشهد يحفِّز الجماهير مُغنيًا (إحنا الشعب).

يمر (نصر أبو دهب) الشاب العشريني قوي البنية من بين صفوف الجالسين يحمل معه علبة صغيرة وفرشاة دهان أحذية، بجلباب صعيدي أبلاه شقاء الغُربة وجسد يبدو قادرًا على المزيد من الصمود، طارقًا بالفرشاة فراغ صندوقه مُناديًا:

– ورنيش... لمَّع يا أستاذ... ورنيش.

ينظر إليه رافع بشيء من التفحص، ثم يشير إليه:

– خد يا واد يا بتاع الورنيش.

يهرول إليه نصر بخطوات واسعة وبدنه الضخم كدُبٍّ روسي يهرول في فقرة السيرك، حتى يصل إلى طاولة رافع والحاوي، فيقول له رافع:

- على مهلك يا ابني هو إحنا هنطير؟

على الفور يُخرج نصر كرسيًّا صغيرًا كان مُخبئًا في الصندوق إلى جوار عِلب الورنيش السوداء والبُنية اللون، يجلس على الكرسي ويضع الصندوق أمامه تحت قدميّ رافع الذي يومئ برأسه إلى الحاوي مشيرًا لماسح الأحذية وكأنه يقول له: هذا هو.

يبدأ الفتى في مسح حذاء رافع الذي يُنصت إلى همس الحاوي ويدور بينهما حوار هامس...

- هو ينفع بس أنا بقلق.

- جرى إيه يا حاوي؟ الحاجة تقيلة زي الرزية وما صدَّقنا نظبَّط ورقها في المينا.

- لو شبكنا في الموضوع مش هنطلع منها يا رافع... ثم إحنا معانا اللي يشيلها ويوصَّلها من غير وجع دماغ.

- ونشبك في إيه يا معالي المستشار؟ ولا حمولتنا ولا ورقنا، ولا حتى عربيتنا اللي موصلة للمينا.

- ده الورق يا أستاذ، لكن يوم ما هيكون في نيابة وتحقيق هيجيبوا الدغوف ده ويقرَّروه. يبقى إحنا ستَّفنا الحاجة والدفاتر ودافعين دم قلبنا للقبطان الطلياني ويجي ده يهدلك كل اللي بترتِّبه من شهور... وليه؟ عشان نوفَّر في النقل والمشال؟

رافع مبتسمًا وهو يحتسي قهوته بهدوء:

- لا، ما هو في شوية تعديلات كده.

الحاوي بصوت عصبي منخفض:

- نعم يا اخويا؟... تعديلات دلوقتي؟

رافع بهدوء:

- وليه لأ؟... طالما مصلحة أكبر.

- وإحنا مش شُركا في المصلحة دي وواجب توعِّيني عشان أعرف أتصرَّف؟ ولا إنت مخوِّني؟

رافع ينظر بحسم وبصوت قاطع:

- لا إحنا مش شُركا. إنت بتظبَّط الورق وبتمشِّي الأمور، لكن الحاجة - مُشيرًا إلى صدره بإبهاميه - بتاعتي، بتاعتي أنا، وإنت عارف. ولو مخوِّنك يا جناب الأفوكاتو ماكناش هنبقى قاعدين القاعدة الحلوة دي.

يطرق نصر بالفُرشاة فوق الصندوق، فيغيِّر رافع وضع ساقه بعد أنهى نصر للتو الحذاء الأيمن، فيضع رافع الأيسر فوق الصندوق ويبدأ نصر في مسحه.

يكمل رافع حديثه مع الحاوي:

- مفيش بحَّار طلياني، المُشتري اتغيَّر.

الحاوي يمسح صلعته بتوتر:

- وممكن أعرف مين بقى؟

- اسمه عشر تلاف جنيه زيادة منهم ٢٥٠ للخواجة... حلو

الاسم ده؟

تلمع عينا الحاوي، وتتمدد شفتاه مبتسمتين:

– عاشت الأسامي... طيب وأخوك الحاوي؟

– ماله أخويا؟ حقه وصله والبضاعة لسه على حِجرنا، ومش مطلوب منه غير أنه ماينبرش فيها.

الحاوي بخيبة أمل:

– وماله يا رافع بيه؟ الأصول متزّعلش.

رافع مبتسمًا:

– وعشان الأصول ليك في ذمتي ٥٠٠ جني فرق سعر.

– همه ٨٠٠ بالحساب بس...

– يا جدع إنت بلاش أم كُهن الفلاحين ده، هو إنت كنت دريان؟... دا أنا اللي شاري وبايع وبأقولك من الهوا ٥٠٠ بالأصول.

الحاوي ضاحكًا:

– طيب... شوف بقى هتتصرف مع الأخ ده إزاي.

رافع يومئ برأسه غامزًا بعينه وكأنه يقول: بسيطة.

يقترب من ماسح الأحذية وقد فرغ للتو من مسح الحذاء الآخر:

– هو أنا لو قولت لك يا بلدينا إني معيش فلوس أحاسبك؛ نتخانق ونزعل، ولا نتراضى؟

– لا يا ابوي نتراضى، وخلي علينا خالص.

– مش قولت لك يا حاوي بلدياتي ده ابن أصول؟

- ربنا يكرم أصلك يا بيه.

- أصل أنا عندي مصلحة فيها قرشين يغنوك عن القاعدة دي لامؤاخذة، ويرجَّعوك سوهاج في ظرف سنتين صاحب طين.

نصر الذي تلمع عيناه بقلق:

- وإنت عرفت منين إني من سوهاج يا فندي؟

- من سوهاج، ومن العرَّابة غرب الجبل. وأزيدك م الشعر بيت: من عيلة أبو دهب.

- يا ابوي... إنت عرفت منين يا بيه؟ إنت خابرني.

- ولاد الأصول بيبانو من عنوانهم يا ابن عمي... إلا اسم الكريم إيه؟

- محسوبك نصر يا بيه... فكرَّتك عارف.

- يا سلاااام، ربنا ينصرك يا ابني... على كده بقى بتعرف تعتل عفش وبضاعة تقيلة؟

نصر بحماس:

- أنا بعون الله بنزِّل جطر طنطا ومصر كله لحالي.

- وقطر قبلي لأ ليه؟

- كله بلديات صحتهم أحسن مني.

الحاوي يضحك:

- إنت ربنا بيحبك إنك وقعت في رافع بيه.

- ربنا يعلِّي مقامك يا سعادة البيه.

رافع ينظر في ساعته:

- قطر طنطا زمانه على وصول، تروح تسترزق وتعملك قرشين وبعديها تروح تريّح وتجيني قدَّام باب جامع العطارين على الساعة ١٢ بالليل كده.

نصر بتوتر:

- ماتأخذنيش يا بيه، شغل إيه ده اللي في نصاص الليالي؟... أنا جاي آكل عيش، ولا ليا في السِّكك العِفشة ولا في اللي يودي حديد.

- يعني يا راجل هنعمل شُغل حرام قُدَّام باب الجامع؟

- صُح... أكيد لا.

- إحنا عايزينك في نقلة نشوف دراعاتك وصحتك كده تمام ولا منظر؟

- بإذنك يارب أنا أنقلك المحطة كلها عند الجامع لو حبيت.

- خلاص، يبقى تشتغل معايا أنا وأخونا الحاوي وتاكل عيش جنب شغلك... وأقولك، لو شغلك تمام التمام أشوفلك مطرح فوق السطوح عندي بسعر حلو تتجوِّز فيه.

نصر تتسع عيناه ويقول بحماس:

- دا أنا أرفع لك المحطة وجامع العطارين بالعطارين على كتافي.

- طيب يلا شوف حالك، وعينك على ساعة المحطة ١٢ إلا

عشرة تتحرك عشان تبقى عندي ١٢، متجيش قبل ١٢.

نصر يجمع أغراضه بحماس وهو يقول:

- بإذنك يارب هكون معاك ١٢ بالدقيقة.

ينصرف نصر الذي يملأ الحماس عروقه بالدماء في طريقه إلى محطة القطار.

الحاوي:

- وبتقول عليا أنا اللي تربية سيرك؟ دا إنت تربية قرود.

- عجبتك صح؟

- الواد زمانه بيفكَّر هيدخل عياله مدرسة إيه في العطارين... حرام عليك.

- حرام ليه؟ ما هو فعلاً لو ينفع مش هسيبه وهخليه تحت عيني.

الحاوي مقتربًا منه:

- تكونش ناوي تفتح مؤسسة أو شركة مساهمة بالنشاط بتاعك؟

رافع ضاحكًا:

- لو ينفع شوف سِكة، إنت المحامي مش أنا.

- قانون سنة ٥١ بيسمح بتبادل القطع المكررة تحت إشراف حكومي مبيسمحش بالتجارة. هيييه فين أيام البركة؟ كان في نسبة تخص المستكشفين. الله يرحمك يا حاج زناتي،

كانت أيام عز.

– أهو القانون ده اللي خلَّى للحاجة قيمة. الممنوع مرغوب وأغلى يا متر.

– افرض بقى عمك أبو جبل ولا أبو دهب ده مجاش؟

رافع بثقة:

– تؤ... هييجي. ده شاب وعايز يتجوز.

– افرض يعني... افرض... لو مجاش.

رافع بهدوء:

– هبقى مسحت الجزمة ببلاش يا سيادة المستشار.

ينفجر كلاهما في الضحك، بينما يصفق الحاوي مُحيِّيًا رافع.

صوت المذيعة قادم من الراديو:

– من ألحان كمال الطويل وكلمات صلاح جاهين غنَّانا عبد الحليم حافظ: (إحنا الشعب).

ساعات محطة القطار تشير بوضوح إلى الحادية عشر وخمسين دقيقة. بمنتهى الدقة يتبع نصر حلمه المسائي في طريقه إلى رافع بك الذي وعده أن يرفعه إلى سابع سماء: زواج وأولاد ومهنة أخرى غير مسح أحذية المارة ومكان فوق سطح بناية في منطقة العطارين...

خطوات نصر المتلهفة تحمله في شارع العطارين الهادئ في ذاك الوقت المتأخر من الليل. للتو أنهى وجبة العشاء من طبق

فول وقطع من الجبن التهمهم برهط من الأرغفة لتُقيم ظهره ويُثبت أنه قادر على حمل بضاعة رافع التي لم يتعرف بعد على هويتها. المحال في شارع العطارين مغلقة إلا من بارات العطارين القديمة وبقالة يونانية تبتاع خمر الزبيب خِلسة في هذا الوقت المتأخر. وفي سيارة رافع الفورد السوداء موديل ٦٢ يجلس هو والحاوي بجوار مسجد العطارين تحت عمارة رافع التي اشتراها منذ بضع سنوات. ينظر في المرآه ليرى نصر يقترب من باب المسجد متلفتًا يمينًا ويسارًا بحثًا عن رافع.

الحاوي:

– صاحبك وصل.

– سيبه دقيقة كده وتنزل هتلاقي طنوحي وتمَّام جوه، يساعدهم في المشال لحد العربية النقل ما توصل، نحمِّل الحاجة وأسلمِّك ورق الجمارك وتطلع ع المينا.

– مفيش مشكلة. بس هو طنوحي وتمام هنا؟

– جم مع الحاجة (قهوات) إمبارح، أهو يعملوا بلقمتهم.

– دول من ريحة الحاج الكبير، رجالة خِبرة.

– طيب انزل أمِّن الجو وافرشلي كده فرشة حلوة.

– طيب. لمَّا نشوف أخرتها وميكونش مُخبِر وجاي بحملة.

– عيب عليك، ده منظر مخبر.

الحاوي مغادرًا السيارة:

– ربنا يستر.

يشير الحاوي لنصر الذي يأتي مهرولاً، فيُشير له أن يسير بهدوء، فيتأنى في خطواته حتى يصل إليه...

– سالخير يا باشا.

– مساء النور يا نصر. جاهز يا وحش؟

– أُمال يا باشا جاهز... فين المشال؟

– جوه في العمارة. بس اسمع...

يقف الحاوي مواجهًا لنصر ويرفع عينيه إليه مُشيرًا بسبابته:

– العمارة دي بتاعت رافع بيه، والسُّكان خواجات مبيحبوش الصوت العالي. لو حاجة اتهبدت ولا اتكسرت مش هيحصل كويس. رافع بيه راجل بحبوح وإيده فِرطة آه، بس بيحب الشغل المظبوط.

– ولا تشغل بالك يا باشا، أنا أنقلك السكة الحديد من غير حِس.

– يا ابني أنت ليه مُصِّر تنقل معالم البلد؟ ما تسيب المحطة في حالها.

يسيران إلى مدخل العمارة، بينما يجلس كل من طنوحي وتمَّام، ليقفا عند وصول الحاوي.

الحاوي:

– ياللا يا رجالة، قفِّلوا الصندوق، ونصر هيحمِّل معاكوا ع

العربية.

يسير الجميع خلف الحاوي إلى غرفة تقع بجوار مكتب رافع (غرفة بشير مستقبلاً) ليكون هناك صندوق خشبي ضخم طوله قرابة المترين وعرض تخطى المتر بقليل.

طنوحي:

- روح م اليمَّة التانية يا تمام، وإنت يا أبو خالو ارفع بالهداوة.

يرفع الرجال الصندوق الثقيل للغاية بصعوبة...

نصر:

- دا جواه طوب يا واد عمي.

الحاوي:

- يا سيدي ارفع.

يدخل رافع عليهم:

- الله ينوريا رجالة. بالهداوة كده نوصّل الأمانة من غير صوت عشان الناس اللي نايمه فوق.

نصر:

- لو مساخيط يا رافع بيه يبقى نجيبوم عرقين خشب طوال نحمِّل عليهم ونفتحوا نحاوطوهم بقش بدل ما يتكسروا، حرام يا ابوي دي فلوس ناس.

الحاوي بانزعاج:

- مساخيط إيه يا هِباب البِّرك؟ إنت هتلبِّسنا قضية؟

رافع يضع يده على كتف الحاوي، ويقول بهدوء:

- ليه بتقول كده يا نصر؟

يرفع نصر جُـزءًا من عمامته مُظهرا وشم طائر بجوار أذنه اليسرى:

- أنا داجج عصافيريا باشا، بس مش جِفل.

يبتسم رافع:

- شوفوا طلبات نصريا رجالة، أمان... في عروق خشب في المخزن الوراني.

يذهب تمام وطنوحي بصحبة نصر. بينما يقول الحاوي بتوتر:

- شوفت؟ جالك كلامي؟

- خيريا قلق؟

- وييجي منين الخير؟ جايبلنا واحد عينه مفتحة.

- الواد أنا قاطره من ساعة ما سيبناه، ولا عتِّب برا المحطة ولا كلِّم حد.

- أنا مش مطمن للجدع ده.

- اطمن يا أبو علاء متخافش، أنا تلميذ الزناتي مش عيل من الشارع... الواد حمامة هو اللي دلِّني عليه وقاطره من يومين ومن ساعة ما سيبناه. الواد جديد ومش لاقي اللضا وكان بينقل قبل كده في بلدهم... ولا إنت فاكرإني قولت لك نروح القهوة العالية كده اعتباطي؟

- يخربيت دماغك... وساحبني وراك ولا أنا فاهم حاجة؟

يدخل الرجال بعِرقين من الخشب، نصر بمساعدة الرجال يضع الصندوق فوق العِرقين الخشبيين ليصبح جاهزًا للنقل.

يخرج الحاوي ليجد سيارة نقل موديل نصر إنتاج عام ٦١ حديثة في حينه؛ تقف أمام العمارة، يقودها (مهنا) رجل بكنزة سوداء وبنطال واسع أسود كالليل وطاقية صوف سوداء.

يهم الرجال في حمل الصندوق، نصر يحمل من طرف بينما طنوحي وتمام في الطرف الآخر، كموكب ملكي يسير إلى مثواه الأخير في عتمة الليل دون احتفاء. يرفع نصر الصندوق بسهولة رغم ثقله إلى ظهر السيارة، بينما يعاني تمام وطنوحي لينزل ويساعدهما ويضع الصندوق مستقرًا في وسط السيارة كنعش كبير لجسد يغادر الحياة.

يركب الحاوي السيارة. ويضع رافع الأوراق في يديه قائلاً:

- خد بالك من جدك الأكبر المقدوني.

- ربنا يستر.

- مهنا، يا واش يا واش، الحاجة غالية وتمنها وصل.

مهنا:

- ماتقلقش يا رافع بيه.

ينصرف كل من طنوحي وتمام، ويبقى نصر ورافع...

- الله ينور يا نصر، تعالى ورايا.

يدخلان مكتب رافع، الذي يجلس ويُخرج ورقة بجنيه، لتتسع عينا نصر...

– امسك يا نصر.

نصر مُمسكًا بالجنيه:

– يدوم العز يا باشا، بس فين باقي البضاعة؟

رافع ضاحكًا:

– ولا باقي ولا حاجة، كده خلّصنا. سهلة أهه.

– جنيه بحاله في صندوق؟

– اقعد يا نصر

يجلس نصر وهو شاخص ببصره إلى الجنيه المفرود في يده الضخمة.

– إنت إيه حكايتك بقى؟ وإيه اللي جابك بحري أوي كده... تار؟

– لا يا بيه إحنا ناس في حالنا وملناش في الدم.

– أصل قطعيتك كده وكلامك بيقول إن ليك في الشقاوة.

نصر ضاحكًا:

– لا يا باشا... يكونش قصدك على المساخيط؟

– ايوااا قصدي ع المساخيط.

– لا يا بيه أنا زي ما بيقولوا كده ندهتني النداهة، هجّيت مع اللي هجّوا، مليت من الفقر وقلة الحيلة حدانا. وكل اللي ادّلى

على مصر ولإسكندرية حالهم اتبدّل. ولوع المساخيط حدانا تحت كل بيت من خير ربنا كتير، كنا بنحملوهم ونبعت على اللي يشيل.

- طيب ما إحنا ممكن نخلي الجنيه ده ١٠٠ ولا ١٠٠٠.

- ألف جنيه يا بيه؟

- أُمال ألف مبروك؟... أيوه ألف جني.

- ودول عدم المؤاخذة ييجوا إزاي؟

- من تحت بيتك يا نصر، ولا من تحت بيت حد من حبايبك.

- بس دي ليها ناسها وأنا مليش معاهم سِكة. أنا يدوب على قد المشال.

- ملكش دعوة، اوصل أنت بس هناك واطقس وأنا أفتح لك سكة.

- أنا تحت أمرك يا رافع بيه.

يُخرج رافع مفتاحًا من مكتبه يلقيه في يد نصر المنتشرة في الغرفة:

- امسك يا نصر، دا مفتاح أوضة حلوة فوق السطوح، مكركبة شوية بس تساعك إنت وعيالك يوم ما تنوي تتجوز.

- ده كتير يا بيه.

- أنا عارف إنه كتير، بس إنت هتدفع إيجارها من عرق جبينك،

أنا بحب رجالتي يبقوا حواليا وبحب يصرفوا من عرقهم، مبشغلش معايا عوالة. وإنت راجل تمام يا نصر.

- يدوم عزك يا رافع بيه، وربنا.....

يقطع حديثه طرق على الباب... تدخل علية:

- اِلحق يا بابا، مصطفى تعب تاني وبيرفَّس وماما مش عارفة تتصرف.

ينتفض رافع من على كرسيه مهرولاً:

- امشي إنت دلوقتي يا نصر وبكرة هقابلك هنا أفهمك هتعمل إيه.

- لا ألف سلامة يا رافع بيه، هتلاقيني جنبك أي وقت.

يطوي رافع السلم تحت أقدامه مُسرعًا حتى يدخل الشقة، فيجد مصطفى الصغير مُلقى على الأرض، وأمه آسمين مستلقية فوق جسده المنتفض... تستنجد برفع:

- الحقني يا رافع الواد بيروح مننا تاني.

يحاول أن يوقظ مصطفى من نوبته العنيفة، وأن يقلِّل من ضغط فكه على لسانه الدامي الذي يعتصره بقوة، بينما الصغير جسده يقاوم ترحال روحه التي رحلت إلى هناك من جديد.

••••

في حديقة قصر في مدينة بيلا

عام ٣٢٠ ق. م.

يقف (الإسكندر) ذو الستة عشر عامًا شبه عارٍ أمام المثَّال (ليسيبوس) الذي يبدو منهمكًا في رسم تفاصيل الملك الصغير قصير القامة ومحاولاً إبراز مفاتن ذكورته، فيضع منسوبًا مُغايرًا ليزيد في قامة الأمير الصغير...

الإسكندر:

- هل رأسي أصغر مما يجب أن تكون يا ليسيبوس؟
- لنجعل التمثال متناسقًا ويُبرز هيبتكم يا سيدي.
- إطراء غير مقبول.
- العفو يا مولاي.
- هل تعني أن قِصر القامة قد يقلِّل من الهيبة؟
- قطعًا لم أكن أقصد هذا. ولكن الفن يعكس الروح وانطباعاتها.

الإسكندر مبتسمًا:

- هنا يكون الإطراء مقبولاً.
- ليس إطراءً بقدر ما هو إيمان بما أقدِّمه.

الإسكندر يمل الوقوف، فيتحرك:

- هل عليَّ الوقوف لمزيد من الوقت؟
- كلا يا سيدي، فملامحك القوية محفورة في ذاكرتي. كنتُ

فقط استلهم وضع الوقوف وأنا جاهز للعمل في التمثال.

- أنا أثق فيك أيها النَّحات العظيم.

- ثقتك شرف أتمناه دومًا.

- اِحرص على تماثيلي أيها النَّحات، أحسبُها ستكون يومًا ما إرثًا لأهل أثينا.

- بل إرث للبشرية كلها.

- فاحرص عليه إذًا. سيخلّد اسمك إذا ما خلَّد التاريخ اسمي يومًا ما.

- قطعًا سأفعل.

••••

رافع يلطم مصطفى بقوة، والصورة في عيني مصطفى تبدو مشوشة، مشاهد متداخلة، يتمتم:

- اللوحة يا بابا... عشان التمثال.

- تمثال إيه يا ابني؟؟؟ إنت كويس؟؟؟

مصطفى بإرهاق شديد:

- آه كويس... التمثال يا بابا.

- يا ابني مفيش تماثيل، إنت كنت بتحلم.

يضم رافع ابنه إلى صدره بقوة، بينما آسمين تبكي، ومن الخلف قهوات تقول:

- ولدك ربنا منور بصيرته يا رافع يا ولدي. ربنا يزيح عنه.

لا يكترث رافع لحديثها، ويُبقي مصطفى المنهك في حضنه، بينما تمسح آسمين على رأسه وهي تقرأ القرآن بصوت خافت.

(١٦)

العمـود

الإسكندرية – منطقة الشاطبي

شتاء عام ١٩٧٩

سرادق ضخم يقف قاطعًا جزء كبير من شارع (سوتر) أمامه لافتة مكتوبٌ عليها: عزاء المغفور له الشهيد الأستاذ: الحاوي المحامي.

يمتلأ السرادق عن بَكرة أبيه مما أعاق حركة المرور. صفوف من السيارات الفارهة تقف موازية للرصيف تحمل ملاكي الإسكندرية والقاهرة والجيزة وباقي المحافظات، شخصيات عامة وبارزة وصفوة المجتمع من رجال السياسة والمال، صحفيون وتغطية إعلامية.

يقف في استقبال المعزين علاء في المقدمة وبعض من الأقارب وفي نهاية الصف يقف مصطفى المشغول بحال والده الذي انطوى وجلس بعيدًا في أخر السرادق إلى جوار المقرئ الشيخ محمد عمران الذي ملأ صوت قراءته الميكروفون الذي أمامه وملأ المكان بصوته الشجي.

ظهر علاء منمَّقًا إلى حد كبير رغم يديه المرتجفتين، وعيون الحاضرين تملؤها الدهشة وعلامات استفهام من أسئلة لا يجدون لها إجابات حول مقتل الضحية. بينما في أخر السرادق وعلى غير العادة يجلس رافع برابطة عنق مفكوكة غير مُحتفي بمن بادر بمواساته وتحيته... فقدانه زوجته منذ فترة قصيرة ومقتل صديق عمره؛ كانا بمثابة ناقوس خطر أن الرحلة قد أوشكت على الانتهاء وأن ملك الموت قد بدأ في حصاد بني جيله وأن ساعة الرحيل قد دنت.

كان الشيخ محمد عمران يقرأ، ورافع يسمع وكأنه يسمع لأول مرة، يتمايل برأسه ويغمض عينيه مع عذوبة الصوت وإحكام الصورة. بينما في الصف الأول يقف مصطفى موزِّعًا نظرات الشفقة بين علاء وأبيه، فهو لا يملك في معجمه تلك الكلمات التي قد تهوِّن عليهما، ولكنه يعرف تمامًا مدى الألم الذي يعتصرهما الآن.

يدخل ضابط برتبة عميد يسلِّم على من يقف في استقبال العزاء، ثم يطلب من علاء أن ينفرد به، ليستجيب علاء له ويقفا بمكان يمكنه فيه سماعه بوضوح...

– طبعًا البقية في حياتك يا علاء بيه، بس أستاذنك رُبع كمان وسيادة المحافظ رِكابه هيتحرك. بعدها أرجوك يا ريت نقفل الشادر لأن الموضوع مأثر على حركة المرور بشكل كبير.

– مفهوم يا باشا. شاكر جدًا لمجهوداتكم وتعبكم معانا على مدار اليوم.

– ده شغلنا يا علاء بيه. والوالد شخصية عامة وحبايبه كتير... البقية في حياتك مرة تانية، وشكرًا لتفهمك الموقف... وأوعدك خلال أيام هيكون اللي عمل كده تحت أيدينا وبيتحاسب، الداخلية مش ساكته والإدارة المختصة في البحث الجنائي فاتحين خط ٢٤ ساعة مع مكتب الوزير مباشرةً.

– شاكر فضلك يا فندم... اتفضل... اتفضل.

يشير علاء للشيخ بإصبعه (رُبع واحد فقط).

ينهي الشيخ عمران القراءة، ويخرج الناس كأفواج من السرادق، ليخلو المكان إلا من العاملين الذين شرعوا في جمع أغراضهم، ومصطفى يجلس بجوار علاء بينما يجلس رافع بعيدًا في كرسيه شاخص البصر في حالة شجن ووجوم.

مصطفى:

– مش عارف أقولك إيه يا علاء.

– متقولش يا درش كتر خيرك... نزِّلناك على ملا وشك ولخبطنالك الدنيا.

– متقولش كده، أبوك دا أبويا.

– ربنا يديم المعروف يا حبيبي ويبارك في عمر عم رافع.

ينظر كلاهما إلى حال رافع، فيقول علاء:

– روحله يا مصطفى. شكله تعبان، خده وروَّح.

– هخلي عطية يروّحه وأنا هفضل معاك.

– صدقني مفيش داعي، أنا لازم أرجع المكتب. خليك إنت معاه.

يقوم مصطفى ليعانقه، ثم يتجه إلى والده الشارد تمامًا.

يسمح بعض معاوني علاء بدخول بعض الصحفيين، ليبدأ واحد منهم سائلاً:

– فيه جديد في القضية يا أستاذ علاء؟

– السيد مدير الأمن شخصيًا مهتم بالحادثة، وجاري التحقيق.

صحفي آخر:

– هل كان للوالد عداوات تصل لحد القتل؟

– الوالد كان رجل قانون يعني كل أعداء العدل وأعداء الاستقرار كانوا في خصومة معاه.

صحفي ثالث:

– فيه رسالة تحب توجِّهها للناس؟

– أحب أقول إن والدي شهيد مهنته، وإن خصومته في تحقيق العدل دفع حياته تمنها، وإننا كمحامين ارتدينا سواد معاطفنا أمام ساحات القضاء لأننا حملنا أوزار موكلينا وهمومهم، ودي هتفضل دايمًا رسالتنا مهما كلفنا الأمر. وأحب أطمن كل الناس أن جيش الحاوي قائم واقف على رجله ومستمرين في العمل

في كل القضايا، لأن العدل مبيقفش عند اسم أو عند شهيد.

يصل مصطفى إلى رافع المنهك الروح والجسد:

- بابا... يا بابا... إنت سامعني؟

- آه سامعك... خلاص كده؟

- آه خلاص، يلا بينا 'نت تعبت من أول النهار ومنمتش من إمبارح.

- يلا نمشي يا ابني... ما هو كله ماشي.

يقف رافع بصعوبة يتكئ على ذراع مصطفى وهو يتمتم بكلام غير مفهوم.

ينظر مصطفى إلى أبيه باندهاش من أنت؟؟!! في ليلة وضحاها سقطت عباءة الجبروت والقوة من على كتفيك يا رافع.

خطوات رافع هادئة على غير العادة، ليس في عجلة من أمره كما اعتاد. يطالع خطواته بعينيه؛ تلك العينان اللتان لم تنظرا إلى الأرض من قبل، وكأنهما تتأملان الأرض للمرة الأولى بتلك الخطوات البطيئة.

يصلا إلى سيارته المرسيدس. يفتح لهما عطية السائق الباب، ويجلس كلاهما في الكنبة الخلفية.

رافع:

- اطلع على الحاجة يا عطية.

عطية ينظر في المرآة:

- على فين يا حاج؟

- على الحاجة آسمين يا عطية.

مصطفى:

- دلوقتي يا بابا؟ خلينا الصبح.

رافع:

- اسمع الكلام يا عطية.

ينظر عطية في عين مصطفى الذي يومئ له بالموافقة، فيسير في طريقه إلى مقابر عامود السواري، أو كما يسميها أهل الإسكندرية (العمود). الطريق ليلاً موحش بعض الشيء، فهناك بجوار مسجد العمري وزارية العارف سيدي أبي الدرداء دفن السكندريون موتاهم إلى جوار عمود رخامي يوناني الطراز سُمِّي عمود السواري... متضاربة الأقاويل حوله، يبدو غامضًا كتلك الرحلة إلى العالم الآخر، تاريخ مفقود يقف فوق الأرض ومستقبل غير معلوم قابع تحت الأرض... نيران وجنان وعالم سفلي و(هاديس) إله العالم السُّفلي في حِقب زمنية مضت؛ يقف بكلبه الشرس ذي الثلاثة رؤوس يمنع العالَمين أن يتواصلا... وعامود رخامي يقف من الماضي المجهول في خليط غريب، فالماضي المجهول يقف شامخًا فوق الأرض والمستقبل غير المعلوم قابع تحتها.

رحلة الموت تشبه المكان ليلاً... أكاد أجزم أن الإسكندرية ذاتها تخاف الليل في منطقة العمود، وإن كانت لا تخشى الموت.

تصل السيارة، فينزل عطية خلف السور مناديًا على (الحاج علي) المسؤول عن المدفن الخاص بهم، والذي يعيش هو وأسرته في قلب الموت نفسه.

وبعد العديد من النداءات؛ يخرج علي ويقف خلف إحدى البوابات الحديدية لمدخل المقابر العام، مُطلاً برأسه من بين حديد البوابات...

- عطية؟؟... خيريا عطية؟

- الحاج رافع ومصطفى بيه معايا، وعايزين يدخلوا.

- دلوقتي؟؟!!

- أيوه، افتح. خمس دقايق وهيطلعوا.

- بس أصله الوقت.....

عطية مُقاطِعًا:

- يا جدع افتح ماتطولش في الكلام، بأقولك رافع بيه ومصطفى بيه، وأني هنراضيك.

يفتح علي البوابات. ويخرج رافع بصعوبة من السيارة بمساعدة مصطفى. يدخلان سيرًا من بوابات المقابر وعلي يسير أمامهما يحمل مصباحًا زيتيًا (كلوب) ذا ضوء أزرق صاخب يرمي ظلال السائرين من خلفه أمامهم ويمر ليقطع صمت ظلام شواهد

القبور التي حملت أسماءً وتواريخَ لمن أنهوا رحلتهم وتتمنى لهم السلام في مراقدهم بآيات قرآنية.

يضع علي الكشاف فوق شاهد قبر آسمين الذي كُتِب على رخامة مثبَّتة في أحد جوانبه اسمها وتاريخ وفاتها. يشرع مصطفى في ضم كفيه ليقرأ الفاتحة، بينما يقترب رافع من الشاهد يضع يمينه عليه:

– مارضتش أروّح قبل ما أعدِّي عليكي، جايلك ضيف يا حاجة. الحاوي مشي من عندي وجايلك، يمكن ميجيش النهاردة، ولا بُكرة، أصل عنده حاجات وحسابات يصفيها قبل ما يوصلك. بس مش هيتأخر، إن شاء الله مش هيتأخر.

ينظر لمصطفى:

– مش هيتأخر يا درش صح؟ عمك الحاوي هيوصل ومش هيتأخر؟

– وَحِد الله يا بابا، ربنا رحمته واسعة.

يعود رافع للحديث مع شاهد آسمين:

– أنا كمان يا حاجة شوية وجاي. أخلّص اللي فاضل وآجي أريّح جنبك هنا، أمدِّد رِجلي وافرد ضهري، سكة طويلة أوي يا آسمين ومعُدتش عايز أكمِّل لوحدي.

يقاطعه مصطفى:

– بابا من فضلك، إنت كده بتتعب نفسك. ياللا بينا لو سمحت.

- حاضر يا ابني هنمشي... بس أسلِّم ع الحاوي عشان مايباتش زعلان.

- يا بابا، مفيش داعي. نيجي بُكرة في النهار.

- وإنت هتعرف الحاوي أكتر مني؟ مينامش إلا لمَّا نتقابل. ولو مسافر أخر الدنيا يضرب لي تليفون. عاوزني أسيبه ينام أول ليلة من غير ما أشقّر عليه؟ الوِّد حلو يا مصطفى.

- طيب أجيب الكلوب وآجي معاك أنوَّر لك؟

- خليك إنت جنب أمك، أنا شوية وراجع لك. ولا تخاف؟

- لا مش خوف، بس مش عايزك تروح لوحدك.

- لا خليك وخلِّي الكلوب معاك، أنا عارف طريقي.

- حاضر يا بابا. بس متتأخرش، أنا منتظرك.

يسير رافع مُبتعدًا إلى مقبرة الحاوي التي استقبلته منذ ساعات. يقف أمام الشاهد في عتمة الليل، ورائحة الموت يمكن أن تمسكها بيديك. يجلس مُتكئًا بظهره على الشاهد وهو يمسك ببعض التراب؛ ينثره من حوله...

- شوفت يا حاوي؟... بقى ضهري للحيطة. قولت لك بلاش تقف في وشها، وإن مهما كبرنا إحنا مش قدها. أهي خدت منك كل حاجة وخدتك مني... وأنا إيدي متكتفة؛ ولا هاقدر أجيب حقك ولا حتى قادر أقيم ضهري... ربنا يهوِّنها عليك ويعدِّي ليلتك على خير... هيجولك يسألوك يا حاوي، جاوب

متخافش، قولهم يا حاوي، قولهم يا اخويا إننا حجينا وزورنا بيت ربنا وصلينا عند الحبيب المصطفى، قولهم إنك عامل دار أيتام في السر بتصرف عليه عشان إنت كنت يتيم زيهم وعارف وجعهم. قولهم إننا يُتمى يا حاوي، قولهم إن سكتنا ماكانش فيها دم وإنه اتفرض علينا، وقولهم إننا اتأذينا ودفعنا التمن... متخافش منهم يا حاوي، دول تبع اللي خلقك وخلقني وخلقهم، وهو ميرضيهوش عذابك.

ينفجر رافع في البكاء:

– دا إنت مش هاين عليا بعمايلك يا ابن الكلب؛ يبقي هتهون عليه؟ إزاي وروحك من روحه ولو نفسك فسدت.

ينخرط في بكاء مرير، ثم يسهب:

– أنا قولت لآسمين إنك هتخلّص وهتروحلها... وأنا هجيلكم مش هعرف أقعد لوحدي... البت راحت مع رجب والدنيا واخداها وبقت شبه جوزها. والواد متغرَّب من يومه وكأن فرشته هنا فيها شوك... وأنا مش هسيبك يا حاوي زي ما أنت خِليت بيا، هأدبح وأطلّع للغلابة صدقات باسمك، يمكن تهوِّن عليك اللي إنت فيه.

يدخل مصطفى حاملاً الكلوب ويرمي بظلاله على شاهد الحاوي...

– إيه اللي مقعدك على الأرض كده يا بابا؟

ينهض رافع بصعوبة...

- كنت بسلِّم على عمك يا مصطفى، ربنا اللي عالم بيه لوحده من الصُّبح والأسئلة كتير وحِجج ابن آدم قليلة يا ابني. وملناش عُذر هناك، وقت وصحة وسُلطة وعنين متغمية، وإحنا كنا بنجري... زمانه بيترافع عن نفسه، بس ولا هيعرف يلاوع ولا يا حبيبي هيعرف يبقى الحاوي، هناك الدليل مبيخفاش والعمل واضح... ربنا يستر يا ابني، ربنا يستر.

يسيران في طريق العودة، ومصطفى يساعد والده وينفض التراب الذي غطَّى ملابسه... يمران في طريق العودة بجوار قبر آسمين مرة أخرى، فينظر إليه رافع:

- تصبحي على خير يا بركة، هجيلك بُكرة تاني يا ست الكل.

ثم يتوجه لمصطفى:

- لمَّا آجي يا درش متبقاش تسبني، تعالى طُل عليا وإنت بتزور أمك. واللي يبقالك مني يا ابني ابقى دور وراه عشان متأذيش أبوك يا مصطفى... ابقى دور وافهم، واللي ماقدرتش أنا أعمله؛ ابقى كمِّله إنت يا ابني... معلش هوجع دماغك.

- ربنا يديك الصحة وطولة العمر.

- طال بقى ولا قصر، كنا فاكرين إننا بنضحك ع العالم أتاري إحنا اللي مضحوك علينا.

يستقلان السيارة التي تتحرك وتترك وراءها سور المدافن الذي

يلاحقانه بأعينهما، فيما الصمت يُخيِّم على السيارة، فلحظات الفراق يتبعها صمتٌ له طنين في الأذن لا يحتاج إلى نايات حزينة أو اجتهاد من مقامات (الصبا) الموسيقية، فالروح عند الفراق قادرة على استجماع شجونها.

••••

صباح اليوم التالي تدخل علية غرفة مصطفى مهرولة تحاول أن توقظه:

– مصطفى، اصحى يا مصطفى.

– خير يا علية؟

– أبوك يا مصطفى...

ينتفض من فراشه:

– ماله بابا؟

– خرج يصلي الفجر ولسه مرجعش، والساعة داخلة على ٩.

– ما يمكن طلع ع الشغل يا علية، قلقانة ليه؟

– شغل إيه يا مصطفى؟ أبوك مش في حالته وخارج بالبيجامة وروب وشبشب.

ينتفض مصطفى ويضع كنزة ويرتدي بنطاله الجينز في عُجالة:

- الفجر مخلَّص من إمتى؟

- من أكتر من ٣ ساعات.

- ولسه فاكرة يا علية؟

- ما هو رجب مقالش غير دلوقتي.

- وهو فين سي زفت؟... يا رجب يا رجب.

رجب يدخل مهرولاً:

- كويس إنك صحيت يا مصطفى.

- عمك فين يا رجب؟

- نزلنا نصلِّي سوا بس هو راح جامع العطارين وأنا مبصليش في جوامع فيها مقامات أو قبور عشان.....

- إنت هتشرح لي فِقه دلوقتي؟... وإنت رُحت فين؟

- أنا رُحت صليت مع الأخوة في شارع صلاح الدين، بيبقي فيه درس، بس لما رُحت ملقتهوش.

مصطفى يهرول على السلم ويتبعه رجب وهو يقول:

- والله دخلت جامع العطارين عشان خاطركم بس وسألت قالولي خلَّص صلاة ومشي بعدها. فقولت لعلية تصحيك.

مصطفى هامسًا:

- تاخد بعضك وتروح تشوف علاء بسُرعة عشان هو هيعرف يتصرف في الأقسام والمستشفيات، وخليك حسيس معاه

الراجل لسه دافن أبوه إمبارح.

علية من ردهة السلم:

– طمِّني يا مصطفى متنسنيش.

ينظر لها من خلال السلم مصطنعًا الابتسامة ومحاولاً تخفيف التوتر:

– متخافيش يا لولو أنا عارف هو فين، هأجيبه وآجي نفطر سوا.

رجب:

– طيب وعلاء لزمته إيه ما دام إنت عارف؟

مصطفى بصوت خافت وهو يخرج من باب العمارة:

– عشان علية متقعدش قلقانة يا لوح التلج إنت.

يهم رضا في مسح سيارة مصطفى الذي يطلب منه الابتعاد ويقفز في سيارته متوجهًا إلى المقابر، التي يصلها في نصف الوقت... يدخلها مهرولاً بين بعض العائلات التي جاءت باكرًا تزور أهل المقابر. يتوجه إلى قبر أمه، لكنه لا يجد أباه هناك، فيهرول إلى قبر الحاوي، فيجد علي يحفر قبرًا مجاورًا له ويقف في منتصفه بمعول ومرهق من الحفر...

– أبويا مجاش يا عم علي؟

يرفع علي بصره إلى مصطفى...

– صباح الخير يا مصطفى بيه. الحاج كان هنا من ساعة، جه وفطر معانا ووزَّع الغلابة، وبعدين مِشي.

- مشي إمتى؟

علي مُفكِّرًا:

- من ساعة، ويمكن أكتر.

- متعرفش راح على فين؟

- كان شكله مش مركِّز، بس قال طالع على جامع الميرغني عند الشيخ عيد.

- وفين ده يا عم علي؟

- رايح مشي ولا بالعربية؟

- بالعربية يا عم علي، اخلص.

- صلِّي بينا حضرة النبي.

- عليه الصلاة والسلام... ها فين؟

- تنك ماشي بالعربيي في شارع الخديوي ع الترام كإنك رايح محطة مصر لحد ما تلاقى شارع الإمام مالك ع الشمال بعد شارع جامع العطارين، ادخل بالصلاة ع النبي يمين في شارع اسمه الشيخ سلامة حجازي، اركن ع الإمّة هناك واتمشى خطوتين عشان عربيتك مش هتخش سوق الخضار... هتلاقيه على إيدك الشمال.

ينصرف مصطفى مُسرعًا مُتتبعًا وصف علي، حتى يصل إلى المسجد، ويفتح أبوابه الموصدة دون إحكام، فيكفي فقط

أن تدفعه بكفيك بهدوء كي يفتح، لتدخل إلى المسجد ذي البهو المكشوف للسماء والذي يُسمى صحن المسجد، فقط ارفع رأسك لتشاهد السماء دون سقف مزركش، والأرض مفروشة بحصير اُبتلي بذنوب العباد وماء وضوئهم، وسمع همس المحتاجين والمُذنبين، فحصير المساجد دومًا ما يعرف ما تهمس به القلوب... وغُرف على اليمين واليسار تخص أهل الصوفية من الطريقة الميرغنية يُقام فيها الذكر والخلوات للعابدين.

تطوف عينا مصطفى المسجد الخالي... وأخيرًا يجد رافع جالسًا خلف أحد الأعمدة بوجهٍ أكثر صفاءً من ذي قبل، يرتدي بيجامته الشتوية الكاستور الخضراء، فوقها روب رصاصي من الصوف...

- بابا إنت كويس؟

ينظر رافع مبتسمًا:

- يا سلاااام، درش، تعالى يا حبيبي اقعد.

يجلس مصطفى وهو يلاحق أنفاسه...

- إيه اللي أخرَّك كده؟

- أخرّني على إيه يا ابني؟ هو أنا ورايا إيه؟

- علينا يا بابا... أنا وعلية قلقنا عليك جدًا.

- قلقتوا ليه يا ابني؟ ما أنا طول عمري بخرج وبتأخر وببات برة

بالأيام، إشمعنى المرة دي؟

- أيوه يا بابا كنت بتبقى في شغل، لكن إنت خارج بالبيجاما والروب.

رافع ضاحكًا:

- وإنت قلقان ع البيجامة يا درش؟؟؟ ولا خايف على المنظر العام؟؟ولا تكونش خايف يكون مُخي خف؟

- العفو يا بابا، إحنا بس قلقنا، أصلها مش عوايدك.

- اسمع يا ابني، وعد مني إني ولا هأذي نفسي ولا إنت ولا أُختك ولا أي حد، بس بلاش أحس بقلق من غير داعي، عشان دي حاجة بتزعلني.

يقاطع كلامهما ظل رجل يخرج من إحدى غرف الخلوات المحيطة بصحن المسجد، رجل أسمر طويل ونحيف يرتدي ثوبًا صوفيًّا بسيطًا، يحمل سبحة خشبية، كحيل العين، ذو ابتسامة تكشف عن أسنان بيضاء، طلته مُحببة للقلب ومقنعة للروح... يقف رافع عندما يراه، وبالتبعية مصطفى...

- لامؤاخذة يا شيخ (بهيّ) قطعنا خلوتك... أعرَّفك بـ....

يمد بهي يده:

- مصطفى... عارفه طبعًا.

يسلم مصطفى عليه:

- أنا آسف يا شيخ، بس بقالي فترة بعيد عن مصر وبقالي

كتير.....

يبتسم بهي مُقاطعًا ارتباك مصطفى:

- بهي الدين، اسمي عمك بهي الدين، وإنت هتفتكرني إزاي يا ابني؟ ستك قهوات كانت بتجيبك ابن سنة وسنتين أرقيك ونعمل لك خاتمة... يا جمال ختماتك يا درش، كانت تعدي على القلوب شِفا يا ابني، ومن بعدها أمك الله ينوّر قبرها كانت تجيبك غرقان في عَرَقك، كنت تاعبهم. بس تيجي تطيب هنا وتطيب قلوبنا معاك... بس ما شاء الله شايفك راجل زي الفل ربنا مَنّ عليك بكرمه. ربنا ينوّر بصيرتك ويهديك ويتم شفا صدرك على خير.

يبتسم مصطفى... فيما رافع يقول:

- آمين يا رب... كان ليا طلب يا شيخ بهي...

بهي موجهًا حديثه لرافع:

- روَّح مع ابنك يا حاج، وتعالى بين المغرب والعشا اِحضر الحضرة نذكر المولى ونصلي العشا ونتكلم.

رافع:

- أصل الموضوع.....

- عارف، بس يستنى يا رافع. طمِّن بنتك وتعالى بالليل.

يندهش مصطفى ويظن أن الشيخ قد سمع شيئًا من الحديث...

يسلِّم كلٌ من رافع ومصطفى على الشيخ بهي الذي يقف مراقبًا خروجهما من المسجد. ثم ينادي على مصطفى قبل خروجه:

- مينفعش تعدَّي من جنب قبر أمك وإنت بتجري من غير ما تسلَّم ولا تقرأ لها...

ويكمل مبتسمًا:

- ابقى هدِّي جنب الحبايب يا حبيبي وبِل ريقهم بدعوة حلوة من نفسك الطاهرة، وسلِّم، سلامك سلام يا ابني.

يخرج مصطفى وهو مندهش من قول الشيخ البهي الاسم والطلة، ويضع مئات من المبررات الخاضعة لقوانين المعرفة التقليدية كالفطنة والاستنتاج: قد يكون استنتج أنه ذهب للمقابر، وقد يكون تحدث مع أبي... أيًّا ما كان، لكن قطعًا هناك تفسير يخضع للمنطق والعِلم...

هكذا تدرب عقل مصطفى علي التفكير.

يخرج مصطفى ورافع من بوابة المسجد الخشبية الشاهقة ذات النقوش والعبارات الصوفية التي تمس العارفين ويفهمها من كشف لهم من الروح وتجلياتها تلك النقوش التي لم يلحظها مصطفى عند دخوله، ولكنه لاحظها فقط عند الخروج... عند الخروج دومًا نرى الأبواب بوضوح.

(١٧)

بهي... الذنب هدية الرَّب

الإسكندرية

بعد العودة بأيام

يقف مصطفى أمام باب مسجد الميرغني بعد أن تركته زينة بعد نزهة طويلة طافا فيها أركان العطارين كحُجَّاج يلتمسون عبق الماضي وبركاته، ويختلسون من المستقبل لحظات ليصنعوا بها حاضرًا يرضونه. يسري الحب في قلب مصطفى بفعل ابتسامات زينة، ويملأ الحنين قلبه بفعل غياب رافع، وشوق غير مفهوم لرؤية الشيخ بهي الطلة والاسم.

يقف أمام بوابة المسجد المفتوحة والمكتوب عليها إن النور حجاب النوروإن رحمة الله سبقت عذابه وباب المغفرة أوسع من أبواب التوبة.

تسبق يمينه يُسراه ليدخل المسجد الذي تشدو أركانه بصوت الذكرفي حلقات المتصوفين الهائمين بأرواحهم، عيون مسبلة دامعة ورؤوس تتمايل مع الذكر. عينا مصطفى تبحثان بين

الغرف حتى تجد الشيخ بهي. لم يشب كثيرًا منذ أخر مرة قد رآه فيها، نفس البهاء، ورائحة الطيب تنساب منه كقارورة مسك عتيق. يقترب مصطفى منه ويجثو إلى جواره، والشيخ منهمك في تسبيحه مغمض العينين...

- السلام عليكم يا شيخ بهي.

بهي بحرارة:

- وعليكم السلام. أهلاااان يا درش.

يعانقه بحرارة ويطبطب على ظهره.

- واحشني يا مولانا.

- وإنت كمان يا مصطفى.

- لقيت نفسي قريب؛ قولت لازم آجي أسلِّم عليك.

- إنت طول عمرك قريب، مهما سافرت إنت طول عمرك قريب. والقلوب العمرانة مسلِّمة يا ابني.

- جايلك في استشارة يا مولانا.

- ربنا يهدينا للصواب يا ابني.

مصطفى بتردد:

- إنت عارف إن الحاج اتوفى من شهور، واليومين دول بعدي بظروف ملخبطاني ووو....

- افتح قلبك واتكلم منه متخليش لسانك يحوش اللي جواك.

- وحاجات كتير بتحصل مش لاقى ليها تفسير. وإنت كنت قريب من أبويا في أخر أيامه... قولت يمكن موصيك بحاجة.

- هو مش جالك في المنام بيذكر؟

مصطفى والقشعريرة تسري في جسده:

- أبويا؟؟ جالي آه وكان بيذكر ربنا زي ما سيبته قبل ما أسافر أخر مرة، بس مفهمتش الحلم.

- طيب احكي يمكن نفهم.

مصطفى مبتسمًا:

- إنت مش عارف؟

بهي يبادله الابتسام:

- لا طبعًا مش عارف، يمكن أشوف، لكن أعرف لا... إنت اللي تعرف.

- جالي بيذكر وطلَّع سلاحه ونشِّن عليا، فصاب صاحبه الحاوي اللي مات قبله وأنا فضلت حي.

- مممم. وإنت خايف من اللي شوفته؟

- خايف ومش فاهم.

- خايف تموت؟

- مظنش الموت خوِّفني قبل كده، يمكن اتمنيته في لحظات كتير.

- يـأس ؟

- يمكن... ويمكن تعب.

- ويمكن خايف على أبوك.

- ده أكيد

- من مين يا مصطفى ؟

يشير بهي إلى السماء ويكمل:

- أبوك عنده، وهو مفيش أحن منه.

- يمكن من وِرثه، يمكن من عمله، يمكن مكانش جاهز أو عليه دين.

- وِرثه ليك ولأختك وللمستحقين من بعد وصية يُوصي بها أو دين، وعمله له أو عليه... متخلطش الأوراق يا مصطفى، لو تعرف صاحب حق روحله واسترضيه، إنما لو تقصد ذنوبه؛ فإنت كده خايف على أخرته وملناش غير ندعيله ربنا يتقبله ويغفر لنا وله.

- مش عارف من حقي أخاف، ولا ده شيء ميخصنيش.

- لا يا ابني ده بر لوالدك، بر مفيهش طمع، حُب صافي.

يكمل بهي مبتسمًا:

- حُب زي اللي مالي قلبك دلوقتي ومنوروشك.

- طيب عندك تفسير للرؤيا ؟

- أعرف ظروفك وأفهم، يمكن ربنا يمن علينا بنعمة العلم والتأويل، الرؤيا دومًا تخص الرائي وتخص حاله، وقلوب العباد أحوال.

- ما هو حالي ده يا شيخ بهي اللي ملخبطني. حاجات حوليا بتحصل اليومين دول وبتحصل من زمان؛ بتقول كأني كنت عايش قبل كده وأن روحي متعلقة بتدوّر على خلاص.

بهي يصمت ويأخذ بلحيته مستمعًا بإمعان، فيما يسهب مصطفى:

- ومش عارف إيه علاقة ده بالحلم بأبويا. دوشة كده ولخبطة وحاسس إن أبويا عليه ذنب، أو يمكن أنا اللي المقصود... مبقتش فاهم يا شيخ بهي.

يصمت بهي لحظات، قبل أن يقول:

- يمكن عقلك شايف إن رافع حاول يخلصك أو يفيدك وجت في صديق عمره وظِله في الأرض الحاوي.

يفكر مصطفى في كلام بهي الذي يسهب:

- الذنب يا ابني سُنة الله في عباده... الذنب هدية الرَّب.

مصطفى متعجبًا:

- إزاي يعني الذنب هدية الرب؟

بهي مبتسمًا:

- كل الذنوب يا ابني بترضي النفس بضعفها وغرائزها... مش

لما تبتلى بذنب بتشعر بنشوة ولذة الشهوة؟

- ساعات. لا في الغالب، الذنب بيبقى شهوة بتحاول تحققها.

- تمام تمام... ولمَّا روحك تتخانق مع نفسك وهي بتحارب بلاء الذنب ويأذن المولى تنتصر روحك؛ ولو لمرات قليلة، مش تبقى فضيلة وأعلى أحوال الجهاد؟

- أكيد.

- ولمَّا تجليات الروح تستشعر فيها قبول رب الروح للتوبة؛ مش تبقى رحمة ونعمة؟

مصطفى مبتسمًا:

- مظبوط يا شيخ بهي.

- يبقى الذنب اقترافه لذة ومحاربته فضيلة والخلاص منه رحمة، يبقى فين المشكلة؟ شايف الذنب وحش فين؟

- تبقى المشكلة لو الذنب وقف عند أول مرحلة بس... هنا المشكلة.

- الله ينور عليك يا ابني.

مصطفى مبتسمًا:

- وعليك يا مولانا.

- معنديش تفسير لحال روحك وإحساسك بيها كونها معلقة زي ما بتقول، بس حال والدك الله يرحمه في أخر أيامه

مشفتش منه إلا الخير.

يعتدل الشيخ بهي في جلسته متحمسًا في الحديث:

– كان عندنا مُنشد اسمه الشيخ عيد كان حبيب أبوك، كان يقول وأبوك يطير معاه، يوصل ويعدي عمك الشيخ عيد ويعديني، يوصل لحتة منطولهاش... ينكشف له يا ابني. والناس تقول اتجذب... غلابه مش شايفين اللي شايفه. كان عمك الشيخ عيد يقف في الأوضة اللي في الوش دي، وفي وسط الوِّرد ييجي عند بيت بيقول...

يصمت بهي برهة ويُنشد:

(تناديكم روحي ويشتاقكم وجدي
تهفو لكم نفسي ويحلو بكم وِردي)

وأبوك ما يمسكش دموعه، يبكي لمَّا يحنِّن قلوب الذاكرين فيبكوا معاه... ويا جماله لما كان عمك عيد يقول:

(أيها الساقي اسقنيها
وامزجن الوصل فيها
يا بروحي أشتريها
فهي إيناسي مع الله)

كنت تشوف وشه ماليه ضحكة متكدِّبهاش عين ولا قلب، ضحكة يا ابني تسري السرور في نفوس الناس.

مصطفى مبتسمًا:

– ربنا يريّح قلبك يا شيخ بهي.

– إنت بقى يا حبيب عمك... مالك؟

– مش عارف يا شيخ بهي، يمكن مرضي مأثر على نفسيتي، وشواهد بتقول إن روحي سارية من زمان بتنط من زمن لزمن، ويمكن زي ما إنت قولت أبويا كان بيحاول يساعدني.

– ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي.

– عندك تفسير؟

– شوف يا ابني... تفسير حالك وروحك علمه عند الله، متحاولش تدور برة على إجابة لسؤال جواك. المفتاح دايمًا جنب الباب والأبواب لا تدركها إلا عند الخروج... دايمًا بنفهم وإحنا خارجين.

– يعني ممكن تكون روحي قديمة فعلاً زي ما بحس؟

– برضه بتسأل برة... شوف يا ابني، كل أرواح الخلايق جاية من الخالق، فكل روح في الأصل قديمة، أزلية أزل الله، لأنها هبة منه سبحانه، ولهذا ليها قدسيتها... لما يحين ميعاد تكليفها تاخد أدواتها الدنيوية وتعيش تجربتها، محاطة بجسد وله غرائز ونفس وليها شهوات وقلب متقلب كل يوم في حال... مين يا ابني منا يقدر يوصل لروحه ويحسها عشان يجاوب على سؤال روح غيره؟ مشايخنا كانوا بيقولوا: من عرف نفسه فقد عرف ربه... ودا حال صفوة الصفوة... وكل روح تخلَّص رحلتها

وترجع لمستقرلها، ترجع مكان رب الأرواح مايأذن لها، والجسد يفنى ويعود لأصله وللتراب. الروح بطبعها خفيفة لاهوتية، مين يا ابني يقدريدعي فهمها؟ غيرثقل الجسد الناسوتي اللي الطب والتشريح شغال عليه من سنين... فاهمني؟

مصطفى بخيبة أمل:

– تقريبًا... يعني مش هوصل لحاجة؟ هفضل تايه؟

بهي ضاحكًا وواضعًا يده على كتف مصطفى:

– توهتك وِصال، والوصال يوصلك... الخلاصة يا ابني: اطمن على أبوك وعلى روحك.

ثم يقترب من مصطفى هامسًا:

– أأمنك أمانة وعارف إنك ابن أصول وتصونها وأكشف لك عن شيء مينكشفش إلا لأهل الثقة مثلك...

– اتفضل يا شيخ.

بهي مشيرًا إلى صحن المسجد المكشوف للسماء مُسهبًا:

– أهو صحن المسجد ده متعلقة فيه أرواح ناس كتير حبته... أبدانهم فارقت من زمن،، وأشوف طيفهم وابتسامتهم زي ما أنا شايفك دلوقتي، منهم اللي معرفهمش ولا عمري شوفتهم بس بوشوش أهل الصلاح ييجوا يشقروا بهدوء ويمشوا، ومنهم اللي أعرفهم واللي إنت كمان تعرفهم.

– أنا أعرفهم؟

- أُمال... ستك قهوات، وأمك، وغيرهم كتير. روحهم مالية المكان... ورافع مش أخر أيامه كان الحُكما قالوا ميطلعش من المصحة؛ كنت بأسمع حِسّه مع أهل الله، نهنهته وضحكته... الأرواح باقية يا ابني، كل مكان حلو متعلقة فيه روح حبته... ومتخافش كل قضا ربنا لطف بعباده، فاطمئن.

يضع بهي يديه على رُكبة مصطفى مُنهيًا للحديث، ويعود يسبل عينيه ويبدأ الذكر من جديد.

يخرج مصطفى من المسجد بإجابات تحمل أسئلة أكثر مما كان يحمل في البداية: الروح؟ الموت؟ التجسد؟ الهوية؟ الذنب؟

الصوفية تطرح أسئلة في العقل أكثر مما تجيب، ولكن إجاباتها قد تكون مُرضية للروح بعض الشيء.

فور خروجه من المسجد يمر مصطفى على حلواني حليم ميزو الكائن في ناصية شارع الخديوي متقاطعًا مع شارع مسجد العطارين. ثلاجة الآيس كريم التي تسكن في هذا المحل إلى جوار فتارين الحلوى المحلية من كوفريت وشيكولاتة كوفارتينا وبونبون سيما ذي نكهة القهوة وغيرها؛ تعلن عن وجودها بطنينٍ وكأنه دعاية لوجود بعض المثلجات هنا، فكثير من المحال لا تزال تستخدم تقنية ألواح الثلج في الصناديق الخشبية. اعتاد مصطفى المرور على هذا المحل، وبرغم رائحة الحلوى وألوانها المثيرة إلا أنه دائمًا ما يختار الآيس كريم،

يشتري واحدة ويخرج ليمارس هواية الطفولة والمراهقة بالسير في شارع العطارين مساءً حيث مزيج حضاري بطعم الآيس كريم الذي يحمله...

على الناصية وأمام حلواني حليم ميزو موقف للعربات التي تجرها الخيول (عربات الحنطور) ذات مقعد جلدي ومظلة جلدية قابلة للطي، أصوات حوافر الخيول لها وقع زغردة الطبول فوق أرضية شارع العطارين المصنوعة من الأحجار التي رُصّت بعناية فائقة راسمة أشكال دائرية بطول الطريق، كتلك المُزَّينة بها شوارع وسط البلد في باريس وعواصم أوروبا القديمة، فالإسكندرية في عصر من العصور لم تختلف في تصميمها عن أرقى عواصم أوربا... ولِمَ لا، وهي الإسكندرية.

صوت نقر الحدوات فوق البلاط، صوت المارَّة، وطعم الآيس كريم؛ كل هذا يخلق في نفس مصطفى شيئًا من الإحساس بالهدوء النابع من طمأنينة الوطن والبيت، فالروح تتعلق بالأماكن التي تحبها كما أخبره الشيخ بهي، والأماكن تعشق قاطنيها الذين يشبهونها، فتخلق بينهم حالة ود، وتميِّزهم بلكنات خاصة ولُغة فريدة، هنا وُلِدت الـ(أيوه الإسكندراني) كتعبير مجازي عن الإعجاب والفرصة الضائعة والاندهاش، وهنا نشأت (الأِمَّـة) كبديل عن الناصية... وعشرات من الكلمات تهجَّاها السكندريون في قواميسهم الخاصة للغاية، فالمُدن كالأمهات تربِّي وتُعلِّم وتُنشِأ أجيالاً تنتمي لها، فالوطن

هو مدينتك، هو ذاك الشارع الذي تربيت فيه، ومحال الحلوى والمخبز القريب والمدرسة القديمة... وتلك الابتسامة التي دومًا تلاحق ذكر تلك المسميات، والتي تُشبه ابتسامة الأطفال عند العودة، وابتسامات الأمهات في الشرفات يراقبنَّ أطفالهنَّ العائدون من مدارسهم، وابتسامة الأب عندما يذكر اسم ابنائه لصديق جديد ويخرج بعدها حافظته ليريه صور أطفاله التي دومًا ما ترافقه.

مصطفى الذي يسير في العطارين، أو ربما العطارين هي التي تسير فيه؛ يجوب بعينيه الفتارين ووجوه الجيران، يمر إلى جوار محل أبيه للتُحف متجاهله وكأنه لا يملكه فبداخله شعور بالامتلاك أكبر من أن يكون صاحب محل تجاري، إنه يملك الشارع بأكمله. في تلك اللحظة وعلى بعد خطوات يقع مخبز أثينا الذي تفوح منه رائحة الخبز أجمل من أي عطر فرنسي مثير، ومكتبة الصفا التي كان فيها بالأمس مع زينة، وقطعًا محل عم بدر المغلق حاليًا لتأخر الوقت.

يصل مصطفى إلى عمارته، ليجد نصر يجلس إلى جوار رضا يحملان كوبين من الشاي يجلسان على دكة خشبية أمام باب العمارة... يلقي عليهما التحية، ليستوقفه نصر:

- لا مؤاخذة يا مصطفى بيه.

يقف مصطفى:

- خير يا عم نصر؟

- خيريا ولدي، أظن ما يكون كلمك الأستاذ علاء والشيخ رجب بخصوص البيت.

- وأظن ما يكون قالولك ردي.

- طيب افهم يا ولدي، إنت ومسافر، وما شاء الله رافع بيه سايب من خير ربنا كتير، والنية إنكم بايعين، والجار أولى بالشُّفعة.

- طيب ما تشوف من خير ربنا الكتير ده وتشتري، وتسيب البيت ده.

- يا ولدي تجارتي وحالي هنا في العطارين، محلات الموبيليا والورش كلها هنا.

- والله يا عم نصر يعز عليا طلبك، بس أنا محتاج البيت.

- عامةً فكّر يا ولدي وأنا تحت أمرك في اللي تطلبه. بس ورحمة أبوك نخلّص قبل ما تسافر.

- ربنا يقدِّم اللي فيه الخير... متقلقش أنا لسه مش مسافر.

- وقت ما تحب تخلَّص تعالى أي محل ولا البيت ولا أي ورشة وأنا أجيلك ونخلَّص.

- إن شاء الله أفكَّر وأرد عليك... بس عشان أكون صريح أنا مبفكرش في البيع حاليًا، عشان لو جالك فرصة في مكان تاني.

- فكَّر... فكَّر وأنا مستنيك.

يُومِئ له مصطفى ويُحييه وينصرف.

يدخل إلى منزله ليجد هاتف المنزل يرن، فيجيب:

- ألو.

- كل ده ذِكريا أستاذ؟

- لازم تقابلي الشيخ بهي.

زينه بسخرية:

- عشان أطلبك منه؟

مصطفى ضاحكًا:

- لا عشان أنا محتاج حد يساعدني أفهمه ساعات.

- عندك قهوة؟

- معنديش غير قهوة.

- طيب بُكرة اِشرب قهوتك الساعة ٥ واِنزل خمسة ونص عشان عندي كمية كلام... هصدَّعك.

- طيب ماتيجي نشربها دلوقتي.

- فين إن شاء الله؟

- عندي.

- وحياة خالتك؟ لا طبعًا مينفعش.

- وحياة خالتي ينفع وهسيب الباب مفتوح، أو تعالي نشربها ع السلم وأحكيلك الشيخ بهي قال إيه.

– ممم، هو قال كلام مهم؟

– يا خبر ابيض... كلام مهم جدًا.

– مممم، لا بس متأخر.

– يا ستي نُص ساعة وِامشي.

– عارف شيطانك يوزك هعمل فيك إيه؟؟؟

– بأقولك لسه خارج من عند الشيخ بهي.

– ما هي الذنوب مبتجيش غير بعد الحسنات يا باشمهندس.

– أهو موضوع الذنوب ده الشيخ بهي ليه فيه رأي تاني خالص.

– أنا كده هقلق منك ومن الشيخ بتاعك.

– مظبوطة؟

– هي إيه اللي مظبوطة؟

– القهوة؟

– أقنعتني... مظبوطة وعلى سبرتاية، والباب مفتوح.

مصطفى مبتسمًا:

– ماشي موافق... متتأخريش.

– اقفل بقى، الدقيقة بفلوس.

يطوف مصطفى بعينيه في الشقة ليتأكد أنها مهيئة لاستقبال ضيف بأهمية زينة... الشقة نظيفة كرد فعل طبيعي لوجود علية هنا صباحًا، إلا من هذا الجزء الخاص بمصطفى؛ مرسمه

الخاص الذي هو تحت الانشاء من فترة طويلة، لم يختر له لونًا أو طرازًا معماريًا بعد.

(١٨)
العـزلـة

الإسكندرية

خريف عام ١٩٧٩

عطية يقود سيارة رافع في طريق المطار، بينما يجلس مصطفى في المقعد الخلفي...

- حمد الله ع السلامة يا مصطفى بيه.
- الله يسلمك يا عطية.
- ربنا يطمنك ع الحاج إن شاء الله.
- أخباره إيه يا عطية؟
- والله يا بيه أنا مبشفهوش من يوم ما دخل لامؤاخذة المصحة، وعلاء بيه والشيخ رجب مانعين الزيارة، بس بنطمن منهم.
- يعني مفيش تطور؟... يعني علية ليه طلبت آجي أشوفه؟
- العلم عند الله يا بيه. بس هو من كام شهر اتصلوا بيا وقالولي هات العربيه وتعالى يا عطية، وكان الحاج متاخذنيش مش هو خالص... ومن يوميها طلعنا ع المستشفى وهو ماخرجش.

يصمت مصطفى ويراقب أجواء بداية الخريف في الإسكندرية، فأجواء الخريف مثالية للتأمل، ولكن فيه بعض الوحشة قد تميل كثيرًا إلى العزلة، فما بين خفة الصيف الفاتح وثقل شتاء الإسكندرية الداكن يقع الخريف، ممزقًا بين التضاد بشعور مبهم يتسرّب للنفس أحيانًا حتى تشعر فيه بالعُزلة؛ عُزلة كعزلة الميلاد بعد تكور جنيني في عزلة أحشاء الأم، وعُزلة كالموت بعد أن يتركك الرفاق والأهل وتبدأ رحلة النسيان...

في الخريف بداية العام الدراسي، مشاعر ممتزجة لدى الطلبة والتلاميذ، ما بين الرغبة في استمرار الصيف وحنين للشتاء؛ هنا يقع الخريف...

رائحة الجوافة تملأ الأسواق، تكاد تشعر ببذورها القاسية تسكن بين أسنانك، على الرغم من أن البلح هو من يتصدَّر المشهد بألوانه، ولعلَّ الرابط بينهما أن كلاهما فاكهة الغلابة...

حقائب المدارس معلقة على أبواب المحال التجارية كرؤوس المذنبين على المشانق، إلى جوار ما تبقّى من كُرات ملونة وألعاب بحر للأطفال التي قد فشلت ألوانها في اجتذاب نظر أحدهم ليفك أسرها، وحتمًا ستعود للمخازن لتظهر العام القادم إن كان في عمرها بقية...

طبقة صغيرة جدًا من الناس من يستمتعون بالمصيف في الخريف، غالبًا أزواج كبر أطفالهم عن سن الدراسة، أو زوجين

لم يُرزقا بأطفال قط. فالخريف بداية المسؤولية وأن تكون ملتزمًا بأجندات ومواعيد. هنا يقع الخريف.

الخريف موسم العُزلة التي هي أصل الحياة والآفة الأزلية التي يسعى الإنسان للتخلص منها فيبحث فيمن حوله على من يؤنس وحدته؛ أو هكذا يتصور؛ وإن كان الأصل في التجمعات ومقاومة العُزلة هي الرغبة المُلِّحة في الشعوربالتميز، فلا نجاح إن لم يُقارن بفشل الآخر، وكل مشتقات الفعل «أفعل» تبدو ليست ذات معنى طالما أنت وحيد، فكيف تدَّعي أنك الأقوى والأسرع والأعلى في جبال الأولمب إذا كنت وحدك دون رفاق وخصوم تقارن نفسك بهم؟ ولا قيمة لميدالية ذهبية في سباق كنت فيه المتسابق الوحيد...

في خريف مثل هذا تم القبض على مصطفى في أحد شوارع باريس حينما عمل كرسام هاوٍ على أبواب محطة جورج الخامس لمترو الأنفاق الخاص بالعاصمة الفرنسية؛ ذلك الثعبان الكامن تحت الأرض الذي فشلت عطور فرنسا في تغيير رائحته، فالعرق الأفريقي كامن في جحور ذاك الثعبان يعلن أن حضارات بُنيت فوق أكتافهم السمراء، والمدنية الفرنسية لم تستطع أن تكون مرحِبة بالشكل الكافي بملامح مصطفى العربية الذي صادف ونسي هويته في يومها، وشجار مع جندي أتلف لوحاته كلَّفه بضعة أيام في حبس لا يعرف النور. لكنه تعلَّم كيف يحترم النوروالحرية، وألا ينسى هويته.

في محبسه عرف مفهوم العُزلة ولم يجدها عقابًا. في الدول المدنية (بوليس) باليونانية لا تعترف بك ولكن تعترف ببطاقة ورقية تطبعها لك وتختم شعارها فوق صورتك المطلة من أحد أركانها لتثبت أنك هو المقصود.

تصل السيارة التي يقودها عطية إلى مقر المصحة التي ينزل فيها رافع؛ تلك المؤسسة الموصوم سكانها بـ«الجنون»، ممن أُقيمت حولهم أسوار تعزلهم عن عالم «العُقلاء».

تدخل السيارة التي يعرفها رجال الأمن عن ظهر قلب بترحاب مبالغ فيه؛ من أثر كرم عطاء علية الدائم. يخرج مصطفى من السيارة إلى مكتب مدير المصحة مباشرةً، والذي يرحب به ويطلب له فنجان من القهوة يحتاجه ليستطيع أن يفهم ما الذي حلَّ بوالده الذي كان منذ شهور ذا مال وجاه وسطوة. كيف كسرته الدنيا وحوَّلته إلى بهلول أو درويش يبات على أعتاب المساجد وينام إلى جوار أضرحة أهل الله؟...

– إحنا مقدّرين مجهوداتكم يا دكتور، بس أنا محتاج أفهم؟

– مفيش تشخيص دقيق أقدر أقدِّمه لك بشكل علمي مفصَّل، لكن الحالة حتى الآن بتقول اكتئاب حاد وهلاوس سمعية وبصرية.

– طيب أنا آسف، بس هل وجوده هنا ضروري؟

– مش ضروري، لكن الأفضل متابعة الحالة عن قُرب، ده

بيسهّل علينا الأمور. وجرعات الدوا والرعاية الطبية هنا أكيد أفضل.

– مينفعش ننقل الخدمات دي في البيت؟

– ينفع طبعًا بس الرقابة هنا أفضل. مدام علية بتتعامل بعاطفة أكتر منها مهنية، وحضرتك مسافر طول الوقت... بوجود ممرضة أو اتنين معاه هيبقى إهدار وقت. أنا مقدَّر شعورك بس صدَّقني وجوده هنا لمصلحته.

– أنا حابب أشوفه لو ده مسموح.

– ده مسموح جدًا ومفيد له، حضرتك مازرتهوش ولا مرة خلال الشهور اللي فاتت، ووجودك أكيد هيفرَّغ طاقة عنده هنوجِّهها لصالحنا... اتفضل يا أستاذ مصطفى شعبان هيوصل حضرتك.

يخرج مصطفى من مكتب مدير المصحة متوجهًا للقاء رافع بك الذي تحوَّل في ليلة وضحاها إلى عجوز يأكله الاكتئاب.

الممرات في المصحة ذات طلاء باهت، والبرد يسكن تحت بلاطها الممتد فوق الأرضيات... صرخات متقطعة من غُرف المرضى يشتكون العُزلة للعُزلة وتقودهم الوحدة إلى الجنون. وكآبة المكان تسقي الاكتئاب بالوحدة؛ المادة الخام للملل ليظلل فوق رؤوس المكتئبين.

الغرفة رقم ١٠١ المميزة تخص رافع بك، و(عطيات) الممرضة

الممتلئة ذات المعطف الأبيض المائل إلى الاصفرار تقف على باب رافع كسجانة عتيقة تقف على باب جهنم.

يفتح شعبان الباب بهدوء ليدخل مصطفى الغرفة... ياللكآبة، أحقًا هنا يعالجون الاكتئاب؟!!... اللعنة، كيف يحضرونه إذًا؟... أبواب خشبية ملساء، وجدران رمادية كئيبة، وشبابيك مغلقة بأعمدة حديدية، وسرير وحيد في المنتصف، وحبلان متدليان من ظهر السرير يبدو أنهما لربط الضحية - عفوًا، المريض - عند حالات الهياج.

ورافع... نعم رافع، يجلس في وضع التكور الجنيني على سريره، عيناه معلَّقتان على سقف الغرفة الخالي إلا من بعض علامات الرطوبة، لحيته لم تكن يومًا بهذا الطول، وفقد من وزنه وكأنه لم يأكل منذ شهور...

عينا مصطفى تتساءلان: من أنت أيها العجوز البائس؟ وأين اختفى أبي؛ الحِصن الصلب الذي أحببته حتى كرهته، وكرهته حتى أحببته؟

يقترب من رافع، يجلس إلى جواره على السرير... ينظر له رافع دون اكتراث، ويعيد ناظره من جديد يطالع السقف.

- بابا: أنا مصطفى... بابا: إنت سامعني؟... أنا لسه واصل من المطار حالاً وجيت عليك على طول... بابا: إنت كويس؟

- كانت بتطلع بـ١٠ وبـ١٥ جني الحتة، وكانت قانوني.

– هي إيه دي يا بابا؟

– الآثار اللي حمقاك قوي ومزعلاك من أبوك وخلتك تسيب الدنيا وتمشي.

– بابا: من فضلك، أنا جاي أطمِّن على صحتك مش جاي ألومك أو....

رافع مقاطعًا:

– لعبة يا ابني ودايرة، وإحنا تِرس فيها... طيب متحمقتش الحكومة ترجَّع المسلات ليه؟ ولا مكيِّفاهم المسلات برة؟... راس ستك نفرتيتي بايتة برة ليه؟... أُمم متحدة وأمم مُتفرقة ويونسكو... نسكو حمرا كلكم....

ثم ضاحكًا:

– إنت بتشرب يا درش؟

مصطفى مبتسمًا لضحكة أبيه.

يكمل رافع:

– بتشرب يا ابن الكلب أنا عارف، مية وحشيش... ماسألتش نفسك إنت والمحامي اللطخ صاحبك ليه المية قانوني والحشيش مش قانوني؟

– يا بابا لو سمحت....

– اسكت يا حمار. مدام جيت يبقى تسمع وإنت ساكت... المية قانوني عشان تُجَّارها ناس لينة وزباينهم ناس كلاس بيتباهوا

بأزايز الشمبانيا في حفلاتهم، لكن بتوع الدخان والكِيف ناس عفيّة، فمفصلين القوانين عشان يحرَّموا بضاعتهم فيبقى نقلها وتخزينها بفلوس وأبو قرش يتباع بجني، وأبو جني يتباع بـ ١٠٠... تُجَّار الآثار لافين بضاعتهم لَفِّة هدايا؛ إشي حضارات إنسانية وإشي هوية وحبة يونسكو وحبة تراث معرفي. خلو أبو جني بمليون... لولاش إحنا حفرنا ودعبسنا ماكانش حد دري بالكنز اللي تحت الأرض.

– والله أنا مش جايلك أتكلم في كده. إنت وحشتني وجيت أشوفك.

– أيام بتاكل في أيام، وحبسة جوا حبسة. مش فارقة.

– لو مش مرتاح هنا أخرَّجك حالاً. ولو أي حاجة مش عجباك أغيَّرهالك.

يقترب رافع من مصطفى هامسًا:

– غيَّرلي عطيات وشعبان. مابحبش حد يحمِّيني، مابحبش أنام بمعاد واصحى بمعاد. ودمهم تقيل مابيفهموش نُكتي...

ثم بصوت مرتعش:

– أنا... أنا... أنا مابخافش منهم، بس وجودهم موتّرني.

يصمت رافع قليلاً، ثم يعود للحديث بصوت خافت وهو ينظر للباب:

– لا أنا بخاف، بخاف منهم يا مصطفى... بس حتى لو غاروا

في داهية هجيبوا عيل أضخم من شعبان وتِعبان تاني بدل الحِرباية عطيات... يقابلوك إنت وأختك بـ هيهيهيهيهي والحاج في عينينا، وأخِر النهار: اِتخمد يا رافع. ولو ما اتخمدتش يشكشكوني لما أتخمِد.

– ماحدش يقدر يعاملك وحِش.

رافع بعصبية وصوتٍ عالٍ:

– لا، يقدروا.

ثم يعود ليهمس:

– ولاد الوسخة جايبينهم من سجن الحَضْرة، شعبان ده بيشخر لي لمَّا أعلِّي صوتي واعمل حلقة ذكر مع حبايبي.

– حبايبك مين يا بابا؟

– يعني إنت شغلك حبايبي مين ومش هامك مين بيشخر لأبوك؟... مش هتفهم يا مصطفى، ومش مهم تفهم. وكتَّر خيرك يا سيدي، أنا هنا أحسن لي من سِحنة رجب وعلاء.

– بس هناك يا بابا هتتّونس بناس حواليك.

– عبيط زي أمك. الونس من جوة مش من برة. طب ماقعدتش اِتونِّست معانا ليه؟ طلّقت مراتك وعايش لوحدك زي الصراصير برة ليه؟

– أنا.....

رافع مقاطعًا:

- أقولك أنا ليه: عشان هي محصّلة بعضها، صاحب مش صاحب وأب مش أب، وطول النهار سارح لوحدك، فلمَّا تروح جِتة مافيهاش حد تعرفه؛ يبقى عندك بدل السبب عشرة إنك تبقى لوحدك... مين فينا يا ابنى هيموت معاه حد؟ ولا يتحاسب وجنبه حد؟... كل الخلق اللي حوالينا دي أونطة، كله عايش حياته هو واللي حواليه كومبارس، (حمامة) صبي صُبياني أنا بالنسبة له كومبارس... عطية السوّاق؛ إحنا بالنسبه له كومبارسات. كله شايف نفسه مركز الكون والدنيا بتلف حوليه وعشانه. مخلوق مغرور مابيفوقش إلا في الأخر، بطلقة في دماغه زي عمك الحاوي ولا عربية تشيله ولا مصيبة تاخده، فيفوق ويعرف إن الأرض لسه بتلف، وإنه ولا حاجة، شوية عمل متشعلقين في روح متكتفة في جِتة.

يصمت رافع من جديد ويعود لوضع التكور الجنيني، ينظر إلى السقف.

يمد يديه تحت الوسادة ويُخرِج قطعة من حلوى (كوفرتينا) يضعها في فمه وهو يبتسم وينظر لمصطفى، الذي يمازحه:

- طيب مش تعزم يا حاج.

- كتك نيلة إنت جاي إيدك فاضية. ثم دي من عمك البركة أبو البهاء، إدهاني إمبارح وأنا بأصلّي العشا أبِّل ريقي.

مصطفى مبتسمًا:

- مين عمي البركة؟

يتجاهل رافع سؤاله وهو مستمتع بقطعة الحلوى...

- ضحكتك حلوة يا درش وبتوحشني.

يلمس خده ويصفعه مُمازحًا:

- شبه أبوك في شبابه، بس واخد قلب أمك، وهِيبة قهوات، ونظرة الزناتي... تركيبة بنت كلب... بس حمار، ولا إنت ذكي كفاية تضحك على كل الناس، ولا غبي كفاية تصعب عليهم... عايش زي باقي الخلق، مع إنك غيرهم.

- أنا بحبك يا بابا، والله بحبك.

- يااااه، بخيل قوي ومتأخر قوي... لو بتحبني يا درش سيبني هنا، أنا عارف أعيش لوحدي.

يُقبِّل مصطفى رأسه، ويشرع في الانصراف. يناديه رافع:

- درش....

يقف مصطفى:

- أؤمر يا حاج.

- ابقى خلِّي الحاوي ييجي... يسيب المكتب وييجي. ولو قولتلي إنه مات هأديك بالجزمة... وأمك كمان، متخليهاش تتأخر. ماتقوليش بقى ماتت وروماتيزم وكلام فاضي.

مصطفى بحُزن:

- حاضر يا حاج.

- يحضَّر لك الخير يا قلب أبوك.

يخرج مصطفى من الغُرفة حاملاً أطنان من الحُزن وخيبة الأمل، وكأن معول قد هَدم للتوّ صنمًا كان يعيش في كنفه ليكشف عما بداخله من هشاشة، فليس أقسى على الرجال من لحظات الضعف، ومصطفى للتوّ قد دفن أباه الذي يعرفه ولم يبقَ منه إلا ظِلٌّ شاحب.

••••

يعود مصطفى إلى منزله المهجور منذ شهور بعد خروج والده منه إلى المصحة، ليتصل بـ(نوشا) التي اعتاد لقاءها في تلك الأيام في فترات الأجازة في مصر؛ يصب فيها أشواقه وطاقته المكبوتة التي اعتاد أن يضعها فيها كل مرة.

تصل نوشا بشكل مختلف تلك المرة، فشعرها قد تغير لونه للأحمر الناري، وكانت جامحة لدرجة جعلته يعيد الكّرَّة معها في ليلة واحدة مرات عديدة، كان يريد أن يثبت لنفسه أنه أصبح (ذكر) هذه العائلة، فظِلّ رافع أصبح باهتًا. وأحيانًا ما يلجأ الرجال للفراش ليثبتوا قوامتهم ووجودهم.

أنهك الحب نوشا حتى استلقت على وجهها تغطي رأسها بالوسادة كالمعتاد، وشعرها المجدلي في تلك الفترة ملتصق

بظهرها الذي بللّه العَرَق. لم يكن مصطفى حريصًا في هذه المرة كالمعتاد، وترك جيناته تندفع بقوة إلى داخلها، وهي لم تُبالي من فرط النشوة، فالمرأة إذا ما أحبَّت تحرَّرت ولم تدع القلق يُوقف نشوته أو نشوتها.

مشهد شعرها بقي عالقًا في ذهن مصطفى الذي استسلم لنومٍ عميق... يرى في منامه أنه شاب غجري ومعه امرأة ليست نوشا ولكن لها شعرها الأحمر من بنات الغجر، يجلسان في خيمة مضيئة بفعل ضوء الشمس الحارقة، يحتسيان نبيذًا أحمر على ترعة (المحمودية) في عصر قديم حيث كانت مصر ولاية عثمانية تحت إمرة (محمد علي)، والعثمانيون تحت إمرة (محمود الثاني).

تُناول الفتاة مصطفى قارورة النبيذ، والعرق يجعل جسدها الخمري يضوي في ضوء الشمس كقطعة من لهب. يأخذ القارورة وينزوي بها في ركن في الخيمة يتابع حبات العرق تنساب من جبينها إلى عُنقها إلى قمة نهديها البارزين من فستانها الغجري المنقوش بزهور برية.

تنظر له الفتاة متسائلة:

– عجباك؟

يومئ بالإيجاب. فتقول له:

– الحُب مش للغجريا ابن رافع.

– ليه ؟

– الحب يلزمه بيت، والغجر مكتوب عليهم الترحال.

تقترب منه، تأخذ القارورة تشرب منها وتخرج من الخيمة لتسكب الباقي في مياه الترعة... وتكمل كلامها:

– كل ما تشتاق اِشرب، هتلاقي من ريقي. وكل ما تقابل هتلاقي مني حِتة. وحشايا فيه من صُلبك اللي يخلّص توهتك يا ابن رافع.

تسير الفتاة في الطريق الموازي للترعة، بينما ينادي عليها مصطفى:

– استني... استني... متمشيش.

نوشا توقظه:

– قوم يا مصطفى.

يفيق من نومه على صوت نوشا التي تقول:

– ممشيتش ومستنية... بتحلم؟

– آه كنت بحلم. صوتي كان عالي ؟

نوشا ضاحكة:

– رضا ونصر سمعوك تقريبًا.

ثم تردف:

– هعملك القهوة على ما تغسل وشك.

– آه والنبي لحسن مصدَّع ومش شايف.

يفتح شبَّاك غُرفته، يراقب الأطفال في يومهم الدراسي الأول محملين ببهجة الزيِّ الجديد والخوف من أول يوم دراسي... حماس يعتريه القلق وهم يسيرون رفقة آبائهم كمصدر أخير للأمان بعدما تركوا أمهاتهم في البيوت بعد حضن طويل تمنوا لو يدوم للأبد.

يطل فنجان القهوة بين يدي نوشا وتسبقه رائحة بُن الحاج حمدي المطحون مخصوص لمصطفى الذي يجلس يرتشف منه أول رشفة...

- تسلم إيدك.

نوشا الجاثية إلى جواره:

- تسلم من كل شر.

- شايفة الشنطة اللي هناك دي؟

- السمرا؟

- آه السودا الصغيرة، افتحيها لو سمحتي، وفي علبة قطيفة خُديها.

تفتح الحقيبة بحماس وتُخرج علبة من القطيفة زرقاء اللون بها سلسلة ذهبية تحمل فصًّا أزرق (ازوريت دروزي) يشبه مجرة درب التبانة، ذا رونق وكأن أكوان وشموسًا تطوف في سماء زرقاء فسيحة. تبدو علامات الانبهار على وجه نوشا التي تقول:

- دا حلو أوي يا مصطفى... دا لمين ده؟

– ليكي طبعًا.

تهرول لتقبِّله قُبلة طويلة. تحاول ارتداء السلسلة:

– ربنا يجبر بخاطرك.

مصطفى ضاحكًا:

– هو أنا باديكي رغيف عيش؟... المهم إنه عجبك.

– دا يلحس العقل. حلو أوي.

يساعدها في لبس السلسلة ويرفع شعرها قائلاً:

– حلو لون شعرك وشكله كده.

– ربنا يخليك، إنت اللي كلك ذوق.

ينظر مصطفى إلى السلسلة المتدلية بين نهدي نوشا بلون الحجر الأزرق المميز وكأنها وضعت الكون كله بين نهديها.

(١٩)

نـار السبرتاية

الجو مهيأ تمامًا لاستقبال (زينة): السبرتاية، فناجين القهوة، وقطعًا بُن محل حمدي المطحون خصيصا لمزاج الباشمهندس مصطفى.

الباب مفتوح ترى منه البلكونة بوضوح في أخر الممر، والستائر البيضاء تتهادى في نسيم الليل والمشهد المطل نسبيًا على البحر، رائحة اليود وصوت محمد فوزي قد تدفعك للسهر ما تبقى من عمرك.

مصطفى الذي أعدَّ كُرسيين وطاولة في البلكونة المقابلة للباب المفتوح؛ يترقب بعينيه وصول زينة التي يُسمع وقع خطواتها على السلم الرخامي وكأنه يقبِّل كل خطواتها، ووسواس صوت حليها وكأن فرس عربي يعتلي السلم برشاقة.

تقف زينة بتردد أمام باب مصطفى المفتوح وصوت محمد فوزي في الخلفية يشدو (كلمني طمني) بلحنه الرشيق المميز وكأنه يدعوهما إلى الرقص.

يقف مبتسمًا مستقبلا زينة التي أتت في فستان قُطني رقيق

متسع بما يكفي ألا يكون مثيرًا، وجميل بما يكفي لجعلها فاتنة، فستان يحرك القلب والعقل.

يقف مصطفى باسطًا ذراعيه:

- أهه الباب مفتوح والبلكونة وكأننا قاعدين في الشارع.

تدخل زينة تقلِّب ناظريها في الشقة المنهكة والتي تحتاج بعض الرتوش، وإن كانت بصمات الرأسمالية واضحة فيها...

- نُص ساعة وهمشي.

- أنا أصلاً هطردك كمان نُص ساعة.

- ندل وتعملها.

- خلاص خليكي بايتة.

- أُقسم بالله أمشي.

مصطفى ضاحكًا:

- طيب خلاص تعالي ادخلي.

تتحرك زينة في خط مستقيم إلى البلكونة وهي تختلس النظر يمينًا ويسارًا، حتى تصل إلى البلكونة، تضع يديها على السور وتنظر إلى الشارع:

- حلو المنظر من عندك.

مصطفى الذي بدأ في إشعال السبرتاية:

- شُفتي بقى كنتي هتضيعي المنظر الحلو ده ومتجيش.

- أوعى تخليني أندم إني طاوعتك.

مصطفى ضاحكًا:

- في العادة الكلمة دي بتتقال في الأخر.

- أخر إيه؟

- بعد كلمة: طاوعيني ومش هتندمي.

زينة ضاحكة:

- آه، والقهوة تفوروكده؟ يا عم أنا ماشيه بلا قِلة قيمة.

- استني بقى بلاش غلاسة اقعدي هشرّبك فنجان قهوة من بتاع حمدي

- إيه الاسم ده؟ محسِّسني إنه الخواجة فكاكيس ولا سوفيانوبلو.

- لاااا عم حمدي بيختار لي البُن بالحباية ويطحنها بإيده، هتشوفي.

رائحة القهوة تخيم لتصل إلى زينة، فتقول:

- ريحتها فظيعة فعلاً.

- ولسه الطعم.

محمد فوزي بدأ في أغنية الزهور ويشدو (حاكم الزهور زي الستات لكل لون معنى ومغنى)، ومصطفى يصاحبه في الغناء. فيما تقول زينة:

– وإنت بقى يا عم الجنايني دي الفازة بتاعتك اللي بتقابل فيها الورد بتاعك؟

مصطفى ضاحكًا:

– مممم الكدب خيبة. بس نأجل سؤالك ده شوية.

تجلس زينة:

– احكيلي بقى.

– والله إنتي اللي قولتي عندك كلام كتير وهتصدَّعيني.

– أيوه صحيح... بص يا سيدي، بصراحة شوية الكتب بتوع مكتبة الصفا مفيهومش حاجة مفيدة أوي، بس اسمع: إنت ممكن تمدِّد كده وتحكي من الأول ونفكر سوا ممكن نحط إيدينا على حاجة.

يقدِّم لها فنجان القهوة:

– يا لهوي، دا أنا مددت قُدام دكاترة في إسكندرية والقاهرة وباريس ولندن وأمستردام.

تُمسك بالفنجان:

– طيب جرَّب بقى تمدد في المنشية يمكن فيها الشفا... ها، إحكي.

– من أول إيه؟

– من الأول خالص.

– إنتي ناوية على بيات بقى.

– إنت مُصِّر تبقى قليل الأدب... احكي يا مصطفى من الأول وباختصار.

– بصي يا ستي، مش فاكر امتى بالظبط بدأت أعاني من الصرع بس واضح إنه من زمان. دكاترة ومشايخ ونفسيين وجرَّاحين ودجَّالين كله يحشر مناخيره وياكل عيش. كل مرة بتجيلي النوبة أشوف نفسي في زمان تاني بس نفس الناس هُما هما، ناس يمكن قريت عنهم، وصدقيني يمكن حتى قبل ما أقرا عنهم، أو يمكن أنا ربطت بينهم وبين اللي قريته.

– وارد بتحصل.

– حتى أحلامي دايمًا تحسي إنها حدوتة قديمة، في حاجة عايزة تتقال وأنا مش عارفها.

– تقدر توصف اللي بيحصل؟

– بصي هو مش سهل، بس هحاول.

– يا سيدي جرَّب.

– تخيلي معايا عقلك ووعيك. في عقل واعي وعقل باطن...

– مفهوم.

– عقلي الواعي ده ممكن يتقسم كمان درجتين.

– لا مش مفهوم، اصبر بقى وفهِّمني.

– يعني دلوقتي أنا واعي وبكلمك، وعقلي بيفكَّر في درجة غليان

القهوة عشان أطلّعها مظبوطة، وممكن جزء من عقلي مشغول بفكرة تالتة؛ لوحة جديدة مثلاً.

- بتحصل.

- أنا بقى عندي خزَّان أحلام كبير تحت طبقات عقلي الواعي، شايل كل أحلامي القديمة وهلاوس على أفكار مجنونة... أبقى قاعد معاكي كده تبدأ تتسرب فكرة أو حلم منهم من الخزان لطبقة الموضوع اللي شاغلني اللي هو بتاع إيه؟

- اللوحة؟

- برافو. ويبدأ يطلع من مرحلة اللوحة لمرحلة القهوة، وهوب ينط ياخد صورة الغلاف في جمجمتي مشوفش غيره، يبدأ يتحرك ويتجسّم ويحصل بتفاصيله لدرجه العقل يصدقها، فأفقد الوعي بقى ويحصل اللي بيحصل.

- تعبت من الكلام؟

- بالعكس، أنا يمكن عمري ما قولت لأي دكتور بالتفاصيل والوضوح ده.

ترشف زينة من فنجان القهوة مقاطعة:

- يخرب بيتك إيه ده؟

- خير؟ مالك؟

- لا آسفة مش إنت... إيه القهوة دي؟؟؟

– خطيرة صح؟

– المجد لحمدي... ها كمِّل.

– ممم... أُمي، نبدأ بأمي... أُمي من الصعيد، جدتي كان اسمها قهوات...

زينة تضحك حتى تكاد تسكب رشفة القهوة من فمها.

مصطفى مسهبًا:

– ولو اتريقتي ع الاسم هرميكي من البلكونة.

زينة ضاحكة:

– لا مش هتريق، بس أنا في فدماغي كمية نُكت، بس طبعًا مش هقولها.

مصطفى ممازحًا:

– طيب ياللا خدي بعضك بقى وامشي عشان أنا بحب الست دي.

– طيب كمّل كمّل، هسكت.

– بما إننا فتحنا سيرة الأسامي؛ قهوات دي كانت متجوزة جدي الكبير الزناتي، وعرفت متأخر إنها مش أُم أُمي، دي كانت مرات أبوها بس كانت بتعاملها هي وخالتي زي بناتها... وخدي عندك بقى: أُمي اسمها آسمين.

– آه عارفاها، دي بتاعت أوديب.

- يا فرج الله، في حد عارف أوديب.

- بس إيه اللي يخلي صعايدة يسمّوا آسمين؟!

- لا هو كان اسم دارج تقريبًا، وخالتي اسمها (قسمت) وبينادوها أسمة، فبقت أسمة وآسمين.

- في أسامي تاني في القصة دي؟

- يوووه خدي عندك: الحاجة قهوات عندها شغالات في البيت اللي هو دوّار الزناتي، كان عندها مين بقى؟

- مين بقى؟

- تنميرة ومبخوتة وعساكر.

زينة تضحك بصوت يُسمع سابع سماء:

- يا خرابي، ليك حق تتعقّد.

مصطفى ضاحكًا:

- والله كانت طِيبة الدنيا فيهم، ربنا يرحمهم.

- أنا بهزر، بس أساميهم حلوة.

مصطفى هامسًا:

- أقولك سِر...

زينه بهمس:

- قول.

مصطفى بلكنة صعيدية:

– كان حدانا وليَّة اسمها زكريا، وواحدة اسمها استكفينا.

– يا نهار اسود.

– والله زي ما بقولك كده.

– ومين تاني؟

– الزناتي ده بقى أنا موعاش عليه، مابقاش منه غير شوية غفر: تمَّام وطنوحي.

– لا أنا أمشي وآجي بُكرة بورقة وقلم ونكتب اللي بيحصل ده.

– استني بس، ده لسه السسبنس قُدَّام.

– طيب انجز عشان كده هنقضِّيها أسامي.

– كبرت أنا هناك بين الصعيد وهنا، ولما اتلحست بالرسم...

زينه مقاطعة:

– لا استنى، إيه بقي اللي لحسك بالرسم؟

ينظر إلى السماء مُفكِّرًا:

– تصدقي عمري ما سألت نفسي السؤال ده، بس يمكن الألوان، البالتة الطبيعية الموجودة في الصعيد: سما ونهر وغيط، والبالتة الإسكندراني: سما ورملة وبحر... فعلاً مش عارف.

– طيب حد شجَّعك؟

– أُمي كانت بتحب تشوفني ارسم وتقولي هتطلع فنان. إنما

رافع؛ تؤ، كان شايفها مرقعة... كبرت أنا بقى والموضوع كبر في دماغي، وطبعًا ماكانش ينفع أقول لرافع بيه أبويا إني هابقى رسَّام هاوي أو محترف، فدخلت هندسة عمارة أهي رسم برضه.

- طيب ورافع بقى؟

- ماله؟

- هو فين من الحدوتة؟

- أبويا أهم كومبارس أخد دور البطولة في حياتي.

- إزاي؟

- في بداية عمري كنت شايفه غريب؛ غريب عن البيت طول النهار برة، ولما جينا العمارة دي بيقابل ناس غريبة، تحركات كتير وطول النهار في مكتبه، نزلته الشارع بحساب، عنده بِدل مش في دولاب عبد الناصر نفسه بس متأممش، علاقات كتير قادر يرتِّبها بشكل عبقري مع كل الناس، معروف اسمه زي الطبل بس يمشي في الشارع تحسي إن ماحدش يعرفه بس هو عارف كل واحد اتغدى إيه قبل ما ينزل.

- وده كويس ولا وحش؟

- ده يقلق... أسئلة كتير كده متلقيلهاش جواب مُقنِع.

- زي إيه؟

- مثلاً، إزاي قدر يقنع واحد زي الزناتي إنه ياخد بنته؟ مع العلم

أو حسب معلوماتي إن جدتي قهوات مش أم أُمي ماكنتش موافقة

- صحيح اسمها إيه ؟

- أُم أُمي (دولت).

- ودي تعرف عنها إيه ؟

- دولت دي بيقولوا كانت ست هانم من اللي بينادوا ع الشغالين بجرس.

- وقهوات كانت رافضة أبوك ليه ؟

- الفترة اللي أبويا اتقدِّم فيها لأمي ماكانش راجل غني، وجدي كان من الأكابر، أراضي وتجارة، أرض جدي كان بيقف فيها محطتين قطر يحمِّلوا من القصب بتاعه. وأبويا تاجر، بس تاجر شاطر؛ ساحر.

- كان متعلِّم؟

- كان متنوَّر واعي وابن سوق وقلبه جامد، وده كان كفاية إن يعمل ثروة صدقيني لسه محصرنهاش رغم إنه متوفي من سنة، وكان عايزني قال أنا اقعد مكانه، بس لمَّا خاب أمله فيا قرَّر يدّخلني هندسة لزوم الفشخرة.

- وكنت مهندس شاطر؟

- والله ما اعرف، عمري ما جرَّبت... قولت لابويا عايز أكمِّل

دراسة في فرنسا، وهوب طيرت على باريس.

– وطبعًا طنشت الهندسة واشتغلت رسَّام.

– في الشوارع وحياتك، بوهيمية بقى وأجواء مثقفين ومتاحف ومعارض وإفلاس ونوم ع الرصفان... لحد ما قابلت طليقتي.

زينة تسمع باهتمام وتضع فنجان القهوة:

– ممم وبعدين؟

– قصة حب من بتاعت الهيبز والمشردين والبحث عن الهوية... كان اسمها هدى.

زينة بنصف ضحكة:

– في حد في حياتك اسمه عادي أهه.

– أديكي شايفة النتيجة، مكملتش.

– ممم وانفصلتوا ليه؟

– حملت بعد جوازنا بشهر، قولت لو ولد هسمِّيه (علي) ولو بنت هسمِّيها (عليا) عشان أنا بحب أختي علية أوي.

زينة مبتسمة:

– وبعدين؟

– هدى جابت توأم، ولد وبنت.

– بقوا علي وعليا وأوثمان.

– ما شاء الله نبيهة.

– لا أنا في الأسامي ماعنديش يا امه ارحميني.

مصطفى ضاحكًا:

– بعدها بسنتين جبنا عثمان.

– عشان يبقي علي وعثمان؟

– بصراحة لا، هو على اسم (جورج هوسمان) اللي بنى باريس، فإحنا عرَّبناه لـ(واثمان) وطلع عثمان.

– ممم... طيب وسبت كل ده ليه؟

– بدون تجميل كده، ماكُناش سُعدا كفاية، ضغط نفسي ونوبات كتير، وهدى ما استحملتش، خافت على العيال وعلى مظهرها واستقرارها، فقرَّرنا نبعد وأنا قررت أنسحب.

– يعني ماكانش حُب.

– أكيد ماكانش حب.

– وبعدها؟

– هاتك يا صعلكة من باريس لإسكندرية للندن لميلانو، لفّ ورسم وصرمحة... لحد أُمي ما اتوفت فجأة، قررت تمشي بهدوء... وبعدها أبويا تعب، تعب أوي بشكل مفاجئ، وفي شهور اتبدِّل حاله.

– مرض؟

– نفسي... مرض نفسي.

- آسفة.

- لا خالص ده قدر.

- وبعدين؟

- رجعت أصفِّي ورثي واشوف أنا هكمِّل إزاي وفين... واتكعبلت فيكي، وحسيت إني.....

زينة مقاطعة:

- ممكن أشوفهم؟

- تشوفي مين؟

- الأسامي الكتير اللي إنت قولتها دي.

- يعني إنتي بتقاطعيني عشان تشوفي طنوحي واستكفينا؟!

زينة ضاحكة:

- لا، والست زكريا كمان... ممم يمكن مُتعمدة، بس فعلاً عندي فضول أشوف صورهم.

- طيب تعالي.

يتجول مصطفى ومن خلفه زينة تسير تتفقد المكان من حولها...

- أصل دي شقتي بالوراثة لكن هي شقة أُمي وأبويا أصلاً وهتلاقي ممتلكاتهم هُما مش ممتلكاتي. أنا ليا اللِوح بس وأي بُقع بُوية بتاعتي.

يقف مصطفى أمام مكتبة صغيرة مُشيرًا إلى بعض الصِّور الموجودة بها، ويبتسم قائلاً:

- دول عيالي: عثمان وعلي وعاليا، والبروازده الحاج رافع، ودي يا ستي آسمين، واللي وراها دي خالتي أسمة؛ اللي هي مين؟

- قِسمت.

- برافو. ويمكن مفيش صورلعلية عشان النطع جوزها محرَّم التصويرباين... وده أنا في الجامعة وأصدقائي يحيى ويوسف وعلاء وحسن.

- شكلك ماتغيرش كتير.

مصطفى مازحًا:

- كنت في الجامعة، يعني من ٦ شهور.

تقع عينا زينة على المرسم غيرالمكتمل لمصطفى، تُشيرإليه:

- تسمحلي؟

- اتفضلي. بس معلش بقى الدنيا لسه تحت الانشاء. بعد وفاة بابا كنت مقررإني أخصِّص جزء أعمله مرسم.

- وماعملتوش ليه؟

- مش عارف، في الأول توهت في الإستايل والنسق العام والتكوين والألوان، وبعدها رُحت لأسئلة أبعد من كده.

- إزاي؟

- يعني أنا متأكد إن أبويا كان رافض، ليه بقى أنا مُصِّر كده إني أعمل شيء هو رافضه في حاجة أصلاً كانت مِلكه؟ والشقة دي بالذات كانت هي بيته رغم أملاكه وأنه قادر يسكن في أحسن حِتة في إسكندرية. حسيت إني بأنتهك رغبته، فوقفت التنفيذ بعدها وسيبتها.

تُشير زينة إلى بعض اللوحات المُغطاة:

- تسمحلي أتفرّج ع الشغل؟

- د شيء هيوتّرني، بس مهتم جدًا أعرف رأيك.

تقترب من اللوحات وقد بدأت تتحرك بحُرية في الشقة. تكشف عن اللوحة الأولى: رجل يوناني عجوز يُحيط به الأصدقاء وشاب يناوله كأسًا...

- استني استني. دي... دي...

- موت سقراط... أو نسخة بتخيُل مختلف ليها غير اللي عملها «جاك لوي دافيد».

- أيوه صح، لحظة موت سقراط اللي أخد السِّم ورفض يكمِّل بقية اليوم.

- تُحفة... حلو جدًا تصورك واختيارك، ووو... إيه ده؟؟؟!!!

مصطفى مبتسمًا:

- إيه؟

- إنت اللي بتديله السِّم؟؟! شبهك.

– ماتخديش في بالك.

– لا أفهم، إشمعنى إنت اللي بتدِّي السِّم لسقراط.

– حلم قديم.

– وليه موقَّع (ليسبوس)؟

– ممم دا اسم نحَّات شُغله مسيطر على دماغي بشكل، كإنه راكبني لمَّا كنت شغال في باريس. بعض الرسَّامين بيحطوا أسماء مستعارة من باب التسويق وإثارة المشترين.

– بس أظن اللي غاوي رسم مش محتاج يشوف توقيع الرسام، يعني سهل إنك تعرف دي لـ(وانلي) ولا لـ(محمود سعيد) والاتنين تقريبًا اتربّوا في نفس الأيدلوجية.

– برافو عليكي. هنا النقطة، إن الجمهور بيحكم على الشغل بنسبة كبيره من اسم الفنان. تخيلي بقى لو كان وانلي ولا سعيد وقعَّوا بأسماء مختلفة كان ممكن يدِّي انطباعات مختلفة ويعرَّض شغلهم لنقد أكتر حيادية. يعني اللي يعرف شغلي يعرف يطلعه من بين كذا لوحة، واخترت اسم ليسيبوس أوقَّع بيه بعض الشغل بتاعي. تعرفي إنه كان نحَّات الإسكندر؟

– خطيبي؟

– أيوه، المقدوني أبو عيون مش عارف زُرق ولا إيه.

– غيور أوي إنت.

- أنا أغير عليكي من ده؟؟ ليه إن شاء الله؟

- وليه لأ إن شاء الله؟

زينة بصدمة:

- يا نهارك اسود يا فنان يا مراهق...

- في إيه؟

تمسك بلوحة نوشا العارية...

يستغرب مصطفى:

- مالها؟

- ده الوش شبهي جدًا، هو مش أنا ١٠٠ في الـ ١٠٠، بس شبهي جدًا.

- فاكرة لما قولتلك بشوف خيالاتك قبل ما اشوفك؟

زينة بمزاح:

- وإنت إزاي يا أستاذ تسمح لنفسك ترسمني كده؟

- والله راسمها قبل ما اشوفك.

- ما هو أكيد، لأن ده مش جسمي خالص... وطبعًا مش هدخل معاك في تفاصيل ومقارنات بين الصورة والحقيقة.

مصطفى ضاحكًا:

- أنا مافتحتش بوقي على فكرة، إنتي اللي بتحطي فرضيات لوحدك.

- تعرف، اتخضيت لما لقيت وشي على جسم عريان.

- ليه؟

- في دايمًا مسافة كده بين البنات تحديدًا وأجسامهم.

- لأ مش فاهم.

- يعني على أد ما إنت المفروض حُرفي أملاكك الخاصة اللي جسمك جزء منها، إلا إني بحس إن البنات في الغالب هنا في مسافات بينهم وبين أجسامهم، شايفينها عيب كده زي الناس ما هي شيفاها، تقاليد كتير خلتنا مش مرتاحين لا حد يبص ولا حد يتطاول... زي علاقتك بمرسمك اللي مش مرسمك في بيت والدك... إنسى إنسى.

ثم تسهب:

- لا لا مش جسمي خالص، دي أطول و.... ولا بلاش. بس حلو تفاصيل الحجر الأزرق اللي مرسوم ده... ودي بقى من زهرات الأستاذ مصطفى اللي بيغنيلها مع محمد فوزي؟

مصطفى مبتسمًا:

- جبتيلي شيكولاتة روكيت؟

- آه في الشنطة، مع إنها خسارة فيك.

- طيب فين؟

تنظر زينة إلى اللوحة التي تحملها لجسد نوشا ووجهها،

وتقرر أن تضعها منكفئة على ظهرها، لتلاحظ أنه كُتِب عليها بالفرنسية (لا في) أو (حياة)... تبتسم:

- بغض النظر يعني عن فكرة أبو الهول إنك تحط راس مخلوق على جسم مخلوق آخر، بس اسم (حياة) حلو للوحة.

تُخرج الشيكولاتة من حقيبتها وتفتحها... فيقاطعها مصطفى:

- إنتي لسه هتفتحي وتقسمي؟ أنا هاكلها كلها أصلاً.

- لا والله، رأسمالية أنا ولا إقطاعية زيك عشان أجيب لكل واحد واحدة. أنا هقسمها ونصيبك هديهولك في بُقك على طول وإنت ترضى بيه.

- بخيلة جِلدة.

- صعلوك إقطاعي بوهيمي.

تقطع زينة من الشيكولاتة وتضع قطعة في فم مصطفى، ليجدا في تلك اللحظة نوشا تقف بلفة البسبوسة المعتادة وكيس أسود يصدر منه صوت ارتطام زجاجات البيرة...

نوشا:

- مساء الخير.

مصطفى بشيء من الارتباك:

- مساء النور.

تتقهقر زينة خطوات للخلف...

نوشا بعينيها تسأل: من هي؟... وزينة بحاجبين مرفوعين تسأل: من هي؟

في أجزاء من الثانية تقرر نوشا أن تعالج الموقف والمفاجأة غير السعيدة التي أعدَّتها لمصطفى قاطعةً صمت لم يطُل:

- لا مؤاخذة يا مصطفى بيه، الحاجات اللي إنت طالبها أهه. ممم، الأستاذ علاء بعتها معايا وبيقول لحضرتك إني هاجي بكرة، لا أنا بقول لحضرتك إني هاجي أنضِّف الشقة بكرة لمَّا تخرج.

الكذب الساذج المفضوح على وجه نوشا يُزيد الموقف إحراجًا للجميع، لكن مصطفى الذي قرر منذ سنوات ألا يخفي شيئًا يبادر:

- تعالي يا نوشا... تعالي بلاش عبط.

تقترب بتردد وهي تحمل البسبوسة والبيرة الفاضحة للكذب الأبله، بينما نظرات نسائية متفحصه متبادلة من بني جنس حواء من قياس الصدرية والحذاء ورائحة العطر ودرجة لون أحمر الشفاه ولون طلاء الأظافر؛ تقارير استخباراتية متبادلة بين جهازي استخبارات التقيا صُدفة...

نوشا في سريرتها:

- بنت ناس ونضيفه ومن تُوبه، شبه الوش اللي حطّه على جسمي، وشها أكبر بكتير من الصورة.

زينة في سريرتها:

- هي الطويلة اللي لابسة خرزة زرقا، الجسم اللي مكمِّل بيه راسي.

تمَّ تبادل المعلومات بنجاح، ومصطفى يظن أنه الفاهم الوحيد... أيها الأبله لقد تم التعارف وجُهدك دون جدوى...

- دي زينة صديقتي، ودي نوشا.

ترد زينة:

- قصدك حياة.

مصطفى مبتسمًا:

- الظاهر إن مفيش داعي أعرَّفكم ببعض.

- لا ليه؟ فرصة سعيدة يا مدام حياة.

نوشا:

- نوشا أسهل. أنا أصلاً ماعرفش إن الأستاذ مصطفى حكالك وقالك إن اسمي حياة.

- هو الصراحة ماحكاش بس أنا استنتجت.

مصطفى:

- تعالي يا نوشا إحنا بنعمل قهوة.

- تحب أعملك فنجانك يا باشمهندس؟

- وماله يا نوشا يبقى كتر خيرك.

– يوه، نسيت أسألك يا ست زينة.

زينة:

– لا شكرًا يا نوشا، أنا مصطفى عملي فنجاني.

نوشا:

– لا، حاكم أنا ليا طريقة كده في القهوة لازم تجربيها. حتى اسألي الباشمهندس بيحب يشرب القهوة من إيدي.

زينة:

– آه تمام، بس أنا فنجاني مظبوط ومش هقدرأشرب تاني.

– طيب نقطع بسبوسة بقى؟...

ثم تنظرلمصطفى:

– والله جايباها سُخنة مخصوص من طرف الصينية المقرمشة اللي بتحبها.

تتدخل زينة:

شكله بيحبك أوي يا مصطفى.

– هو مين ده؟

– علاء. باعت جايبلك الست نوشا بالبسبوسة المقرمشة في وقت زي ده... ونوشا كمان أكيد بتعزك مادام يعني جيالك بالحاجة سُخنة.

يرد مصطفى:

– أنا هروح أجيب السكينة. يارب نستعملها للبسبوسة بس.

نوشا:

– خليك إنت يا باشمهندس، أنا هروح أجيبها.

– لا يا نوشا إنتي جاية تشربي قهوة، مش هشغلك.

– لا والنبي...

يترك مصطفى كرسيه:

– اقعدي يا نوشا، أنا كده كده هجيب سجايري من الأوضة كمان.

يغادر البلكونة ويتركهما معًا.

لحظات الصمت تكسرها نوشا بفضول غير مُعلن:

– وحضرتك من فرع العيلة اللي في الصعيد ولا من الفرع الإسكندراني؟

– عيلتي من إسكندرية.

– آه، من طرف الست آسمين.

– إنتي شغالة فين يا نوشا؟

– اشتغلت حاجات كتير، وقفت في محلات وسط البلد وفي مطاعم.

– ودلوقتي؟

– شغاله في (إيليت). عارفاه؟

– آه... أكيد طبعًا.

نوشا تصب فنجان مصطفى بعناية...

زينة:

- فنجانه فيه عين.

نوشا:

- لا، دي سُرة فلوس.

- لا لحد الفنجان ومعلش بقى، دي عين.

- بتعرفي في الفنجان؟

- وبفتح كوتشينة وودع كمان.

- اللهم صلي ع النبي. كانت سِتي أُم أُمي بتفهم في الحاجات دي جامد، بس هي كانت كودية زار.

زينة تضحك:

- لا ماوصلتش لكده، أنا بس بأقراه تفاريح. خلصي فنجانك وهاتيه.

- والنبي صحيح؟

- آه صحيح. اشربي كده برواقة وهاتي اقرأهولك.

يدخل مصطفى مُشعِلاً سيجاره، وفي يده سكين ليبدأ في تقطيع البسبوسة، ويعرض على زينة التي تشير أنها تكتفي بباقي الشيكولاتة. ثم تقول له:

- شكلك مختلف بالسيجار.

نوشا:

- بيشربه ساعات عندنا لما يكون بيقرا.

زينة:

- شهريار أوي في نفسك.

مصطفى يضحك:

- ده حسب رؤيتك لشهريار.

- حسب برضه رؤيتك للمنوجامي.

مصطفى ضاحكًا:

- لا إنتي دماغك راحت لبعيد.

نوشا:

- لامؤاخذة مش فاهمة النُكتة.

مصطفى:

- ماتشغليش بالك إنتي يا نوشا.

- لا أنا مش شاغلة بالي أصلاً... أنا هدَّخل الفناجين.

زينة:

- لا استني، مش لما ننفذ اتفاقنا الأول؟

مصطفى:

- الله دا في اتفاقيات كمان.

زينة تكفي فنجان نوشا:

- هقرالها الفنجان.

مصطفى بنظرة تعجب:

- ده في مواهب لسه ماكتشفتهاش.

- هو إنت لسه شوفت حاجة.

تسحب زينة فنجان القهوة تقلبه بين يديها... يعلِّق مصطفى:

- سِكة سفر؟

- ولا هتتحرك من إسكندرية.

نوشا:

- خالص؟

- أخرِك القاهرة.

- وإيه كمان؟

- ولد واحد وجوازتين وحُب واحد.

- يا لهوي، وإيه كمان؟

- واحد طويل واقف بجنبه.

- وده معناه إيه؟

- يعني ولا واخده وشه ولا آسفة في اللفظ؛ قفاه.

- طيب والستر والصحة؟

- الحال زي ما هو، أوله زي أخره.

- طيب والعمر؟

- العمر مش في الفنجان، بس مش أطول من عمره.

- عمر مين؟

- اللي واقف في الفنجان بجنبه ومفرع لأخره ورجليه ضاربة في قلب الفنجان.

- ربنا يديله الصحة وطولة العمر.

تمد زينة إصبعها في الفنجان وتضع من أثر القهوة ما يُشبه الشامة إلى جوار شفة نوشا على الخد الأيسر.

- وده إيه ده يا ست زينة؟

- حسنة زي اللي عند ابنك.

- أيوه صحيح يا ست زينة عنده حسنة هنا.

- جدتك كانت بتعمل كده؟

- ولا عمرها.

- عشان هي كودية زار فيمكن متعرفش.

تكمل زينة:

- الولد تعبان.

- يا حبيبي آه، بس بتابع في مستشفى مع دكتور أعصاب.

يتدخل مصطفى:

- ماحكتيليش يا نوشا... ماله خير؟

- ماتشغلش بالك، بيتعب شوية ويفوق ويبقى زي الفل.

يستند مصطفى بظهره للكرسي، فيما تضع زينة الفنجان.

نوشا:

- طيب أنا هستأذن يا مصطفى بيه.

زينة:

- لا لا، أنا كده كده كنت ماشية.

- خلاص هتمشي؟...

ثم يكمل:

- طيب هشوفك إمتى؟

زينة ونوشا تردان معًا:

- قريب.

زينة:

- إنت تقصد مين؟

مصطفى المتورط:

- مممم إيييه، إنتي.

- يمكن قريب.

مصطفى بخجل:

- وإنتي يا نوشا، أنا متشكر طبعًا بس أكيد يعني....

تقطع نوشا وصلة الحرج:

- أنا هبقى أعدِّي على حضرتك وقت تاني الصُّبح. لازم أرجع

لوهبة عشان سيباه لوحده مع أمي. وكمان عندي شغل... بالإذن أنا يا مصطفى بيه. وفرصة سعيدة يا ست زينة، وشكرًا على قراية الفنجان.

- أنا أسعد يا حياة... قصدي يا نوشا.

تنصرف نوشا محرجة بخيبة أمل، وتلحق بها زينة بملامح غير المعتادة... يلحق بها مصطفى:

- استنى.

يقف كليهما لبُرهة، بينما تقرر نوشا بذكائها الاجتماعي أن تُكمل المسير إلى خارج الشقة، فقطعًا ليست هي المعنية بهذا الطلب.

تقف زينة، فيقول لها:

- هنزل أوصّلِك.

- لا، أحب أروّح لوحدي.

- خلاص، بكرة على إمّة الزغاليل.

- يمكن.

تنصرف زينة، ولا يسمع لها صوت نزول على السلم. ويبقى مصطفى وحده مع ٤ زجاجات من البيرة ونصف كيلو بسبوسة وثلاثة أرباع من شيكولاتة روكيت، ومحمد فوزي يشدو (ليا عشم وياك يا جميل) ولسان لهيب السبرتاية يرقص ما بين فناجين القهوة الفارغة.

(٢٠)

الخطيئة... باغية المعبد

الإسكندرية

صباح اليوم التالي

الفراغ؛ المادة الخام للملل؛ يسيطر على مصطفى الذي يقرر الخروج من منزله متخليًا كعادته عن سيارته. تقوده قدماه بالفطرة من شارع سيزوستوريس إلى شارع الكنيسة المرقسية ليسير في شارع سعد زعلول يراقب وجوه المارة بحثًا عن وجهها بينهم. كالمعتاد في تقاطع شارعي صفية وسعد زغلول يقرر أن يحتسي قهوته في فندق متربول المُطل على ناصية الشارعين (إمَّة الزغاليل) فالفندق يكشف الشارع بوضوح بنافذته الزجاجية العالية بارتفاع مناسب للمراقبة ورؤية واضحة تسمح لك بتفحص المُشاة بشكل أوضح.

يجلس ويطلب قهوته المعتادة. يطالع الناس بعينين تبحثان عنها. يمر الوقت وفنجان القهوة تبعه الآخر أحرق معهما كمًّا كبيرًا من التبغ الملفوف في سجائر المارلبورو.

فراغ يملأ حياة مصطفى في المطلق، والفراغ يولِّد الملل، والملل يتبعه شعور بالبحث عن السعادة، وكثيرًا ما تضل الأرواح وتخلط بين مفهومين السعادة واللذة، فكثير من الرجال تقودهم الوحدة والفراغ والملل بالتبعية للبحث عن الجنس بدلاً من البحث عن الشريك. يُستثاروا من أبسط الأشياء، وإن كان خلف هذه الإثارة ليس الرغبة في ممارسة الجنس وإشباع الرغبات بقدر ما هو بحث الروح عن شريك مثالي مناسب يؤنس تلك الوحدة ويملأ الفراغ ويكسر صمت الملل، ولكن كثير من الرجال يُخطِئون في تأويل مشاعرهم وفهم وإدراك لغة أرواحهم، ويظنون أنه مجرد احتياج مادي، فالبعض ممن يعانون الوحِدة يُصابون بهوس جنسي من نداءات الجسد المتكررة الملحة لشريك، تمامًا كما يزيد وزن بعضهم لتناولهم كميات أكبر من الطعام أثناء كسر مللهم وملأ فراغ أوقاتهم بتناول وجبات أكبر ولمرات أكثر والنوم لفترات تفوق احتياجاتهم.

دارت عينا مصطفى الذي اعتراه الملل يتابع أجساد بعضهن، يُشعل سيجارة تلو الأخرى متلصصًا خلف نافذه متروبول، فلقاؤه الأخير بنوشا قد مرَّ عليه فترة كافية لتعيد له كثيرًا من حيويته ورغباته الذكورية المُلِّحة لرجل ذي تجارب متعددة في مثل عمره.

في وسط ملاحقته بعينيه النساء اللواتي لا يعرفن أن أحدهم

يطالع أجسادهن؛ يلمح زينة تأتي من بعيد، فيكفّ فورًا عن البحث، بل يخجل وكأن مراهقًا قد اكتشف أن أباه يراقب خلوته.

ببنطال جينز أزرق وكنزة بيضاء تسير زينة تحمل حقيبة صغيرة، تعبر الشارع، ينتفض مصطفى من جلسته، يترك ثمن القهوة مُضاعَفا ويخرج خلفها مُقتربًا منها...

– فنجانين قهوة وعلبة سجاير.

تلتفت له بوجه غير مبتسم:

– دول إيه ان شاء الله؟

– تكلفة إني قاعد مستنيكي من أكتر من ساعة.

– قصدك تكلفة إنك جيت بدري تدوّر على حد مش مديلك ميعاد أصلاً.

يسير بجوارها...

– شكلِك زعلانة.

– وأزعل ليه؟

– ليه معرفش... بس ماشفتش الضحكة اللي متعود عليها.

– لا حاول متتعودش على حاجة لأن مفيش حاجة بتدوم.

– واللهجة دي كمان جديدة.

– بجد مش زعلانة، ما أنا نازلة بتمشى عادي زي كل يوم.

- أنا بصراحة خايف تكوني زعلانة لما قابلتي نوشا عندي إمبارح.

- قصدك حياة؟ وأديك إنت قولت أهه؛ إنت اللي خايف أكون زعلت، بس صدَّقني أنا مازعلتش لأنها حاجة ماتزعلنيش.

- متأكدة؟

- جدًا... يا صديقي دي اختياراتك إنت، وماتخصنيش.

- طيب كنتي رايحة فين؟

- مفيش، بتمشى عادي وكنت هطلع على شارع النبي دانيال أدوَّر على حاجة تتقري. بحب أتمشَّى هناك جنب المعبد.

- معبد؟ معبد إيه؟

- معبد الياهو اللي في شارع النبي دانيال.

- آه عارفه. بس اشمعنى؟

- يعني عادي. تخيل إنت تنزل تتمشَّى أقل من نُص ساعة تعدّي جنب مسرح روماني ومساجد بقالها قرون ومعبد يهودي وكنيسة من عمر المسيحية نفسها وسفارات وقنصليات لإيطاليا وفرنسا وتشوف البحر وتتفرج على أفيشات سينما لأفلام من كل الدنيا. تحس إنك لفيت العالم تاريخ وجغرافيا، حاجة حلوة صح؟

- بس أنا بصراحة كنت جاي عشانك إنتي.

زينه مبتسمة:

- يا سلام؟

- وحياة الضحكة دي جاي عشانك إنتي... مش إنتي قولتي أنا حر في اختياراتي، فاخترت إني أنزل أدوَّر عليكي.

- هو إنت يومك عامل إزاي؟

مصطفى يحك رأسه:

- مُمل... مُمل جدًا.

- طيب ما تعمل حاجة بتحبها. ممم، ارسم مثلاً.

- تصدَّقي الصبح قولت هبدأ أكمِّل في أي لوحة من اللي ماكملوش دول وابدأ أخلَّص فيها.

- طيب ده حلو، وقفت ليه؟

- ساعات مابقاش عارف أبدأ بمين ولا منين.

- طيب خليني أساعدك.

- يا ريت.

- قولي في الأول اللوحات اللي مش كاملة، لوحات إيه؟

- كتير. بُصي أغلبها لوحات مستوحاة من شُغل فنانين ورسامين قُدام بعمل إعادة مُحاكاة ليها من وجهة نظري أنا، لأن الفن العالمي تقريبًا ناقش بالرسم كل حاجة من أول آدم لحد النهاردة.

- كويس نبدأ من الأول؛ من آدم.

- عندي لوحة عن آدم لسه ماكملتش.

- مستوحاة برضه؟

- آه أكيد... بُصي، في لوحه شوفتها في متحف ديلبرادو في مدريد اسمها (سقوط الإنسان) شدتني جدًا واستفزني أعيد تنفيذها، وفيها ملمح مختلف.

- حمستني. إيه المختلف فيها؟

- أولاً اللوحة مش متأكدين مين رسمها، ناس تقول (روبينز) وناس تقول لا ده شغل (ماندير)، والاتنين تقريبًا من نفس المدرسة.

زينه ضاحكة:

- هو دايمًا موضوع بدايات الخلق ده فيه اختلاف حتى في لوحات توثيقه... المهم كمِّل.

- اللوحة ألوانها وتفاصيلها مُلهمة، مرسوم آدم وحوا بأجساد مش مثالية، عند الشجرة ملاك هو اللي بيناول التفاحة لحواء اللي بتمد إيدها الشمال تاخدها، والتفاحة لونها دهبي.

- مافكّرتش مرة إن يكون آدم هو اللي غوى حوا، مش العكس.

مصطفى مفكِّرًا:

- هو تصور جديد... لا هو تصور عبقري.

- طيب وآدم في اللوحة دي كان إيه وضعه؟

- آدم عينه ع المشهد وموجِّه إيده لاتجاه صدر حوا، وتحت حوا قاعد تعلب صغير وغصون الشجرة تشبه التعابين أكتر منها الفروع، ورق التوت بطل في الصورة، وخلف آدم بغبغان بس راسه أقرب لطير جارح... صورة كده تخليكي تفكري بأكتر من منظور.

تقف عاقدة يديها تنظر له منصتة باهتمام:

- طيب اللي قولته ده يحمِّسك كفاية إنك تكمِّل اللي بدأته.

- ساعات الملل بيحوِّل حماسك لإحساس باليأس وتقولي: طيب وبعدين؟ حتى لو خلّصت اللوحة.

- طيب لو خلّصت اللوحة هآجي أتفرج عليها، وأقارن بينها وبين اللوحة الأصلية، وأشوف إنت أضفت إيه للفكرة... بس بشرط...

- أؤمري.

- نشرب قهوة من بُن حمدي.

- أهو ده دافع هايل بالنسبالي.

- بس تخلّصها وتركز فيها... فيها وبس يا عم الفنان الزهقان إنت.

- وهتيجي؟

– يمكن لو وفِّيت هوفي.

– طيب أمشي معاكي وبعدها أروح أكمّل...

تقاطعه:

– لا، كده يبقى أنا بضيَّع وقتك. كمِّل اللي بدأته، التمشية مش هتطير. وأنا كمان كنت مروحة.

مصطفى ممتعضًا:

– طيب خلاص هخلصها عشان نشرب القهوة سوا وأسمع رأيك.

– اتفقنا. وأنا هعتبر الوقت اللي بترسم فيه وقت تحدِّد فيه اختياراتك، ولو خلصت هتلاقيني معاك بشرب القهوة وأوعدك هقولك رأيي بصراحة... أشوفك على خيريا فنان.

تنصرف ملوِّحة له، فيبادلها التحية وينصرف هو الآخر متجهًا إلى منزله.

يدخل شقته، ويخرج اللوحة المنشودة غير المكتملة. كان قد أنهى رسم آدم والشجرة، وقرر أن يجعل الملاك مُراقِبًا، وأن يمد يد الشيطان لتناول حواء التفاحة. وقرر استبدال الببغاء بغُراب يحفر في الأرض، وجعل غصون الشجرة أقرب للطبيعة، وبدَّل الذئب بثعبان.

لم يكن انتهى من رسم جسد الأنثى، فخلع كنزته وخلط ألوانه وبدأ في رسم جسدها، وجعلها أكثر مثالية، وكأن رغبته قادت

إبداعه ليرسمها أكثر إثارة فأعطاها جسدًا ممشوقًا أكثر من الفنان الأول، بخصرٍ منحوتٍ ومتناسق.

أخذه الرسم لساعات طويلة، حتى قاطعه طرقٌ على الباب...

فتح بصدرٍ عارٍ وبنطاله الجينز، ليجد نوشا تقف أمامه بفستان يُظهر كثيرًا من مفاتنها، وعنقها تزّينه السلسلة التي اشتراها لها، وقد صبغت شعرها بلون يميل إلى لون اللهب زادها إثارة، وساقاها تقفان في الفستان القصير فوق حذاء بكعبٍ عالٍ...

تدخل، وتغلق الباب وراءها:

- يا رب تكون لوحدك.

- في العادة أنا لوحدي.

- مشغول؟

- بارسم.

- أمشي؟

- لا طبعًا اتفضلي.

يدقُّ كعب حذائها فوق خشب الباركيه مع ضربات قلب مصطفى، حتى يقفا أمام اللوحة...

- برضه ستات عريانة؟

- وإيه المشكلة؟ ما هي خلقة ربنا.

- لا بصراحة الفن ساعات بيكون فيه أباحات. بس تعرف؟

حلوة، يعني ماتاخدنيش يا سي مصطفى أنا معلقش حاجة كده في بيتي أتكسف، بس مع اللي بحبه وواخدة عليه عادي.

– دي أجسام بشر مش أباحات.

– لا برضك ساعات كده تلاقي الجماعة الفنانين بيقولوا كلام مايصحش.

– زي إيه؟

– طب أنا أُمي كانت تُقعد تغنِّي أغنية لـ(منيرة المهدية) بتقول: ماتخافش عليا أنا واحدة ساجوريا.

– واحدة إيه؟

– ساجوريا، يعني البنات اللي بيشتغلوا في الدعارة اللي مكشوف عليهم ومترخصين أيامها.

مصطفى ضاحكًا:

– بس دي لوحه لآدم وحوا.

– أستغفر الله العظيم. أنا مش عارفة إنت بتجيب القلب الميت ده منين؟

يستمر في الضحك:

– تعبيري يا نوشا، فن تعبيري مش بورتريهات يعني كده وكده.

– طيب قول لوحة راجل وست بلاش أسامي.

– طيب يا ستي، راجل وست.

يعود مصطفى مفكِّرًا في لوحته، ثم يطرأ في باله سؤال:

- تفتكري مين يا نوشا اللي غوى التاني؟ مين قال للتاني وشجَّعه ياكل من الشجرة؟ آدم ولا حوا؟

- حياة النبي بلاش أسامي. أنا ماشيه معاك آه، غلط عارفة... بس بلاش الأسامي لربنا يسخطنا نسانيس وإحنا واقفين.

مصطفى ضاحكًا:

- طيب. مين يقدر يقنع التاني بالحاجة الغلط، الراجل ولا الست؟

نوشا باندفاع:

- الرجالة طبعًا. الستات غلابة، كلمة توديهم وكلمة تجيبهم.

مصطفى ينظر بطرف عينيه:

- متأكدة يا نوشا؟

- زي ما بأقولك كده، شد إنت أي واحدة عازبة من دراعها وقولها عينيكي وقوامك وجمالك وطبطب عليها هتلاقيها طوعك.

- وإنتي يعني لو سحبتي راجل من دراعه بالفستان ده مش هيروح معاكي.

- لا، هييجي. بس هيخلّص وهيمشي مش هيستنى يا مصطفى، إنتوا بتشتروا سمك في مية، تخلصوا وتمشوا، لكن إحنا غلابة، بنربِّي ونفضل نستنى الكلمة ونصدق الوعد.

- تكسبي يا نوشا.

تقترب منه وتضع يديها فوق صدره:

- طيب ومش عايز حد يغشّشك جسم الست عامل إزاي؟

- يعني أنا أقول آدم وحوا يبقى أستغفر الله العظيم؟ لكن إنتي تغششيني عادي؟ ثم أنا بحاول أجيبه من خيالي.

- طيب وخيال ليه طالما في بجد؟

- أصل أنا لو بدأت أغش مش هكمِّل امتحان الرسم وهسقط.

نوشا بضحكة رقيعة:

- بس هتنجح في الأحياء يا باشمهندس.

يضحك مصطفى، بينما تفتح هي قفل فستانها ليسقط على الأرض وتقف شبه عاريه أمامه وهو يبتلع لعابه. يجلس على كرسي الرسم أمام لوحته بينما تحاكي نوشا وضع الأنثى في اللوحة...

- هي واقفة كده صح؟

- مش بالظبط.

تخلع ما تبقى من ثيابها وتقف بالحذاء عالي الكعب فقط...

- طيب وكده؟

- فكرة تجنن إنها تبقى لابسة جزمة بكعب.

تضحك نوشا وتنقض على مصطفى تقبِّله... وطنين صوت زينة في أُذنيه يحول بين روحه ورغباته. للتو وعدها أن يختار...

للتو وعدها أن يُكمل لوحة السقوط... للتو وعدها أن يعيد رسم الخطيئة الأولى من جديد... ولكن يبدو أن آدم هو الوحيد الذي قد وفَّى بوعده، وكل من خلفوه من الرجال سقطوا ولم يوفوا بعهودهم.

يحاول مصطفى أن يثبت ويختار ولا يسقط، وإن لم يكن (يوسف)... وإن كان يوسف قد همَّ بها لولا أن رأى. وإن كانت نوشا ليست الخطيئة وإبليس لم يكن يومًا هو المعصية ذاتها، فبنو آدم هم من كانوا يقترفون الآثام بمحض إرادتهم ورغبات نفوسهم.

تهمس نوشا في أُذنيه:

- متيجي نسيب البلد دي يا مصطفى.

- نسيب إسكندرية؟

- وماله، نسيبها ونروح مصر.

- وإحنا في هولندا؟ ما إحنا في مصر.

- لا، أقصد القاهرة، كايرو يعني.

مصطفى ضاحكًا:

- واشمعنى كايرو؟

- ناس تانية وبداية جديدة.

- عشان نعمل إيه؟

- ناخد شقة تانية، وعارف نعمل ركن فيها بارخصوصي.

- وأملهولك ويسكي بدل منقوع البراطيش اللي حارق صدرك.

تلصق صدرها في جسده:

- مايستاهلش؟

يستشعر بشرتها فوق صدره العاري، يستسلم لقُبلاتها الساخنة، يغمض عينيه، ونوشا تعرف تمامًا كيف تستدرجه...

ينزلق

يقاوم

ينزلق

يتشبث

ينزلق

يهوي

يسقط

يحملها إلى غرفة النوم ليُطفئ فيها كثيرًا من لهيب رغباته التي ولَّدها الملل بفعل الفراغ نتيجة الوحدة.

علاقة لم تكن مثالية هذه المرة. أنهى مصطفى مبكرًا واستدار مُنهكًا يستشعر ذنب لم يكن ذنبًا من قبل، يستشعر خطيئة هدم الوفاء بالوعد.

بينما بقيت نوشا مُشعلة سيجارتها تنظر إلى سقف الغرفة بانتصار مبتسمة، ليس من فرط النشوة الجسدية هذه المرة،

ولكن لكونها حقّقت الهدف من زيارتها، إنها نشوة الانتصار، أرادت أن تُثبت لذاتها أنها قادرة على اشعال غرائز مصطفى وأن ضيفة الأمس كانت مجرد امرأة غادرت دون أن تُطفئ شيئًا من نار وحدته، وأن اللذة كثيرًا ما تحل محل السعادة.

على الجانب الآخر من السرير غلب النوم مصطفى فاستسلم له، وسارت روحه في عالم موازٍ؛ عالم الأحلام...

رأى نفسه يقف مُراقِبًا فتاة غجرية بشعر أحمر وفستان كالذي ارتدته نوشا، وجسدها تمامًا كجسد نوشا، وذات وجه يحمل ملامح كل النساء... وهو يراقبها مُتخفيًا كذئب يراها من حيث لا تراه وهي تسير بين شجيرات التين ذات الأشواك التي تعلق أشواكها بثوبها، وهناك على الربوة القريبة شجرة التفاح، تستميل الروح وتسر الناظرين.

يهمس لها أن سيري إلى شجرة التفاح فخطواتك ستكون أسعد حينما يحتضنها ذاك العشب الغض المحيط بالشجرة. تسير طواعيةً إليها وهو لا يزال يهمس: لا تنحني إلى التين يومًا وارتقِ إلى ثمار التفاح.

تسير مجذوبةً تتجاهل ما يعلق بثوبها من شوك شجيرات التين المصفوفة في طريقها والتي تحاول عبثًا منعها من الوصول إلى الشجرة. أما هو فيحوم حولها يهمس لها وكأنه يسري بداخلها، يلحقها بخطواته، يشم خصلات شعرها. خطواته

ما إن تطأ خضار العشب حتى تجعله كهشيمٍ بالٍ وكأن قدميه أميال من صحاري عطشى لا تُبقي شيئًا حيًّا إلا أهلكته، تقتل مفهوم الحياة أينما وطأت.

يستمر في الهمس في أذنيها أن سيري إلى شجرة التفاح، يختلس منها المستقبل ليصنع ماضٍ جديدًا.

كل شيء مهيأ بدقة، فالشمس تعكس نورها عمدًا على أبهى ثمرات الشجرة لتبرق في عينيها الجائعتين الطامحين فتزيد روحها جوعًا. ونفس ذات الشمس تعكس نورها على شعرها الأحمر الناري لترسمها في عينيه الأنثى في أبهى صورة... فلا تعلم من أرادت أن تغوي الشمس؟ أتُزيّن الثمرة في عينيها فتثير غريزة جوعها؟ أم تزيِّن الفتاة في عينيه لتجعل منها ثمرة ناضجة الجسد كتمثال لربَّة يونانية من رخام خمري مكتمل الأطراف والأوصاف لو سقط عنه ثوبه الغجري لوُضِع في أعظم ساحات الملوك كمنحوتة خلت من العيوب. فما بالك بتمثال أُنثى به روح أُنثى؟ قد يوصِّلك إلى بلاط الملوك بل وعروشهم.

عينها الفطنة بالفطرة التي تدربت من السعي في ظلال الغجر لا تنتمي إلى وطن، فالأرض كلها فِراش والسماء كلها غطاء، وذاك الدلال الذي تتحرك به وكأنها بنت الطبيعة البكر.

تمر إلى جواره دون أن تراه أو تلتفت إليه، عيناها معلقتان على

ثمرة التفاح تلك التي تبرق في ضي الشمس المحايدة كياقوتة حمراء وسط أوراق الشجرة الكثيف، تقف تحتها تمامًا، ترفع عينيها إليها وتمد يدها لتصل إلى الثمرة دون جدوى، فترفع كعبها الناعم عن الأرض اجتهادًا كي تصل، ولكن أيضًا دون جدوى.

يعود كعباها بغضب إلى الأرض، تضع يديها في خصرها وهي تزفر بغضب، فيظهر هو من خلفها قائلاً:

– هل تسمحي لي بـ....

تفزع وتلتفت إليه، وتتنحى عنه خطوتين إلى الخلف، بينما هو يباغتها قائلاً:

– عفوًا لم أقصد إخافتك.

تضع يديها على صدرها وهي تلتقط أنفاسها من أثر الفزع وتقول:

– كدتَ تقتلني من الخوف. من أنت؟ ومن أين ظهرت؟

مبتسما يبسط كفيه؛ أن اهدئي، ويقول:

– أنا هنا منذ البداية، ولكن أنتِ من لم تلتفتي لوجودي، فعياكي كانت معلقتين على ثمرة التفاح تلك، فلم تلاحظي وجودي... هل تسمحي لي أن أساعدك؟

تومئ قائلة:

– حسنًا، ولِمَ لا؟

تشيرإلى تلك الثمرة في منتصف الشجرة، وتُكمل:

- هل تساعدني وتأتي لي بتلك الثمرة؟

ينظرللثمرة ويقول:

- تبدو بعيدة بعض الشيء، ولكن أعدك أن أجلبها لكِ. لكن...

تنظرله:

- لكن ماذا؟

- هل يمكنكِ أن تساعديني أنتِ أيضًا؟

ترفع حاجبيها:

- لو استطعت سأفعل. كيف لي أن أساعدك؟

- أنا غريب لست من هذه الأرض،وأريد من يدلني على المعبد.

هي ضاحكة:

- حسنًا، المعبد... لا أعلم.

- ما المُضحِك؟

- المضحك هو قصتي مع المعبد، أو بالأحرى مع المعابد.

- وأنا مهتم أن أسمعها.

تميل برأسها:

- حسنًا. كنتُ حينما نزورأي أرض جديدة مع عشيرتي من الغجرأسأل عن المعبد....

هو باندهاش:

- لماذا؟

- دائمًا ما يستهويني الكهنة.

- الكهنة؟

- نعم، بثيابهم المميزة الزاهدة ورؤوسهم الحليقة، ممن تركوا الدنيا من أجل حياة أفضل في السماء... كنت دومًا ما أضع رهانًا على أحدهم أنه سوف يسقط معي ولن تحول ثيابه ورأسه الحليق وشعائره دون رغباته.

تقترب منه هامسة:

- هل تعرف ما كانوا يسمونني بين عشيرتي؟

- لا. كيف لي أن أعلم؟

- كانوا يسمونني (باغية المعبد).

هو ضاحكًا:

- باغية من البغي أم الابتغاء؟

- كلاهما، كنت أبغيه للبغاء فصِرتُ باغيته.

- وماذا عن هذه المدينة؟ هل تعلمين أين معبدها؟

- لا أعرف مكانه. ولكن اسمع، لو دخلت المدينة قد تجده هناك فهي تبعد مسيرة نصف يوم من هنا تمامًا في عكس اتجاه الشمس فلو تبعت ظلك حتى منتصف النهار سوف تبلغها.

يرد مندهشًا:

- أحقًا لا تعلمين أين المعبد؟

- لا حاجة لي الآن بالمعبد فلم تعد اللعبة تستهويني كما سبق، ونحن من الغجر لا نبقى في أرض واحدة لفترات طويلة، وما لأهل المعابد بحاجة لنا فهم لا يستمتعون بما نجلبه للناس، ولا حاجة للغجر بأهل المعبد فلا درهم لديهم يمنحوننا إياه بعد أن نُقدِّم ما لا يرغبون في رؤيته.

- وهواياتك القديمة؟

- لم يعد يستهويني الكهنة كما كان، ففرسان القصور ورجال البلاط صيدٌ أسهل.

تعود للنظر إلى ثمرة التفاح من جديد، وتقول:

- لو أنني في مكانك لاخترت أن أكون من هؤلاء الذين لا يكترثون بوجود المعبد.

يبتسم لها ثم يلوِّح مودِّعا، ويقول وهو منصرف:

- حسنًا، أشكرك على النصيحة.

وما يلبث في الانصراف، حتى تصيح به قائلة:

- أنت يا هذا... ألا تحترم وعدك معي وتساعدني في جلب تفاحة؟! أم أنك مثل باقي الرجال تُنهي الحديث حينما تريد أنت أن تنهيه وتنسى عهدك.

يومئ لها برأسه وعينيه كي تنظر إلى الأرض تحت قدميها، فإذا

بتفاحتين تحت قدميها مباشرةً. تنظر إليه بشيء من الدهشة وتنحني لتلتقط الثمرتين وتضعهما في حزام خصرها، فينحني لها من جديد في صمت ويستدير في عكس اتجاه الشمس، وهي تقف تنظر إليه وهو يأخذ خطواته مبتعدًا عنها. ثم تعاود النظر من جديد إلى تلك الثمرة التي تتوسط الشجرة، تلك الثمرة اللامعة. فيما هو يختلس ببؤبؤ عينيه النظر إليها منتظرًا أن تناديه من جديد فهو يعلم أن الجوع سرى بداخلها... فتناديه:

- أنت... يا هذا...

يستدير لها بهدوء مقتربًا منها، فتقول:

- هذا ليس عدلاً، لقد دللتك على الطريق وأسديت لك النصيحة، وأنت لم تفعل إلا أن أومأت لي برأسك على ثمرة قد سقطت من الشجرة، وهذه الثمرة لا أرغب بها.

يقترب منها مبتسمًا:

- كان الاتفاق فيما بيننا أن تدليني على وجهتي مقابل ثمرة من التفاح، وأنت لم تدليني على المعبد.

- ولكنني دللتك على المدينة.

- وأنا دللتك على التفاحة.

- ولكنها ليست ما أبتغي.

- تقصدين هما، فهما ثمرتان وليست واحدة. والمدينة أيضًا

لم تكن ما أبتغي.

هي بشيء من التحفز:

– ليس هما ما أريد.

ثم تشير بيدها إلى الثمرة وتقول:

– تلك التي أريدها.

هو مبتسمًا:

– حسنًا، فلتتركي الثمرتين الأُخريين وسأساعدك في جلب تلك.

– هي ليست شجرتك لتقرر ما آخذ أو أترك.

– وليست شجرتك أيضًا لأساعدك على أخذ ثلاث تفاحات منها... ولكن لا عليكِ سوف أساعدك.

تصمت للحظات ثم تبتسم:

– أنت تُشبههم، تجيد التفاوض مثلهم.

– من هم؟

– أصحاب الأراضي الفارغة الخربة على أطراف المدينة، نستأجر منهم الأرض، فدائمًا ما يفاوضوننا على التراب بالذهب، مع العلم أننا لا نأخذ من ترابهم شيئًا عند رحيلنا، وفي غالب الأمر لا نعود له أبدًا.

يقترب منها:

– وأنتم أيضًا، ألا تخرجون الذهب من جيوب المارَّة؟

تقاطعه:

- لا. نحن نعطيهم السعادة أو القليل منها، ثم نتسول بالرِّق والدُّف فنطوف عليهم كقطط الشوارع التي تريد أن تقتطع من قمامة بيوت المُعدمين.

يرد ملوحًا بسبابته:

- لأنكِ لا تعرفين قيمة ما تقدمينه ولا إلى من تقدمينه، فالتاجر الناجح هو من يُثمِّن سلعته ويزيد سعرها ويختار الصفوة لها كي يشتروها، فلا حاجة لكم بحفنة من الرِّعاع تلتف من حولكم كي يعطوكم فتات ما تبقى من فتاتهم.

هي بانتباه:

- وهل نملك ما نبيعه لغيرهم من علية القوم؟

هو مبتسمًا:

- نفس السلعة؛ السعادة.

يدور من حولها وهو يقول:

- السعادة للرِّعاع ليست إلا رفاهية قد يستغنون عنها بثوب جديد خالٍ من الرُّقع، أو بقدح من الزيت قد يُشعرهم بالدفء أو بالشبع فهما أهم عندهم من السعادة، أو يمكنك القول إنهما هما السعادة نفسها، الجوعى لا يضحكون وبؤس البرد لا يسمح لهم بالابتسام.

ترفع حاجبيها بشيءٍ من الاقتناع، بينما يقف هو من خلفها

يسهب قائلاً:

– ضحكة الرعاع قد تصنعيها برغيف تقدمينه له، ولكن ترى كم يدفع الملك لكي يضحك؟؟ هناك تكون الابتسامة تعني صاعًا من الذهب، وإسعاده قد يعني وزنك ذهبًا.

تتسع عيناها بابتسامة طامحة وهي تجدل إحدى خصلات شعرها وتقول:

– أنت شيطان.

يبادلها الابتسامة، فتسهب بسؤال تقطع به شرود عينيها قائلةً:

– ترى كم يساوي وزني من الذهب؟ فقطعتان من الذهب عليهما وجه الملك قد تُطعِم معشر الغجر شهرًا كاملاً.

يقترب منها وهو يقول:

– دعيني أخبركِ سِرًّا: لن تحصلي يومًا على وزنك ذهب طالما تفكرين في الغجر وطالما تقدمين سلعتك للرعاع وجنود يقفون خلف أسوار القصور. فالغجر قد يكونوا وسيلتك لتصلين يومًا إلى ما تبغين، ولكن عند وصولك عليكِ أن تفكِّري في كل شيء من جديد.

ترد بشيء من البديهية:

– ولكنهم أهلي.

– معكِ حق، الأهل سند وقوة وسطوة. ولكن حدثيني عن

شقائك وسط أهلك في كل ترحال، وعن أول مرة خاطروا بكِ كطفلة لتنفثي النار من فمك كالتنين كي يصفِّق لك الرعاع، وعن كل مرة امتدت لك عيون الرعاع وأياديهم كي تطال ما تستطيع من جسدك دون حِراك منهم. لو جاع الغجر قد يبيعونك يومًا ما لكي يسدوا جوعهم ويملأوا خواء بطونهم بقطعتين من الذهب عليهما وجه الملك المتجهم، الغجر كُتِب عليهم التيه دومًا ولن يصلوا أبدًا.

تصمت الفتاة وتعود تُعلِّق عينيها من جديد بثمرة التفاح. فيضع يده على كتفها ويقول:

- حياتك كتلك الثمرة، إن قطفتِها أنتِ فاعلمي أنها لكِ وحدك فتفاحة واحدة لن تُطعم معشر الغجر ولن تسد جوع الرعاع... هل مازلتِ ترغبين في تلك الثمرة؟

تومئ برأسها إيجابًا، فيمسك بيديها ويخطو بها حتى يقف تمامًا تحت الشجرة ويقول:

- سأرفعك لترتقي فتطال يديك ثمرتك وتقطفيها أنتِ بهما وتستمتعي بكل تفاصيل قطفها، وبعدها قرري إن كنتِ ستشاركين أحدًا في أكلها أم أنك ستأكلينها وحدك.

قرص الشمس يبدو كدائرة من اللهب دانية من الأرض، والمكان يبدو خاليًا إلا من ظل الشجرة وظليهما، فالشمس التي تقف خلفهما تراقب ما يحدث في حياد يجعل منهما مجرد ظلال تقف على الأرض، فتاة يحملها هو من خصرها وهي تمد

يديها إلى شجرة التفاح لتقطف ثمرة التفاح المتدلية، مجرد ظلال على التل البعيد. وكل انعكاس نراه قد يحمل تأويلات كثيرة مهما بدا واضحًا من الوهلة الأولى.

يداها تلمسان الثمرة. الآن تشعر بنعومة قشرتها التي لا تزال تنبض بالحياة، فكم هي غضة تكسوها بعض حبات الندى. تُحكم قبضتها عليها وتجذبها إلى الأرض فيلين الغصن كنوع من المقاومة الناعمة وينحني مع جذبها. تُحكم قبضتها على التفاحة... تسحب... بقوة أكبر... تبدو كمن يمسك قلبًا يحاول أن ينزعه من جسد لا يملك إلا المقاومة المرنة الصامتة.

تسحب أكثر... والشمس تدنو لتراقب المشهد عن كثب بنفس الحياد. فما تلبث إلا وتسمع صوت الغصن يستسلم وينكسر. تشعر بوزنها فوق راحتها.

يُنزلها برفق، فتقف ترفع التفاحة فيما بينهما وتنظر لها بابتسامة الانتصار. يقترب منها، يزيح يديها التي ترفع التفاحة وينظر في عميق عينيها، يقترب بشفتيه من شفتيها، ينفث بهدوء زفيرًا باردًا يسري بين شفتيها إلى فمها إلى روحها فيزيد من استسلامها. يقبِّلها بهدوء مثير ترتخي معه أعصاب أطرافها فتسقط التفاحة من يديها، وتسبل عينيها في استسلام أقرب للموت، وهو يمرر أصابعه بين خصلات شعرها فيلامس عنقها وأطراف أذنها. تسري قشعريرة في بدنها. يتركها وينحني يلتقط التفاحة، يقضم منها بأسنانه ثم يضعها في يديها...

- لا تدعيها تسقط من يديكِ أبدًا.

ثم يبتسم ويلوِّح لها مودِّعا ويشرع في الرحيل، بينما تقف هي تتحس شفتيها بأناملها وتقبض على تفاحتها وتقرِّبها إلى صدرها... لتبقى هي في المشهد وحيدة، حتى الشمس التي كانت تقف على الحياد توارت خلف الأرض البعيدة.

يستيقظ مصطفى من نومه ليجد أن نوشا قد غادرت، وأنه مستلقٍ وحيدًا على فراشه عارٍ... وقد قرَّرأن يعيد رسم اللوحة من جديد.

(٢١)

صندوق بريد... مطاوع

الإسكندرية

شتاء عام ١٩٨٠

في بار إيليت حيث تعمل نوشا، التي أوشكت ورديتها على الانتهاء، ونوشا التي صبغت شعرها باللون الأحمر مُجدّدًا لتُرضي أحدهم تبدو عليها علامات التوتر، فتحاول إخفاءها من وقت لآخر وسط ابتسامات مصطنعة على نِكات الزبائن طمعًا في إكرامية إضافية. فأحدهم لم يأتي بعد، ويبدو ان غيبته قد تطول في هذه الفترة، وتخشى أن تدوم.

ينتهي عملها، وهي لا تزال تقف خلف البار في وجوم، تمضغ علكتها بعصبية وتمسح بعض الكؤوس المغسولة للتو وتقوم برصِّها أمامها دون اكتراث، ليقطع وجومها (مطاوع): رجل خمسيني نحيف، يرتدي الزي الرسمي للمحل؛ البنطال الأسود والقميص الأبيض، ذو ملامح مختلطة يصعب تحديد هويته وفي نفس الوقت يُشبه كل من تعرفهم، يُشبه ممثلي السينما

ورجال السياسة والصعاليك وابن عمك وكمسري الترماي ومُدّرسك القديم، هو كل الخلائق في خلقٍ واحد، منمق إلى حدٍ ما بحكم المهنة، شاحب من كثرة السهر بحكم الوحدة، فأمثاله ممن كُتبت عليهم الوِحدة لا يجيدون فن النوم.

مطاوع:

- مالِك يا نوشا؟

نوشا التي تمضغ علكتها بعصبية:

- مالي يا عم مطاوع؟ ما أنا كويسة أهو.

- كويسة؟ هو أنا أعرفك إمبارح يا بنتي؟

- مشاغل يا عم مطاوع مشاغل

- عُذر بنات يا بنتي؟

- عُذر إيه يا راجل يا كهين يا حشري إنت؟

يسحب منها المنشفه ويضع الكأس من يديها:

- دا إنتي بتخلّصي شِيفتك وبتجري، إشمعنى النهارده؟ وعمَّالة تطرقعي باللبانة لما أكلتي وِدانا. هتقولي في إيه ولا أسيبك وامشي؟

- إنت عارف إن رافع بيه مات؟

- آه يا بنتي إسكندرية كلها عرفت هو شوية؟ الله يرحمه حصَّل صاحبه لسه مقتول من سنة، تحسِّي روحهم في بعض.

- على كده الأستاذ علاء ومصطفى مش هنشوفهم قريب.

مطاوع يجلس ضاحكًا:

- آاااه هي الحكاية كده؟

- حكاية إيه يا عم مطاوع ما تخليك دوغري فكلامك؟

- إنتي يا بت فاكرانا عُمي؟؟ ما البار كله عارف إنك غرقانة في الأستاذ درش.

- يا سلام... وده بأمارة إيه؟

مطاوع يبدأ في تلميع الكؤوس مُغنّيًا:

- مدام تحب بتنكر ليه؟ اللي يحب يبان فعنيه.

- هو كان باين أوي؟

مطاوع مُغنّيًا:

- يا مصطفى يا مصطفى أنا بحبك يا مصطفى، ٧ سنين في العطارين...

- ماترد يا عم مطاوع، إنت بجد أخدت بالك؟

- يا بت، يا بت... دا أنا كنت أقعد أبُصلك كده واتفرج على رواية الحب دي وإيدي على خدي ورا البار. كنت فاكر الحب خلص من الدنيا لولا إنتي وسهوكتك دي.

- طيب وهو؟

- هو إيه؟

– إنت مش عاملي خبير في العواطف... هو إيه؟

– هاتي مستيكة وسيجارة من المستوردة وأنا أقولك.

نوشا تُخرج من حقيبتها التي تضعها تحت البار علبة السجائر والعلكة تضعهما أمامه...

– اِغرف براحتك. راجل دني.

يسحب مطاوع عِلكة وسيجارة يشعلها ويضع الأخرى خلف أذنه:

– أديكي جاوبتي.

– جاوبت إيه؟ ما بلاش شغل اللف والدوران بتاع الموالد ده وخُش في الموضوع.

– والله إنتي جاوبتي بس صنف الحريم كده غاوي يغلِّب نفسه.

– جاوبت إيه يا جدع إنت؟ هات السيجارة.

مطاوع يبعد يده قائلاً:

– راجل دني.

– يعني إيه؟

– بيحبك، بس زي أي راجل ما بيحب ست وجاهز في أي وقت للحب اللي يرضيه هو وعلى مزاجه هو.

– سِكس يعني؟

– آه يا خواجاية يا ام بورنيطة؛ سِكس يعني، أنا متلقح هنا ليل

ونهار شُغلتي إن عيني ع الزباين، وعلى العُمال كمان، مصطفى باعرف كيفه في إيه من قعدته.

- طيب ما تقولي عشان أعرف.

- لو سرحان من الشِّباك يبقى مهموم، ولو ضارب عينه في كتاب يبقى تقصَّري في الكلام، ولو طلَّع ورقة وقلم وقعد يشخبط يبقى تخرسي أحسن، أمَّا بقى لو بيلِّف يدور على رِجل دي وصدر دي ولا مؤاخذة مصلحة دي يبقى الدكر اللي جواه هو اللي سايقه.

- طيب وإيه الجديد، ما كل صنف الرجالة كده؟ أنا بقي فين في الحكايه دي؟

- أنا شايفه بيبقي چنتل معاكي بزيادة وهو ولا في إيده ورقة ولا كتاب.

- يعني إيه؟

- يعني بيحبك لما يسوقه الدكر.

نوشا مبتسمة:

- وماله، أحسن من مفيش.

- يمكن أبوه مات وزعلان، بس هيروح فين؟ هيرجع.

- كده مش هشوفه قريب يا عم مطاوع.

- ساعات الحزن يحب السُّكر، والشُّرب مالهوش ميعاد ولو

كيفه جابه يبقى هيبجي، هيروح فين؟

– إلا هو إنت ماتجوزتش ليه يا عم مطاوع؟ إنت ماحبّتش؟

– مين ده اللي ماحبش؟ أنا صاحب أشهر قصة حب في بر إسكندرية كله.

تسحب نوشا يده وتُجلسه على كرسي أمامها، وتقلب كأسين وتنادي:

– يا عادل، صُب لي أنا وعمك مطاوع كاسين وأيّدهم عندي، شيلهم من حساب الأسبوع.

تلتفت لمطاوع:

– ها احكيلي بقى؟

– أحكيلك إيه ونشرب إيه؟؟ أنا هروح أشرب في بيتي.

– طيب وحياة إيييه... هي كان اسمها إيه؟

مطاوع مبتسمًا:

– أمينة.

– وحياة أمينة لتحكي.

– خليه دوبل يا عادل لزوم الأشواق، وشغّلنا مزيكا عِدلة بدل الچاز اللي أكل وداني.

يصب عادل لكليهما، بينما الست أم كلثوم بكل بهاء تقول: (ما خطرتش على بالك يوم).

يشرع مطاوع في الشُّرب:

- أنا يا ستي وارث الشُغلانة دي أبًا عن جد. زمان مكان ترعة المحمودية كانت البارات ع الشط وفي المراكب، وإحنا نجري نسرفس من ده لده. كانت المراكب تفضل منورة للصبح ومزيكتها ترمي لحد المالح. وع المحمودية بقى حبيت الصيد حتى تلاقيني ساعات كده أسحب البوصة الهندي وأطلع ع الكورنيش، وفي الأجازات الطويلة أطلع على الارمجان اللي في أخر البحر.

- ها وطلعتلك جِنيّة؟

- يا بت اصبري... كان عندنا خِيام ع الشط للنوم، عيشة الغجر قاسية من مولد لمولد وشادر لشادر، عيشة عايزة عافية وعايزة واحد من غير قلب، يتحب بنت عمك وخيمتك يا تتوه من الغجر، ماكانش ينفع نحب مطرح ولا حد صاحب مطرح... أبويا بقى إسكندرية ندهته وقرَّر يعيش هنا ويبطّل لف مع الغجر. أخد شقة كانت متطرفة نواحي الحَضرة، عشنا فيها أد ما عشنا، وأخدت الكار من ابويا... دورت بقى من شادر لشادر لمولد لبار لقصور لأفراح شعبي أوزَّع انبساط ع الناس... أبويا أخر أيامه قرَّر أن ده حرام وحلف ميت يمين ما يدخل قرش نجس تاني، وطردني من البيت وأنا ابن عشرين سنة؛ كان قبل الثورة كده بشوية... وقفت على نصبة واتعلمت أبقى بارمان، وفهمت أصول الشُغلة، والشوارع بتربي.

نوشا تصنع بالونًا من العلكة وتصدر صوتًا يملأ المكان لشعورها بالملل:

– فين الحب يا عم مطاوع؟... الكاس خلص ولسه ماقولتش حاجة.

ثم تنادي:

– اتنين كمان يا عادل.

يكمل مطاوع:

– أخدت شقة في عمارة قديمة في شارع اسمه (سان اتناس)، الراجل صاحبها كان مجدع ومهاود، والعمارة كانت قديمة مكتوب عليها إنها اتبنت سنة ١٨٨٧ يعني النهارده ولا ١٠٠ سنة. شقتي كان ساكنها شاب إسكندراني حليوة....

– وعرفت شكله منين؟

– كان سايب صورة له تحت فرش جرايد في دولاب الهدوم.

– يا جدع خُش في الموضوع بأقولك ناقصني حُب.

– الراجل صاحب البيت سلّمني مفتاحين: مفتاح الشقة ومفتاح صندوق البريد. طبعًا عمر ما جه في بالي أفتحه، وأنا مين يعني يبعتلي جواب وأنا مقطوع من شجرة ولا حد يعرف أنا مين ولا ساكن فين.

– ها وبعدين؟

– في يوم قولت أمّا أفتح الصندوق زي باقي السكان، نزل منه

جوابات زي المطر ولا ٢٥ جواب.

- وفتحتهم؟

- طبعًا. فتحت أول جواب لقيته من واحدة اسمها (أمينة) باعتة لواحد مسيحي اسمه (أبانوب) بتقول فيه شِعر وإنها مهما حصل هتفضل مُخلِصة لقصة الحُب دي.

- وبعدين.

- رتِّبت الجوابات بتاريخ ختم مصلحة البريد، وفتحتهم من الأول، وقريت قصة حب ولا في السيما والروايات، الواد اسمه أبانوب مسيحي ابن ناس غلابة جاي من الصعيد كان شغَّال في كار الآثار دلَّال...

- دلّال؟! مش دلّال ده بتاع القُماش؟

- لا، دلّال في كار الآثار ده اللي بيحس بمكان الآثار، شغلانة بتبقى عايزة ناس إحساسها عالي وروحهاخفيفة.

- طيب وأمينة البنت؟

- البت كان أبوها موظف من الأفندية وعايشة في القاهرة، اتعرَّفوا على بعض وحبّوا بعض وراحوا كل أفلام كمال الشناوي وهي بتقول إنها شبه (شادية) ومخلّصة توجيهي. وفضلت تبعت وترفض في عرسان وتترجى فيه ييجي يخلّصها، لحد ما قرّرت إنها مش هتبعت تاني وإن الانتحار هو حلها الوحيد وإن الدنيا مالهاش طعم من غيره... حبيت القصة وعشت

معاها. تاريخ أخر جواب كان قبل ما اسكن أنا بحوالي ٦ شهور... فضلت زي العيل الصغير متعلَّق بأمينه وحابب رواية الحب دي ومش عارف أطمِّن عليها. يعدِّي شهر والتاني وكل يوم أفتح البوسطة مالاقيش حاجة.

- وبعدين؟!

- حبيتها من جواباتها، ورديت عليها على إني أبانوب.

- وهي صدّقِت؟

- كنت بتوِّه في الأسئلة اللي تخص ذكرياتهم. وفضلت أكتب وهي ترد.

- وقابلتها؟

- في يوم وصل جواب، جريت فتحته. أمينة بتقول إنها مستغربة شعورها وحسَّاني اتغيرت وحُبي شكله اختلف، وإن أهلها ضاغطين عليها في موضوع الجواز وإنها ماعندهاش حِجة وهتتجوز... أنا جوايا كنت حاسس إني أنا أبانوب ومصدّق نفسي. صحيت في يوم لقيت نفسي طالع على محطة مصر وواخد القطر ورايح على العنوان اللي على ضهر الظرف اللي متعوّد أبعتله... عمارة حلوة في وسط البلد واضح إنها تخص ناس أكابر. فضلت مستني تحت العمارة لحد ما شوفتها نازلة، قلبي اتخطف يا نوشا، اتكهربت.

- مممممم وبعدين؟

– فضلت ماشي وراها لحد ما بقيت بيني وبينها خطوة، لاقيت نفسي باندهلها. وقفت ولفتلي وبصتلي من فوق لتحت.

– ها وبعدين؟

– قولتلها أنا من طرف أبانوب. اتلبخت وقعدت تلف حوالين نفسها وقالتلي: هو فين وإنت مين؟ هو كويس؟ إنت قابلته؟ طيب هو ماجاش ليه؟... طلبت منها نقعد ونتكلم. رفضت وقالتلي: لا، تقولي دلوقتي وهنا... طلّعت الجوابات من جيبي واديتهلها وحكيت لها الحكاية. سألتني السؤال الصعب...

– سؤال إيه؟

– قالتلي: جاي ليه.

– طيب وقولتلها إيه؟؟ إنك حبيتها صح؟

– كانت هتخاف، حُطي نفسك مكانها، واحد طالع من تحت الأرض وبيقولك بحبك، ده يُعقل.

– بص هو مايعقلش، بس حلو ويخوّف.

– طلَّعت صورة أبانوب والجوابات، أخدتهم مني وسألتني: إنت اسمك إيه؟ قولتلها مطاوع... فسابتني ومشيت.

– نعم يا اخويا! فين بقى الحب في الموضوع؟!

– الحب كان موجود، بس عندي أنا بس يا نوشا.

– طيب وهي؟

– لا هي بتدوّر على أبانوب.

– ومكلِّفني كاسين وفي الأخر تقولي هي بتدوّر على أبانوب.

– طيب صُبي التالت وأقولك بقية الحكاية.

– هات بقية الإزازة يا عادل... كمِّل.

– فضلت كل حد المحل يقفل وأنا أروح أتمسمر قُدام بيتها.

– تنزل القاهرة؟ بتسافر مصر؟

– كل أسبوع، لما صاحبت الكومسرية ورئيس القطر والسواق كمان.

– وهي؟

– مره تشوفني ومرة لا، بس المهم أنا، أنا كنت باشوفها يا نوشا.

– وده كان كفاية؟

– اسألي نفسك يا نوشا.

– معاك حق دا كفاية أوي.

– في يوم بفتح الصندوق لقيت جواه جواب منها في كلمتين حلوين بس القلب وما يريد يا مطاوع، وفَّر فلوسك وشوف حالك لإني هتجوز.

– واتجوزت؟

– اتجوزت وخلِّفت. ابنها من دورك اسمه حسام

– الله دا إنت متابع بقى.

– كل شهر أروح أشوفها مرة من بعيد، أسلِّم على خيالها وأملّي عيني منها وألِف في وسط البلد وأروّح... كبرت بس ماعجزتش احلوت وقِدمت زي إزازة النبيت اتخمّرت زي أزايز الريحة... تكبر وتحلو وأنا أحب من بعيد لبعيد.

– يخرب عقلك يا عم مطاوع إنت كده قلقتني.

– الغجر مالهومش حب يا نوشا، حتى لو اشتروا بيوت بتفضل كل حياتهم طياري، يعيشوا طياري ويحبوا طياري. اتجوزت البار وأروّح أمسك جوابها وأشرب وأشوفها.

– ربنا يطمِّنك.

– إنتي حِبلى يا نوشا؟

نوشا تضع يدها على فمه:

– ششششش اسكت اسكت، إنت سكرت وهنفضحنا.

– ماتخافيش، أنا مابسكرش. أصل الموضوع واضح زي الشمس، حالك الملخبط وجريتك ع الحمام وإيدك اللي في وسطك؛ دي علامات حمل.

– أيوه ايوه اسكت بقى ووطي صوتك، حِبلى ومش عارفة اتصرّف.

– طيب ما تقوليله.

– أقول لابن إمبراطور إسكندرية ابن مدارس الخواجات المهندس اللي عايش في باريس إني حبلى منه؟

– الله مش هو اللي...

– يا سيدي هو والله هو وماحدش غيره، بس أنا عايزة أربِّي الواد أو البت بعيد عن البهدلة والمرمطة. لو هو قِبل أهله هيقفولي ويضروني ويضروا اللي في بطني، ولو سكت الفضيحة مش هتخليني لا أنا ولا ابني نرفع راسنا ده إن سابو رقبتنا فوق كتافنا أصلاً يا عم مطاوع.

– وقعة إيه دي يا بنت الناس. طيب والحل.

نوشا تصمت، تنظر لمطاوع والكؤوس وتفكِّر، ثم تنظر له بابتسامة، فيبادرها:

– بت إنتي هو أنا هافضل ألّم ورا حبيبة مصر كلهم؟

– اسمع بس، جوازة تسترني بيها وواد يشيل اسمك، ومالكش دعوة بأي حاجة أنا هتكفل بكل حاجة.

– يا بت أنا أد أبوكي.

– ما هو يا خويا عشان كده، إنت بتتستّر على بت من دور عيالك.

– يعني إيه؟

– يعني قُدّام الناس إنت سي مطاوع جوزي، وفي البيت إنت عم مطاوع أبويا.

– بس ده مايمنعش يعني إن...

– بقولك إيه يا مطاوع، اللي ليك عندي لقمه وهِدمة نضيفة

وأشيلك فوق راسي، أكتر من كده أروح أرمي نفسي في البحر.

- لا وعلى إيه؟ أهو نعمل ثواب في الدنيا اللي مفيش وراها إلا الذنوب دي.

- خلاص أكلم أُمي وهي ما هتصدق، وهقولها إنك شغّال ممم شغّال سواق قطر وإنك ساكن بعيد، برا إسكندرية. وأعيش معاك الكام شهر اللي فاضلين أولِد وأرجع بيت أُمي تاني.

- يعني عشان كاسين أطلع بجوازة أونطة وعيل؟

- وثواب يا عم مطاوع. دي روح مالهاش ذنب في اللي حصل، وإنت راجل جدع وشهم وكلك مفهومية.

- ولما يظهر حبيب القلب وإنت على ذمتي؟ أبقى راجل معـ...

- تف من بُقك، وحياة اللي في بطني ده ما حد يلمسني ولا يقرّب مني إلا بعد عِدّتي منك ما تخلص... وعد أشيلك فوق راسي وجميلك يفضل في رقبتي العمر كله.

- إنتي كده بتضيعي حق ابنك وحقك.

- أنا كده بحافظ على عمري وعمره يا عم مطاوع.

يسود الصمت للحظة، تسأله نوشا:

- قولت إيه؟

- هقول إيه؟؟ ماشي يا نوشا.

تحضنه، بينما هو منهمك في شرب كأسه الأخير.

(٢٢)
غياب... الفراق

ستة أشهر وخمس أيام وعشر ساعات وخمس وثلاثون دقيقة، ولا تزال زينة متغيبة لم تظهر ولو طيفًا لمصطفى الذي بحث عنها في كل مكان يستشعر وجودها خلفه، فيلتفت ولا يراها، ينتظرها كل صباح في التقاطع المعهود (إمة الزغاليل) ولا تأتي ولا تفوح بعطرها ولا تطل ببهائها، ولكنه يستشعر روحها دائمًا... قطعًا هي غاضبة، غاضبة للغاية، فدخول نوشا كان في الوقت الخاطئ.

خطر احتمالٌ على بال مصطفى ودار بذهنه؛ أنها ربما تكون من نسج خياله وأنه لا وجود لها من الأساس، ولكنه أبدًا لم يكن وحيدًا حينما رآها فمعه حِفنة من شهود العيان: توفيق الخردواتي وأشرف ساقي القهوة وبائع الكتب في مكتبة الصفا وعم بدر وحتى نوشا. لكن الشك دومًا ما يراوده أنها من أضغاث أحلامه المشتبكة بواقعة بشكل يصعب الفصل بينهما.

هل ذابت في ماء البحر أم اختلطت برماله؟ أم تشبَّع بها نسيم الإسكندرية؟... افتقد ضحكاتها وحكاياتها، صوتها وهي تناديه، افتقد السير معها دون هدف في شوارع العطارين...

رسم لها عشرات البورتريهات استعار فيها ألوان (بيكاسو) وفُرشاة الأخوان (وانلي) ورسمها قديسة وعاهرة، امرأة وشجرة، رسمها تنقيطًا وتكعيبًا، رسمها حتى لا ينسى ملامحها التي لا تُنسى والمحفورة داخل ذهنه وقلبه وخاطره وبين عينيه...

تشاجر معها وسامحها حتى على الغياب... سافر فرنسا وقابل أطفاله ليُلهي روحه المعلقة منذ الأزل بها حتى ينساها، ففشل... لماذا لم تودّعه وتركت أبواب العشم مفتوحة أمام أبواب اليأس المغلقة بكلمة ممكن؟...

سأل عنها بلاط الرصيف وأفيشات الأفلام القديمة وأسوار الإسكندرية العتيقة، فأجابوه أنها مرَّت من هنا... طاف بلوحاته التي تحمل ملامحها وروحها ما بين روما وباريس ولندن كل من رأى اللوحات استشعر وجودها وأحسه... في أثينا قال أحدهم إنها تشبه جدته، وفي روما عرض مُشترٍ آلاف الدولارات ليقتني لوحة لها هي في رداء أبيض لكونه يشعر أنه يعرف صاحبة اللوحة، بينما بكى آخر في باريس حينما قال لمصطفى إنها والدته وأنه يعرف ابتسامتها، وآخر قال إنها حبيبته القديمة.

أين أنتِ يا زينة؟... حتى الأحباب لا يكون بينهم الفراق قاطعًا من أول مرة، فما بالكِ بملحٍ قد ذاب بمائكِ؟ أين تبخرتِ وتركتِني صلبًا مالحًا؟

في منزل مصطفى الذي يعتريه التوهان وبوادر الاكتئاب؛ تضع علية الطعام على المائدة، ليجلس مصطفى وعلاء وعلية ورجب...

يضع مصطفى ملعقة من الشوربة في فمه، ثم يترك المائدة. تسأله علية:

- مصطفى: إنت مش هتاكل؟

يشعل سيجارته الخمسين ولا يرد. فتناديه:

- يا مصطفى: الأكل.

- حادق يا علية، الأكل حادق.

- هو إيه اللي حادق؟ إنت بطّلتني أحُط ملح ع الأكل... وده كمان حادق؟

يتدخل رجب:

- لا مالكش حق يا درش، دي الشوربة مظبوطة وأكل علية.....

مصطفى مقاطعًا:

- والنبي يا عم الشيخ بلاش نصب.

فيرد علاء:

- الأكل مش حادق يا درش.

ينصرف مصطفى إلى البلكونة متجاهلاً حديثهم الجانبي ووصلات الإطراء على طعم أكل الست علية.

ينهى علاء وجبته سريعًا ويلحق به إلى البلكونة:

- مالك يا درش؟ من ساعة ما رجعت من التور في أوروبا وإنت حالك مش عاجبني، مع إنك قلت إن الشغل كسَّر الدنيا وإنت نفسك اللي رفضت تبيعه.

- مفيش يا علاء.

- هو إيه اللي مفيش؟ يا ابني إحنا أصحاب أكتر من ٣٠ سنة.

ينظر مصطفى له:

- هو إحنا بجد أصحاب؟ ولا إحنا معارف اتحطينا في سكة بعض؟

- سؤالك ده يزعل... بس لو أنا مش صاحبك إنت صاحبي.

- يعني مش مصالح ودايرة.

يسكت علا... فيكمل مصطفى:

- ما ترد يا أستاذ يا محامي العيلة.

- آه إنت قصدك إن أنا هنا قاعد بتغدى معاك ومع أسرتك عشان أنا محامي العيلة اللي باطلّع مصالح وفلوس من ورا إدارة أعمالكم؟

- إيه هو إنت مابتطلعش مصلحة؟

- أكيد بأطلَّع مصلحة وبعلمك ومن غير علمك، لكن عمري ما ضريتك.

- بس بتستفيد.

- وبافيدك.

- أي محامي هيفيدني.

- بس مش هيسألك مالك.

- أنا كويس يا سيدي.

- لا مش كويس وأنا مش خايف على المصلحة زي ما إنت بتقول، أنا خايف على صاحبي.

- وإيه اللي مخوّفك؟

- حالك يا مصطفى. إنت مش شايف نفسك؟

- خايف عليا من إيه؟ شايفني بأشد في شعري.

- يا مصطفى افهمني، ساعات الناس بتمر بظروف بتبقى محتاجة حد معاها تتسند عليه... عم رافع راح مننا في يوم وليلة يا مصطفى، كده هتحصَّل أبوك.

مصطفى بعصبية:

- إنت اللي هتحصّل أبوك يا علاء.

- ليه ناوي تقتلني؟؟

- وإنت كنت كلّفت خاطرك تدور على اللي قتل أبوك؟

- مش يمكن لو كنت دوَّرت كنت آذيت ناس قريبين مني ومنك؟

- قصدك إيه؟

يصمت علاء.

– ما ترد قصدك إيه ؟

– ماأقصدش يا مصطفى، ماأقصدش.

مصطفى بصوتٍ عالٍ:

– أبويا اللي قتله... قصدك تقول كده؟؟؟

– وطّي صوتك واتكلم بالراحة إحنا مش بنتخانق.

– مش بنتخانق؟ إنت جاي تتهم أبويا وتقولي مش بنتخانق.

– أنا مابتهموش يا مصطفى أنا بأقولك فتح الموضوع كان هيوّرط أبوك.

– طيب ما تفهمني بدل ما إنت بتخبط بأي كلام.

– تعالى يا عم الحقّاني نحسبها... أبويا أخد طلقة على بُعد ٣ متر في نُص دماغه، يعني اللي قتله كان عارفه وأبويا مآمن له، وإنت عارف وأنا عارف إن كان فيه بينهم اللي ماحدش يعرفه... وأبويا سحب تقريبًا كل فلوسه قبل ما يموت بأيام، راحت فين الفلوس؟ الله أعلم... والجُثة كانت مسحوبة لمسافة طويلة على الأرض حسب تقرير الطب الشرعي، يعني القاتل كانت صحته على قده مش قادر يشيل أبويا اللي وزنه ٦٠ كيلو أو أقل، والجثة اتسحبت على أرض زلط، وأبويا أخر ساعاته كان مع أبوك في مزرعة برج العرب اللي إنت عارف إن مدخلها زلط.

– يعني إيه ؟

- يعني اللي عملها كان قاصد يخلص من الاتنين، يموِّت واحد ويلبِّس التاني، فالأسهل إنه يقتل المحامي عشان التاني مايعرفش يتصرف قانونيًا، لأنه لو عكس كان الحاوي هيطلع منها... فهمت؟

صمت تام من مصطفى... يكمل علاء:

- لو اتكلمت كنت هأقضي عمري أدافع عن أبوك اللي في حالة نفسية سيئه وممكن يورّط نفسه بكلام مش في صالحه، وباقي عمري أقضيه من غيرك... أنا عملت قرد عشان أقفل ع الموضوع اللي كل ما تشوفني تعايرني بيه.

- أنا مابقتش فاهم حاجة، ولا حتى فاهم هما كانوا بيعملوا كده ليه، ماكانش ناقصهم فلوس.

- ومين قالك إنهم كانوا وحشين أوي كده؟

- إنت بتدافع عن إيه؟

- بأدافع عن ناس يا مصطفى، ناس زيي وزيك عندهم ذنوب وأخطاء وعندهم حسنات وعمل صالح... ناس يا مصطفى ماتعرفش عنهم كل حاجة.

- أنا تعبان يا علاء ومش قادر أتكلم.

- حلو.

- هو إيه اللي حلو يا عرص إنت؟

- قلت تعبان يبقى في حاجة تعباك، ومادام شتمت يبقى

فكيت. قولي مالك وأنا أحلهالك ومن غير مصلحة ومن غير فلوس عشان تصدق.

– إنت ياض متخلف؟... يعني جاي تاكل في بيت واحد حواليه دواير شك إنه قاتل أبوك ومصاحب ابنه؟

– أبوك ماقتلش صاحبه يا مصطفى، افهم... ثم إن أبويا وأبوك حدوتتهم خلصت وإحنا مش هنكمل في سِكتهم... قولي على اللي تعبك وأنا أحلهالك.

– مش لاقيها يا علاء.

– هي مين؟

– زينة.

– زينة مين؟

– اللي كانت علية بتحكي عنها من كام شهر.

– وعلية كمان عارفاها وأنا ماعرفهاش؟

– يا طربوش إنت مش كانت قاعدة وبتحكي عن زوزو.

– آاااه زوزو، سعاد حسني؟

– أيوه يا حيلتها.

– طيب قولي بياناتها و٢٤ ساعة تبقى قُدامك.

– والنبي تتلهى، هو أنا لو عندي معلومات كنت توهت كده.

– قولي بس اللي تعرفه وأنا أجيبهالك.

- اسمها زينة، ساكنة في العطارين.

- فين في العطارين؟

- ماأعرفش.

- طيب شغالة فين؟ أبوها اسمه إيه؟ خريجة إيه؟

- ماأعرفش.

- طيب تعرف إيه؟

- بتحب التاريخ والشيكولاتة وبتسمع مزيكا طول الوقت، وبتشتري كتب مستعمله ووو وبتقرا الفنجان؟

- نعم!... أيوه أنا أروح المحافظة ولا أمن الدولة ولا لضابط تقيل أقوله إيه؟

- ماأعرفش... ماأعرفش.

- طيب اهدى... عندك صورة؟

- آه تعالى.

يسير علاء خلف مصطفى الذي ينادي أثناء السير:

- من فضلك يا علية قهوة.

- حاضر، بس إياكش تقولي حادقة راخرة.

- سامعك يا علية.

في مرسم مصطفى غير المكتمل يُخرج اللوحة التي نصفها لنوشا برأس زينة...

علاء يطلق صفير إعجاب. فيقوله مصطفى:

– الراس بس يا جحش إنت، مش جسمها أصلاً.

– ما أنا بأصفَّر للراس.

– هي دي... ده كل اللي أعرفه عنها.

– طيب قولي أماكن بتروحها.

مصطفى مُفكِّرًا:

– مكتبة الصفا وشارع النبي دنيال وإمّة الزغاليل وعلى الكورنيش وخردواتي توفيق وووو ممم آه، والبُن البرازيلي.

– دي منتشرة في العطارين ووسط البلد.

– هتعرف ولا خيبتها؟

– هازرع لها في كل خُن عيل لحد ما نجيب قطرها، بس بكرة هاجيب الكاميرا أصوّر الراس... الراس بس طبعًا عشان العيال تعرف تشتغل، ويومين ويكون عندك قرارها.

– عارف يا علاء لو جبتهالي...

– ما قُولنا محبة ومش عايزين من وشك حاجة غير تفرد سحنة أمك دي.

– عارف يا علاء لو ماجبتهاش...

– يووووه عيل شباط وقماص من يومك... لو ماجبتهاش يبقى هي مشيت، يبقى أنت تكمل يا أبو علي عشان الدنيا مابتقفش

على حد، بالذات اللي مشيوا وسابونا.

علية تدخل عليهما وترى اللوحة:

- إيه القرف ده؟ ماتلبّسها حاجة... ما هي الحاجات دي اللي جايبلنا الفقر.

- اطلعي برة يا علية. وياريت تخلي جوزك يفتحلك معمل طرشي ومخلل بأكلك الحادق ده.

- ماشي يا مصطفى ماشي.

- بأقولك إيه أنا اللي ماشي.

علاء:

- ماتيجي نروح إيليت.

- لا أنا طالع عالنادي.

- سبورتنج؟

- لا نادي السلاح، محتاج أغُز حد، عايز ألعب شوية رياضة وأعرق.

- يا ساتر يا رب... طيب روح إنت غُز براحتك وأنا أنزل أشوف حالي.

يحمل مصطفى حقيبته ويخرج في طريقه إلى نادي السلاح... بينما اختلى علاء برجب في بلكونة المنزل وهما يحملان أكواب الشاي التي أعدّتها علية... يُغلق علاء باب البلكونة ويشير

لرجب أن يقترب منه...

– خير يا متر؟

– لحد دلوقتي خير، بس ممكن كمان شوية مايبقاش خير أبدًا.

– يا ساتر يا رب، قلقتني... إيه مش ناوي يبيع ؟

– إنت طبعًا عارف أنا بحب مصطفى أد إيه، وعارف إن مصلحته ومصلحتكم هي شغلي وأكل عيشي.

– تمام يا متر تمام... بس هو إيه العبارة وإيه اللي قالقك ؟

– مصطفى واضح إن في واحدة بتلف عليه وملفِّفاه وراها، والموضوع ده مش مريحني.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، نسوان تاني ؟

– عندي معلومات كده ممكن ماتكونش في مصلحة حد.

– تخص الوِرث ؟

– تخص نصيب مصطفى.

– يا سيدي هو حُر في ماله، أنا عايز أسلِّك نصيب علية وخلاص، وهو عنده عياله التلاتة من بعده مايخصناش.

– ده لو كانوا تلاتة يا مولانا.

– هو لا مؤاخذة اتجوِّز تاني وخلِّف ؟... ولو، هو حُر.

– هو المعلومات اللي عندي إنه ماتجوزش.

– يعني إيه مخلِّف بس ؟

رجب بصوتٍ عالٍ:

- نهار اسود، في الحرام؟؟ عنده عيل ابن حرام؟؟؟

يضع علاء يده على فم رجب:

- يا جدع إنت، هو أنا بقفل الباب وبهمس عشان إنت تجعّر وتفضحنا؟؟ أنا بأقولك عشان نتصرف.

- نتصرّف، نتصرف نعمل إيه؟؟ نُقيم عليهم حد الزنا؟

- يا جدع إنت مايبقاش طلقك حامي كده، كل مشكلة وليها حل.

- حل إيه يا متر؟ مش بتقول في عيل من صُلبه، يبقى يكتب على أمه ونِخلص.

- أهو ده حل... بس لما يروح يكتب على واحدة مش تمام شغّالة في بار، ويبقى ماتأخذنيش راسها من راس ست الكل الست علية؛ يبقى ده حل؟

- لا... لا طبعًا وألف لا كمان، هي مين دي اللي يبقى راسها من راس علية.

- شوفت أهو ده اللي باتكلم فيه.

علاء مُسهبًا:

- أنا قلبي على مصطفى زي ما قلبي عليكم كلكم، بس حاجة زي دي نحلّها إزاي؟

رجب يصمت مُفكّرًا، وعلاء يتظاهر بالتفكير، ثم يقول:

– هو إحنا لو بعدناها عن سِكته وسرّحناها بالمعروف وراضينها، مش يبقى أحسن للكل؟

– يبقى أحسن، وأحسن قوي.

– بس دي نعملها إزاي يا عم الشيخ؟

– نسلّكلها قرشين وتحل عن سمانا.

– الله عليك يا مولانا، أنا قولت مش هيحلها غير عم الشيخ.

يستند رجب على كرسيه بزهو بابتسامة المنتصر، إلى أن يُباغته علاء:

– بس في مشكلة...

– مشكلة إيه تاني يا متر؟

– بنت زي دي لو خدت قرشين ممكن تطمع وتنطلنا كل يوم والتاني وتقول يا قضايا ويا محاكم، وأنا أوعدك أقف في وشها بإيدي وسناني، بس هنلّف نلّف وهتِثبت اللي عايزاه بالقانون، ونطلع إحنا نصابين وعيالنا أولاد زنا.

– طيب وبعدين؟ نخلص من الورطة دي إزاي؟

– أنا خايف على سُمعتك، والتاجر إيه غير سُمعة طيبة وسط الناس؟

– لا، سُمعتي لا. يبقى مابدهاش بقى شرع ربنا في الزنا واضح.

– طيب وليه؟ هي ممكن تاخد القرشين وتمشي واللي يضمن

إنها ماترجعش إنها تخاف. لازم تخاف ترجع، تخاف على ابنها وتخاف على روحها.

- كلام سليم، يبقى نرميلها قرشين ونوريها العين الحمرا وخليها تغور، ولو ظهرت تاني نقطع خبرها.

علاء يدّعي الاقتناع مُسهبًا:

- والله كلام موزون، أنا قولت إن الشيخ رجب هو اللي هيبقى معاه الحل.

- خلاص يبقى تشاولي عليها وأنا أجيب رجالة من عندي يفهموها الصح فين.

- معلش أنا ليا وجهة نظر تانية بعد إذنك، إنت لو ظهرت هتكشف وشك وتبقى عارفة هي بتتعامل مع مين، وده بمحضر صغير في أي قسم وخصوصًا بدقنك البركة دي؛ هتروح ومش هترجع، ولا أنا ولا عشرة زيي يعرفوا يطلعوك.

- حيرّتني يا متر، طيب نحلها إزاي دي؟

- إنت كلامك معايا فتحلي سكة كده آخد رأيك فيها... أنا أبقى مندوبك، يعني آخد رجالتك اللي ياريت يكونوا ناس محترمة زيك كده وعارفين الخير فين والشر فين، يكونوا ملتحين زيك كده.

- موجود.

- الناس دول هي ماتعرفش مين ولا من طرف مين بس هتبقى

فاهمة إنهم مابيهزروش وإن كلامهم سيف ومابيخافوش غير من اللي خلقهم.

- قسمًا بالله أجيبلك رجالة لا تخشى في الحق لومة لائم ويتعاملوا معاها ومع اللي يتشدّد لها.

- الله ينور عليك، يبقى إحنا علينا إيه؟

- إيه؟

- قرشين كده منك ومن علية، وطبعًا حساب الرجالة، تطلع هي بابنها من دنيتنا بسلام ومن غير ماتأذينا ولا إحنا نأذيها وننضف ونفوِّق مصطفى بدل ما هو تايه في ملكوت الله.

- على بركة الله، نقرا الفاتحة.

- نقرا الفاتحة.

يرفع كلاهما كفيهما إلى السماء متمتمين: (غير المغضوب عليهم ولا الضاااااالين) آمين.

••••

مساء اليوم نفسه، يقود مصطفى سيارته بعدما أنهك بدنه في تمرين طويل في لعبة المبارزة (الشيش) التي كثيرًا ما وجد فيه نفسه والتي تفوق فيها على أقرانه ومدربيه أحيانًا بالفطرة. لم يبذل مجهودًا كبيرًا في إتقان اللعبة، فكان ذراعه المفرود بثقة ورُكبته المتنية بمرونة ويُسراه ذات رد الفعل السريع؛

جعلته يخطو خطوات واسعة اعتلى بها منصَّات التتويج سريعًا في بطولات الجمهورية وأفريقيا والبحر المتوسط، رغم أنه غير مهتم بالشكل الكافي.

اعتاد مصطفى أثناء قيادته للسيارة في الآونة الأخيرة أن يختار طريق محطة الرمل كطريق من وإلى المنزل، وعيناه تدوران كحارس خاص يطوف ببصره بين الناس يبحث بين وجوههم عن وجه زينة التي اختفت منذ شهور، يهدِّئ من سُرعة سيارته كلما راوده شك أنها هي، ويقف كلما صادف أن يجد من يُشبهها من بنات حواء، علمًا بأن ليس من إحداهن من يشبهها أو يقترب من قُدسية جمالها في عين مصطفى العاشق...

بينما كاميرات المراقبة المثبتة في جمجمته (عيناه) تدور في رحلة بحثها المعتادة؛ يجد رجلاً يجلس على الكورنيش يمد سنارته المصنوعة من البوص على شفاه البحر بحثًا عما في داخله من سمك... إنه مطاوع البارمان الخاص بإيليت، يجلس بسنارته وظهره للمدينة ووجهه للبحر...

يقف مصطفى بسيارته ويسير إليه حتى يجلس إلى جواره، يُفاجأ به مطاوع:

– أهلاً يا مصطفى بيه، دا إيه النور ده؟

– نورك يا مطاوع. إنت غاوي صيد؟

– آه أمال، من زمان.

- أنا كنت معدي لاقيتك، قولت أنزل أسلِّم عليك. يارب ماأكونش معطلك.

- لا العفو يا مصطفى بيه، تعطلني إيه؟ دا إنت منورني والله.

- بتطلّع إيه بقى من هنا؟

- بأطلّع اللي يجود البحر بيه، بس في الغالب سمك بطاطا، لكن السمك الكبير هناك ورا الارمجان.

- هبقى أجيب سنارة وتعلِّمني

- يا خبر ابيض، أروح حالاً أجيبلك فردة بوص من عندي وتجرّب.

- لا مش هاشغلك، أنا بس كنت معدي وحبيت أسلّم عليك.

- ربنا يسلمك يا أمير... إلا قولي يا مصطفى بيه، وماتأخذنيش في السؤال، هو إنت ليه مش في شلة الأكابر بتوع إسكندرية؟

- يعني إيه؟

- يعني حضرتك؛ ربنا يزيدك؛ من التُقال في البلد، بس تلاقيك كده بتتمشى في الشارع زينا، دايمًا حوالينا.

مصطفى ضاحكًا:

- المفروض أكون فين يا مطاوع؟

- لا يا مصطفى بيه اللي أقل منك عدم اللامؤاخذة ماحدش بيشوفهم، يا مكاتب وشركات الصبح، وبعد الضهر في نوادي

وكلوبات بتاعتهم وساكنين في فِلل اللي في كفر عبده والي ع البحر هناك واللي مطرَف... لكن إنت حوالينا.

– ودي حاجة كويسة ولا وحشة.

– دي كويسة وكويسة أوي كمان، ربنا يحبِّب فيك خلقه.

– عندك عيال يا مطاوع؟

مطاوع يرتبك، يتصبب عرقًا:

– آه... آ أُمال، عندي عيل وحيد.

– اسمه إيه بقى؟

مطاوع مراوغًا:

– عنده سنتين، بس أنا وأمه اتطلقنا وهو عايش مع أمه مع إنه متعلق بيا.

– ربنا يخليهولك، بس كنت خليتك مع أمه عشان خاطر الواد.

– والله يا مصطفى بيه يمكن يكون بُعدي عنه مكسب. واحد زيي ممكن يدي إيه لعيل جاي الدنيا بيقول يا هادي؟

– لا عندك كتير، إنت أبوه وأكيد عندك كتير.

– لا مؤاخذة يا مصطفى بيه، ولا معايا قرش أسيبهوله، ولا متعلِّم قوي أعرف أذاكر له، ولا حتى باركعها عشان أقوله قال الله وقال الرسول، ولا سِني يسمح أجري وألعب معاه... يعني هابقى حِمل عليه.

- حِبّه يا أخي، وجودك جنبه هيفرق.

- باحبه والله يا بيه، بس إنت عارف أنا راجل هلهلي، مُنظّم في شغلي آه، بس برا البار أنا راجل ملخبط، كل ما أتزنق أصرف، وكل ما أتعب أهمل أكتر... إنت عارف يا مصطفى بيه الخلق لما بتضيق معاها بتقول يا إيه؟

- بتقول يا رب.

- أنا بقى ساعات باتلبخ كده وتلاقيني بقول يا بحر.

مصطفى مندهشًا:

- يا بحر؟

- بأقولك يا بيه مُخي متركب شِمال، عارف إن في ربنا بس أنا عمري ما كنت بتاع ربنا، سِكتي عوِجة وملخبطة مش حابب أورّط حد فيها معايا.

- طيب ما دي في حد ذاتها وجهة نظر وفلسفة بتقول إنك راجل فاهم وحكيم.

مطاوع ضاحكًا:

- ربنا يجبر بخاطرك.

- لا حقيقي، أنا لو كنت فكّرت زيك قبل ما أخلّف ماكُنتش خلِّفت بدل العيل تلاتة.

- ربنا يخليهملك.

مصطفى ضاحكًا:

- تعرف يا مطاوع؟ هما كمان عايشين مع أمهم مع إني عندي اللي أسيبهلهم، وأقدر ألعب معاهم... بس إنت أحسن مني.

- لا إزاي العفو.

- بجد والله، إنت عارف إنك مش قادر تقدِّم حاجة فبعِدت. أنا بقى قادر ومطنِّش... يبقى مين أحسن؟

- كل واحد عنده اللي عنده يا بيه.

- عندك حق.

- عارف يا مصطفى بيه، الصيد بالنسبالي وَنَس بأهرب فيه من وِحدة بين أربع حيطان، هروب كده من الوِحدة.

- كنت خلِّيتك مع مراتك يا راجل يا طيب، تاخد بحِسك.

- نصيب يا بيه، كل حاجة في الدنيا دي نصيب، اللُقا نصيب والفراق نصيب، حتى الوِحدة نصيب... الوِحدة جوانا مهما كان في ناس محوطاك في عالم بتفضل حاسة بالوحدة، اتجوزت ولا عشت عازب، خلِّفت ولا ربنا ماكتبش؛ بتفضل الوحدة جواك وملازمة روحك.

- طيب ما تتجوز تاني.

مطاوع ضاحكًا:

- أنا مابعتبرش إن فيه أولاني عشان يكون فيه تاني.

– طيب جرَّب، يمكن تلاقي.

– في حاجات ماتلاقيهاش أما تدوّر. إنت عمرك صحيت في يوم وقولت أنا عايز أحب ولقيت اللي تحبها؟ ولا قلت أنا عايز صاحب ودوَّرت بين الناس على صاحب جدع ولقيت؟

– بصراحة لأ، دايمًا بيظهروا كده في سِكتي.

– أهو حال الدنيا كده، كل كام سنة تحط حد في سكتك وتقول هو ده؛ هو ده اللي جاي يعدل المايلة ويديك شوية عافية تكمّل بيهم في الدنيا... ياخد وقته ويروح لحاله، لو مابعدش ولا اختفى؛ بتلاقيه أخد ترتيبه الطبيعي في صف المعارف، ورجعت تاني لنفس المكان؛ لوحدك.

– طيب واللي يغيب منهم مايستهالش ندوّر عليه يا مطاوع؟

– لا طبعًا ندوّر، وندوّر أوي.

مصطفى مبتسمًا:

– الله عليك يا مطاوع.

– الله عليك إنت يا حبيب الكل.

مطاوع مبتسمًا بخُبث محمود:

– فيه حد ضايع منك يا باشمهندس؟

يُخرج مصطفى علبة سجائره، يُعطي مطاوع واحدة ويشعل الأخرى، بينما يضعها مطاوع خلف أذنه. فيسأله مصطفى:

– مش هتولّع؟

– لا دي مستوردة، دي عايزة برَّاد شاي في البيت.

مصطفى ضاحكًا يعطي مطاوع علبة السجائر:

– طب خُد خلِّي العلبة معاك.

– كفاية واحدة يا باشمهندس، مفيش لزوم.

– يا جدع اِمسك، معايا غيرها في العربية.

– تسلم إيدك. الواحد خايف صدره يتعوَّد عليها.

يبتسم مصطفى وينهض من جوار مطاوع:

– أسيبك أنا بقى. واضح إن وشي وِحش عليك.

– لا العفو يا بيه، دا إنت زودَّتنا بركة والله، وإن كان ع السمك؛ هيروح فين؟ أدينا بنقول يارب.

مصطفى ممازحًا:

– ولّا بنقول يا بحر؟

– قول اللي إنت عايزه يا بيه.

مطاوع بصوتٍ عالٍ ضاحكًا:

– يا بحر... يااااا بحر: رجّعله اللي غايب وحياة حبيبك الصَدَف.

يضحك كلاهما، بينما يعود مصطفى في طريقه إلى سيارته وقد أخذ بنصيحة مطاوع وسوف يبحث عنها بشكل أكثر جدية، لن ينتظر، سيبحث هو عنها، الخِطة في رأس مصطفى المهندس تبدو واضحة المعالم: جمع معلومات ممن يعرفونها

حتمًا ستؤدي إلى نتائج...

البداية كانت عند توفيق الخردواتي، يدخل عليه مصطفى كمُشترٍ للسجائر حتى لا يبدو كمراهق يسأل عن فتاة تشغل خاطره:

- مساء الفل يا ريس توفيق.

- مساء الفل يا أستاذ.

- لو سمحت واحدة مارلبورو أحمر وواحدة شيكولاتة روكيت.

يعطيه الأغراض... يدفع مصطفى ثمنها، ويُسهب:

- إلّا قولي يا عم توفيق...

- أؤمر يا أستاذ.

- هي زينة مابتعدّيش عليك؟

- زينة!! زينة مين؟ لا مؤاخذة أنا الأسامي مش بتركز في دماغي.

- البنت اللي بتيجي تاخد الشيكولاتة الروكيت، وساعات بتطلب حجر بطارية.

توفيق يفكِّر:

- آاااه البنوتة الشقرا اللي حاطة على ودانها سماعات... بس ماأظنش اسمها زينة، إلا بقى لو الجريج بيسمّوا الأسامي دي اليومين دول.

- لا مش هي، أنا أقصد التانية اللي شعرها غامق مش شقرا ومصرية مش بنت جريج، بس هي صح بتحط سماعات.

- لا والله، التانية دي بنت جريج اللي أعرفها.

مصطفى مفكِّرًا لبُرهة:

- يمكن يا عم توفيق، بس هي من هنا من العطارين.

- والله يا أستاذ ما آخدش بالي.

مصطفى منصرفًا:

- ولا يهمك يا عم توفيق. مساء الفل.

يخرج مُفكِّرًا في كلام توفيق الذي لم يُفِد في شيء. قد يكون اختلط عليه الأمر... ولكن أشرف يعرفها فهي كانت تناديه بكُنيته «لوفا»، فيبدو أن بينهما شيئًا من العشم. نعم، فقد حكت له يومها أنها كانت تغادر دون أن تحاسب في بعض المرات.

على أبواب البُن البرازيلي يقف بسيارته ينتظر ظهور أشرف الذي يراه، فيشير له مصطفى فيخرج مهرولاً إليه...

- مساء الخير يا أشرف... والنبي سؤال سريع كده وأسيبك لشُغلك.

- أؤمرني يا مصطفى بيه.

- عارف البنت اللي جات معايا مرة وكانت هتكب القهوة؟ المطيورة دي.

- آه طبعًا أُمال

- حلو... تعرف مكانها؟

- سكنها لا والله، بس عدَّت من كام يوم كان عليها حساب قهوة وحاسبتني ومشيت كالعادة.

- يعني ماتعرفش ممكن تبقى منين ولا ساكنة فين؟

- الكدب خيبة، بس هي كانت دايمًا بتقولي يا نازلة شارع العطارين تيجي تاخد قهوة وتجري، وتقولي هحاسبك بعدين... بس أظن إنها كانت ساعات بتقولي بسُرعة عشان ألحق أروح وفي الغالب نواحي شارع صلاح الدين.

- ليه صلاح الدين؟

- ما هي تقريبًا من العرابة اللكنة كده، والظاهر البيت فيه ناس شِداد ممكن يعني يكون أهلها ناس صعايدة من عرب العرَّابة اللي في صلاح الدين.

- إيه الحداقة دي؟... لا يا أشرف مش من الصعيد، دي إسكندرانيه يا عم.

- الله أعلم، بس أنا سامع لهجتها كده كأنها من العرّابة.

- طيب يا أشرف لو جاتلك اخطف رِجلك عدّي الشارع لرضا خليه يبلّغني.

- عينيا حاضر حصل يا باشمهندس. طب اتفضل اشرب قهوة.

مصطفى منصرفًا بسيارته:

- شكرًا يا أشرف، هجيلك وقت تاني.

الأمر يبدو غير منطقي بعض الشيء، ولكن... عم بدر... عم بدر لن يُخطئها، فقد أهداها عقدًا ليس للبيع ودار بينهما حوار أطول، ثم أنها اشترت منه هدية لي. قطعًا يذكُرها.

يصل إلى محل عم بدر الذي يجلس ككاهن نوبي أمام محله الضيق بنفس هيئته الطيبة وجلبابه الأصيل ومروحته الملونة تتهادى لتعطي له نسمة باردة... يقترب منه:

- مساء الخير يا عم بدر.

- أهليييييين بالراجل الطيب. إزيك يا ابني؟

- تمام والله يا عم بدر، كله تمام... معلش عندي سؤال...

- اتفضل يا ابني.

- هي زينة ماعدتش عليك الأيام اللي فاتت؟

- مين زينة؟

- البنت اللي كانت معايا أخر مرة وأخدت العقد.

- والله يا ابني أنا ماأعرفهاش، بس ممكن تسأل هناك في جمعية الكنوز النوبية.

- اشمعنى يعني؟

- أنا كل إخواني النوبيين أعرفهم، وأعرف أولادهم وبناتهم،

بس دي ماعرفتهاش.

- نوبية؟؟

- آه، ما هي في الغالب نوبية أو سودانية، مش عارف.

مصطفى بذهول:

- سودانية مين يا عم بدر؟

- السمار ده نوبي والعينين دي نوبي يا ابني، بس أنا والله ما أعرفهاش، وهديتها العقد قولت أكيد من طرف حد من الحبايب.

الدوار يمتلك رأس مصطفى الذي يسأل:

- عم بدر، ركِّز والنبي: هي كانت سمرا؟

- عليه الصلاة والسلام. سمرا أكيد أنا مش تايه عن زبايني يا أستاذ مصطفى. هو إنت كمان ماتعرفهاش؟... ثم ماله السمار؟

يتجاهل مصطفى المتعجب المصدوم وينصرف من أمام بدر الذي يسهب في القول:

- لو جاتني تاني هأبلغها إنك سألت عليها.

ينصرف مصطفى وهو يعتريه الخوف والشكوك في قواه الذهنية وقدراته على تمييز الألوان والأشخاص، وضجر من خلط الحلم بالواقع.

لم يبقَ أمامه سوى صاحب مكتبة الصفا، هو أيضًا رآها وهي زبونته الدائمة، قطعًا هو يعرفها...

يدخل إلى المكتبة المتكدسة بالكتب التي كُتبت بالعَرق والفِكر وبيعت بالكيلو جرام، نسَّقها صاحب المكتبة وفهرسها بدقة، ويجلس على كرسيه يمد ساقيه على كرسي آخر... ينزل ساقيه حينما يرى مصطفى يدخل عليه...

- أهلاً خطوة عزيزة يا مصطفى بيه.

- يعز مقدارك... حضرتك تعرفني؟

- أُمال، مصطفى بيه ابن الحاج رافع. دا الوالد خيره ع الكل، الله يرحمه ويجزيكم خير بعمله الطيب مع أهل منطقته.

- أنا آسف بس أنا مااتشرفتش.

- أخوك بدوي.

- فرصة سعيدة يا أستاذ بدوي.

- لا بدوي بس، ولا هو عشان صاحب مكتبة؟

- لا إزاي؟ المقامات محفوظة. كنت جايلك في خدمة يا بدوي.

- إنت تؤمر يا ابن الغالي.

- من قيمة يومين جات بنت كده، وكنت أنا عند عم بدر...

- آه.

- فاكرها؟

- طيب فكّرني تاني.

- جابت كُتب كده أظن تخص المُخ والأعصاب.

- قصدك زينة؟

مصطفى بصوت فرِح:

- أيواااااه، الله ينور عليك، زينة.

- مالها زينة؟

- ماتعرفش سكتها يا بدوي؟

- هي لامؤاخذة واخدة منك حاجة؟ أصلها أحسن واحدة تاخد كُتب وتضرب عليها عواف. بس ماتقلقش الكتاب اللي ناقصك أجيبهولك.

- لا لا يا بدوي، أنا بادوّر عليها هي.

- والله ماأعرفلهاش سِكة، أهي تغيب وتلقيها زي فُرقع لوز قُدّامك، تاخد منك عينيك وإنت راضي وتسيبك وتمشي... بس هتيجي هتروح فين؟ ما هي يا بتجيب كُتبها من هنا أو من شارع النبي دنيال من ع الرصفان هناك، ولما ماتلاقيش بتلاقيها في دار المعارف اللي في صفية زغلول.

مصطفى متلجلجًا:

- هو إنت ممكن توصفها لي يا بدوي؟

بدوي باندهاش:

– نعم!... أوصفهالك؟ أهي بنت زي بقية البنات، ولا بيضة ولا سمرا، شبه كل الناس اللي حوالينا.

– طيب يا عم بدوي معلش لو عدِّت عليك أي وقت بلّغها إني كنت بادوّر عليها.

ينصرف بِحِيرة تُحيط رأسه وعلامات استفهام فوق رأسه يمكنك أن تلمسها بيديك.

نوشا... نوشا، النساء تُجيد الوصف وتهتم بالتفاصيل، قطعًا هي من سيجيب على السؤال...

ينطلق بسيارته إلى إيليت، يصل ويجلس هذه المرة على البار. يقدِّم عادل له مشروبه، بينما نوشا ظهرت للتو... يعلم مصطفى تمامًا أنه كان وقِحًا رغم محاولاته أن يكون لطيفًا، فمن المستحيل أن تُرضي امرأتين في نفس الوقت وفي جلسة واحدة، ففي مجاملة إحداهما جرحٌ للأخرى، وقد كان جرح نوشا غائرًا... يحتاج الوضع بعض الوقت قبل مفاتحتها في الموضوع.

يشرب بضعة كؤوس تُهدِّئ من روعه بعض الشيء، فالكحول يُذهب أول طبقة من الوعي ويجعل الرجال أكثر جرأة...

تمر نوشا، من خلفها يُناديها:

– ماسلّمتيش يعني يا نوشا؟

– مش حابة أعكّر مزاجك يا باشمهندس، وشايفاك النهاردة

مش على ترابيزتك، وعيب أسرفسلك؛ أبقى باقطّع على عادل.
أنا باسرفس ع الترابيزات بس يا باشمهندس.

يقترب منها:

– دمك تقيل وإنتي مقموصة.

– أنا مش مقموصة.

– طيب اقعدي لو سمحتي.

–ماينفعش، أنا في الشغل.

يوجّه حديثه لعادل:

– عادل، بعد إذنك محتاج نوشا في كلمتين. ممكن ماترفدوهاش لحد ما أخلّص الكلمتين.

تضحك نوشا برقاعة، فيما يرد عادل:

– نوشا وعادل والمحل تحت أمرك يا مصطفى بيه.

يضع عادل قنينة الخمر أمام مصطفى، ويبتعد خطوات. تجلس نوشا تصب لمصطفى كأسًا آخر وقد بدأ السُّكْر يُغيِّب الطبقة الثانية من الوعي عنده. يقول لنوشا:

– وحشتيني.

– نفسي أصدّقك.

– وإيه اللي مانعك؟

– اللي منعك تيجي ست اشهر بحالهم.

- كنت مسافر عند العيال والله.

- طيب خلاص مصّدقاك.

- افردي وشك بقى، أنا جايلك من طنطا يا ست.

نوشا تضحك:

- شالله يا سيد يا بدوي.

- إنتي من معالم إسكندرية يا نوشا.

- أنا ولا الست اللي كانت عندك بتاعت الفنجان؟

- اسكتي، مش اختفت.

- ألف بركة.

- الله، دي غيرة بقى؟

- نعم؟؟ أنا أغير من دي؟ دي أد أُمي، أنا بس يومها افتكرتها خالتك، ماأعرفش إنك ليك في النسوان الكبار.

- لا استنى ثانية واحدة... مين دي اللي أد أمك؟

- الوليه زينة، ولا ما اعرف اسمها إيه، ست كبيرة.. هي النوغة قالتلك إنها لسه كاسرة الخمسين؟

مصطفى يضحك بهستيريا:

- ألف مبروك.

- الله يبارك فيك على إيه؟

مصطفى غير متمالك نفسه من الضحك:

- إنتي شربتي قهوة مع عفريتة.

- يا حفيظ. والنبي يا مصطفى أنا مابحبش الهزار ده، أنا جِتتي مش ناقصة.

- وحياة النبي زي ما بأقولك كده.

- إنت شكل سِكرت بدري... يا عادل شوف حد يروَّح مصطفى بيه.

مصطفى ضاحكًا يخبط بيده على البار:

- آه والنبي يا عادل، شوف حد يوديني أتينا. ولّا أقولك: وقفلي آلة زمن عشان أروَّح.

يضحك مصطفى... يضحك حتى البكاء... يساعده عادل للوقوف، بينما يبدو مصطفى في حالة من السُّكْر لم تمر به من قبل. يساعده أخلاء البار الأوفياء حتى يصل إلى منزله مستندًا عليهم.

(٢٣)

متاهة... منتصف العمر

الإسكندرية

صيف عام ١٩٩١

المرأة مخلوق هش قوي، على عكس الرجل؛ مخلوق قوي هش... إذا انتصف عمر المرأة وبدأت في فقدان قدرتها على الإنجاب وتبدّل حال جسدها وتغيّر شكل جمالها؛ ليس للأقبح ولكن للمختلف؛ حرَّكتها مشاعر الخوف على أنوثتها، في أزمة واضحة المعالم وعدو محدَّد اسمه: الزمن.

الزمن هذا العامل الخفي في كل المعادلات، العامل الذي لا يتحقق إلا بالحركة، وإن توقفت النساء عن الحِراك؛ فستبقى الأرض تدور لتُعلن لهن أن كل نهار قد انقص من شبابهن رشفه وأهداهن رقمًا جديدًا... ذاك الرقم أصبح مخيفًا بعض الشيء، فالطبيعة التي وهبتها السحر والجاذبية والجمال؛ بدأت تغضب بفعل الزمن وتسحب منها بعض الامتيازات تدريجيًا... حتى مراياها الصديقة القديمة باتت مخلوقًا وقِحًا يُظهر تجاعيد وترهلات أولى بها أن تُخفيها...

ولكن قد تكون الأنثى في بعض الأحيان لها صفة الأمومة التي تتغلب على الأمر وتعدل ميزان الرضا عند النساء، فتُحيطهن بتقدير اجتماعي كونهن أمهات.

وأمٌ في تلك المرحلة قد تكون اجتازت الشق الأصعب من عناء الأمومة، وبدأت في جني ثمارها من حب وإجلال وهدايا عيد الأم، ليُغنِّي لها عبد الوهاب وفايزة أحمد ومحمد فوزي وسعاد حسني، وغيرهم كثيرون، فيملأون الدنيا شجونًا تختلط بالحنين...

ونوشا التي كانت ينتصب لها الرجال؛ بكل تأكيد أصبحت الست التي يقف لها الشباب في المواصلات، وتتبعها جُملة: (اتفضلي اقعدي يا ست)... قطعًا أحبّت نوشا المقعد الفارغ في المواصلات، ولم تُحب الطريقة التي أودت بها للجلوس.

تركت نوشا إيليت منذ فترة، وغابت عن العطارين وعن أعيُن مصطفى تحديدًا، بفعل تهديد عصابة رجب وبطش علاء - الذي نفّذ خطته مع رجب، لكنه احتفظ بالمال لنفسه كأتعاب لدوره في إخافة نوشا وإرغامها على الابتعاد - واكتفت بمشاركة مطاوع في أن يشتري بضاعة مستوردة تُخزَّن في بيته، وتبيعها نوشا قطّاعي لأهالي الحي، ويساعدهما وهبة في تصريف بعض البضائع في أجازته، فطلاق نوشا ومطاوع كان صوريًا؛ مثلما كان الزواج.

على الشاطئ الآخر يكون الرجال حين تنتصف أعمارهم مختبئين خلف أطنان من التبغ والخشونة ومسؤوليات قد تضاعفت فوق كواهلهم وقدرات قد تضاءلت بحُكم السِّن... يقف الرجال مطالبين بصلب ظهورهم قائمة، يبحثون عن هوياتهم التي أكاد أجزم أن أحدًا لم يجدها وإن تجاوز الأربعين أو الخمسين، مترددين كالمراهقين وغير مكترثين كالمسنين المشرفين على الموت... فالرجال مطالبون لأسباب غير معلومة بترك أثر أكبر وبصمة أعمق... لا أعرف لماذا؟

مصطفى الذي احتل الشيب مساحات لا بأس بها من شعر رأسه؛ توقف عن حساب عدد أيام غياب زينة، ولم يفرق كثيرًا معه غياب نوشا... حالته الصحية مستقرة... أبناؤه في سن المراهقة ما بين الخامسة عشر والثالثة عشر... يدير محل التحف الخاص بوالده كهواية... وقد بيعت معظم ممتلكات رافع ما عدا بيت العطارين الذي يأس نصر وابنه فتحي من إقناع مصطفى يومًا ببيعه لهم.

الحال في الإسكندرية تبدَّل بعض الشيء، النسيج المجتمعي اختلف كثيرًا، أصبح لنصر عِزوة، ورحل بدر واستلا في سلام؛ وإن كانت القطط لا تزال تسكن طابقها بحثًا عن فتات في موائد القمامة بعد رخاء قِطع التونة والسالمون. حتى القطط تحكي لأحفادها أن استلا كانت تعيش هنا يومًا ما.

علية سافرت إلى السعودية مع زوجها الذي أصبح شريكًا في

بعض شركات المقاولات هناك، يتاجر في العمالة المصرية ويدعم بعض الجماعات الدينية، ينتظرون نفحاته ودعمه ويتركون له المنبر في أجازته الصيفية.

علاء أصبح مستشارًا قانونيًا لبعض شركات توظيف الأموال التي تستثمر في مصر ولندن، ولكن أصحاب رؤوس الأموال من المطحونين والمهمشين ذوي الدخول المنخفضة لا يعلمون أن أحدهم يضارب بتحويشة العمر في بورصة لندن غير الآمنة ليحقِّق من خلفها ثروة طائلة.

في متجره بالوراثة، ومتجر والده فيما قبل؛ يجلس مصطفى كعادته يقرأ أحيانًا، ويصنع بعض التماثيل والتحف والزخارف أحيانًا، وأضاف إلى عادته قراءة الجرائد اليومية خاصةً في ظل توتر منطقة الخليج والحرب غير المفهومة أو المبررة الدائرة هناك، لكنه كان انتقائيًا في قراءته حتى في الجريدة؛ العناوين الرئيسية في الصفحات الأولى والسياسية تكفيه تمامًا، فلا يعنيه تفاصيل الخبر السياسي، فالأقلام تُملأ بحبر السُّلطة، وهذا شأن لا يعنيه على الإطلاق.

في الصفحة الثانية كان صراع طبقي خفي يستمتع مصطفى بقراءة تفاصيله، صراع خفي بين القناة الأولى والقناة الثانية في عرض البرامج، فالقناة الأولى هي قناة شعبوية تميل إلى الأفلام والثقافة العربية المصرية، إلا من إطلالات (نادي السينما) برقابة خاصة من «دكتورة درية شرف الدين»

الرقيبة على المصنفات، أو من (اخترنا لك) الذي يعتني بالترفيه أكثر منه الفن أو التثقيف، وكانت عادةً ما تعرض محتوى اجتماعيًا موجهًا لجموع الشعب متوسطي الحال، وسهرات دراميه وأفلام كلاسيكية ذات محتوى محافظ قطعًا.

بينما كانت القناة الثانية هي متنفس أرحب للثقافة والفنون ومساحة للطبقة الأرستقراطية حينها، فـ(بانوراما فرنسية) وعروض الأوبرا وفن الباليه حاضرون بقوة، وأفلام أجنبية تتيح لك كمواطن مصري أن ترى العالم من حولك. وقطعًا مسلسلات المساء مثل (نوتس لاندنج) و(فالكون كريست) يتابعها الصفوة من أهل المحروسة.

أما عن الرياضة والاقتصاد والحوادث، فكلها صفحات تمر مرور الكِرام، حتى يصل إلى الأبراج ليقرأها ليعرف منها طالعه المحتوم بتهكُم.

ولا يزال مصطفى يطالع الناس، ينسج لهم من خياله أسماء وصفات حسب مظاهرهم، هذا يبدو «أحمد» فمظهره تقليدي للغاية، وهذا «مجدي» يبدو طبيبًا، وهذه «هناء» ربِّة منزل، أما هذا «رفعت» ويبدو قبطيًا من هيئته ووشم الصليب على معصمه الأيسر... في العادة لم يكن يلتفت إلى الصبية صغار السن، حيث لم تكن الدنيا صبغت عليهم صفات وأسماء يمكن أن نستنبطها من هيئاتهم... إلا هذا الصغير الذي يبيع السجاد الصوف، ذو الأحد عشر عامًا، يمر

كثيرًا من أمام متجر مصطفى يبادله ابتسامة، ويُنادي على بضاعته: يا سجاد يا صوووووف.

كان هناك رابط خفي بين الفتى ومصطفى، وكأنه يشبهه، وإن كان المظهر لا يشبهه، فهذا الطفل البائس لا يرتقي ليشبه مصطفى ابن الأكابر صاحب الثروة والصيت والفن. شتّان بين الخليطين، وإن كانت الروح قد تتشابه رغم اختلاف الأبدان والمظاهر الخارجية.

ولكن هذا الفتى النحيل الأسمر ذو شامة بجوار شفته السفلية على خده الأيسر، الذي يحمل السجاد فوق كتفه الضعيف ويقف على قدمين راسخين، يبدو كرجل مُسِّن عاش منذ الأزل، يحمل ما يزيد عن ضعف وزنه من السجاد، يبيع ويقف أمام الزبائن كتاجر عجوز لا يمكن أن يخدعه الزبائن الذين يتفننون في الفصال في السعر... تستوقفه إحدى النساء الخمسينيات ومعها ابنتها العشرينية، وتبدأ في الحديث، بينما مصطفى يراقب عن كثب...

- يا بتاع السجاد: وريني يا ابني معاك إيه؟

- على عيني حاضر.

يُنزل الفتى حمولته الثقيلة، ويقف يتفحص الزبونة وابنتها...

- بكام يا ابني السجادة الحمرا؟

- شوفي الأول الخامة وشوفي فتلتها وبعدين اسألي على

الألوان، هتلاقيها متقلقيش... ولعلمِك دي مابتروحش مع الغسيل.

- يا ابني بكام؟

ينظر الفتى إلى الفتاة العشرينية:

- مبروك يا عروسة.

البنت بابتسامة:

- الله يبارك فيك.

السيدة:

- وعرفت منين إنها عروسة؟

- عروسة وست العرايس كمان، نازلة مع ست الكل تشوّرها وتجيب أحلى جهاز بعون الله.

- طيب يا لِمض... قولي بكام؟

- معلش يا أُمي إنتي داخلة عليا داخلة مش صح... العروسة دي أختي، الأول أنا أسألها لون الصالون والأنتريه وتشوفي الخامة واللون، وبعدها السعر مانختلفش فيه عشان ربنا يكرم الكل ويتمِّم بخير إن شاء الله. اعتبري السجاد نقوطها وأنا زي ابنك.

مصطفى يكاد يقف ليصفِّق للفتى الموهوب ويترحّم على رافع شاهبندر العطارين.

دقيقتان والسيدة تحمل سجادتين والعروس تحمل اثنتين،

والفتى لم يبقَ من حمولته سوى سجادة وحيدة...

يتردد مصطفى قبل أن ينادي على الصبي:

- يا بتاع السجاد...

تلمع عينا الصبي، يهرول والسجادة فوق كتفه، يهرول وكأنه بلا ثقل وبلا جسد أو حمولة. يقف بين يدي مصطفى رافعًا رأسه وكأنه مندوه أو بهلول يقف أمام قطب أو عارف:

- أمرك يا أستاذ مصطفى.

- الأمر لله. اسمك إيه يا ابني؟

- بينادوني يا هوبة.

- إنت في مدارس يا ابني؟ ولا شغَّال بس؟

- أنا في مدرسة العطارين الإعدادي اللي في وش المطافي.

- وشاطر بقى؟

- نُص نُص... باحاول.

- وأهلك فين يا هُوبة؟

- متطلقين من زمان، بس مفيش مشاكل.

- وإنت عايش مع أبوك ولا أمك؟

- مع أمي، مابروحش لأبويا إلا عشان أحمِّل من عنده بضاعة.

- آه، إنت شغَّال مع أبوك.

- أمي وأبويا على باب الله، كلنا بنسترزق. البضاعه أبويا

يجيبها، أمي تصرّفها دلالة، وأنا سرّيح.

- جدع يا هوبه... طيب هات السجادة اللي معاك دي.

- تلزمك يا بيه ولا جبر خواطر؟

- هات يا لمض، هتفرق في إيه معاك؟

- لا تفرق يا باشا، تمن السجادة ولا يغنيني ولا يفقرك، بس يمكن تروح بتمن يرضيني مع اللي تلزمه.

- مش هفاصلك ماتخافش.

- لا يا أستاذ أنا عارف إنك مش من الزباين المناهدة اللي لو قولتلها ببلاش هتقولي ببلاش إلا ربع.

- بكام يا لمض؟

- مين غير فلوس خالص دي كفاية إنها ليك.

- طيب نزِّل من على كتفك وخد فلوسها عشان تروّح.

- طيب وتلبخ نفسك بسجادة ليه يا أستاذ؟... أنا كده كده هاسرح بغيرهم بُكرة، وإن كان ع الفلوس جيوب الناس مليانة.

- إنت مش عايز تبيع؟

- لا مين قال؟ بس مابحبش أشحت.

- لا يا سيدي مش شحاتة، خُش افرد السجادة عندي في المكتب وخُد تمنها.

يدخل وهبة إلى محل مصطفى للمرة الأولى، وعينه معلقة على

اللوحات والتُّحف المبهرة...

– مكتبك فخمع السجادة يا باشا، دي بتاعت الناس اللي على قد حالها... بس من عينيا حاضر.

يفرش السجادة ذات اللون الأحمر فوق أرضية المحل...

– تمام كده يا باشا؟

يُخرج مصطفى بعض النقود فوق ثمن السجادة ويمد يديه لوهبة، الذي يأخذ النقود وهو يتعمد لمس يد مصطفى، ويعد النقود ليجد بها فائضًا. يُخرج الفائض ويمد يده لمصطفى:

– دول زيادة عن تمنها ومكسبي.

– طلعوا من ذمتي خلاص.

– مابحبش الشحاتة يا باشا.

– ده جبر خاطر يا عبيط.

– اجبر خاطري وطلّعني من عندك رافع راسي يا ابن الحاج رافع، مش بالفلوس.

– وعارف الحاج رافع كمان؟

– ومين مايسمعش عنه وعنك؟... دا إنت العطارين بذاتها.

– طيب لو عايز شغل تاني تعالى أقف في المحل اتعلّم في الأنتيكات وأعلمك البيع والشرا.

– وبضاعة أبويا مين يصرّفها لـه؟... ولا إنت تبيع وأبويا

بضاعته تبور؟

– تكسب ياواد... ماشي ابقى عدّي على عمك مصطفى عشان نتعلم البيع منك.

– العفو يا أستاذ، البيع نُص تُجار البلد متعلمينه منك ومن الحاج الله يرحمه.

يمد وهبه يديه بالنقود بإلحاح لمصطفى، الذي يأخذها.

– بالإذن يا أستاذ.

– اتفضل.

يبتعد وهبة عن محل مصطفى الذي يراقبه، يراقب خطواته الواسعة الهاربة وجسده النحيف وروحه الخفيفة وهو ينصرف بين المارَّة.

يعود مصطفى لجلسته من جديد، الحياة أصبحت فارغة بعض الشيء، رغم الزحام المحيط، أو أنه شعور بالغُربة يحيط بالنفس كلما تقدَّمنا بالعمر. الجيل السابق انسحب من المشهد، والجيل الحالي متفرّق بحُكم الدنيا وما فيها، والجيل الجديد بدأت براعمه في الظهور... الحاضر محاط بين ماضٍ تلاشى إلى المجهول مع مَن رحلوا، والمستقبل يعيش في المجهول ليأتي بما لا نعلم... كل ما عليك هو أن تخطِّط ليومك يوم بيوم... ويوم مصطفى ما بين محله وورشته أو منزله الفارغ

ومرسمه الذي قُدِّر له ألا يكتمل يومًا ما. لا يمارس مصطفى رفاهية الأغنياء، ولا يعيش حياة الكادحين، مما أفقد حياته بعض الطعم والروح. مليونير وتاجر ورسام ومهندس بالاسم، رغم تعدد الملكات والإمكانيات إلا أن الملل وعدم الاكتراث قد سيطرا على المشهد، فاختار ثوب التاجر يلبسه ليجد مبررًا كافيًا ليتعامل مع الناس ومبررًا منطقيًا ليبقى في الشارع أطول فترة ممكنه يراقبه لعله يراها؛ (زينة)... يمارس الرسم أحيانًا ويحاول ألا يرسم وجه زينة قدر المستطاع، ويجتهد في أن يطوّع أنامله في ألا ينحت وجهها على قطع الخشب... حتى البورتريه الشخصي الوحيد الذي رسمه لنفسه وجد فيه ملامح منها، رسم نفسه بجلباب وعباءة كما فعل (محمود سعيد) وإن كان متأثرًا بزي والده رافع في الأساس،. ورسم نفسه بوجه غير مكترث كما فعل (فان جوخ)، رسم عينيه أوسع ناظرة في اتجاه اليسار، لا تنظر لمن ينظر إليها كما جرت العادة، وأذنيه أصغر، وشفتيه أكثر غلظة... خلفيتها داكنة كمن هو قادم من المجهول، وضوء غير مسلط على الوجه بشكل كامل... رسمها بألوان زيتية داكنة.

مصطفى الجالس شاردًا كالعادة؛ قطع شروده الشيخ (بهي) يقف أمامه... شاب الشيخ بعض الشيء ولم ينطفئ بهاؤه، بزيه المعتاد وابتسامته الهادئة وملامح الرضا؛ يقف مُسلِّمًا:

– السلام عليكم يا باشمهندس.

يقف مصطفى مرحّبًا بحرارة:

– أهلاً يا مولانا، دا إيه الخطوة العزيزة دي؟ اتفضل يا شيخ بهي.

ثم ينادي على أحد معاونيه:

– قهوة بسُرعة يا طارق.

الشيخ:

– ربنا يبارك فيك يا مصطفى.

– واحشني يا شيخ والله.

– وإنت كمان، عشان كده جيتلك.

– أنت نورتني والله. أنا عارف إني مقصّر معاك.

– ماتقولش كده، الود موصول دايمًا.

– طمِّني عليك يا شيخ؟

بهي ضاحكًا:

– بتسبق عمك الشيخ في السؤال وتاخد مني الثواب؟ أنا الحمد لله عايش في ضل نِعَم ربنا.

– ربنا يديم عليك نِعمه.

– إنت بقى يا درش؟ طمني عليك.

– الحمد لله ماشي الحال. بين البيت والمحل، والدنيا ماشية.

– وولادك؟

– بخير الحمد لله، بأزورهم من وقت للتاني، وساعات قليلة بينزلوا مصر يتفسحوا ونتقابل.

– ربنا يباركلك فيهم، ويباركلهم فيك.

– اللهم آمين، ويباركلنا في عمرك يا راجل يا بركة... إلا قولي يا مولانا، مافيش باب خير مفتوح ندخل فيه؟

– أكيد دايمًا في أبواب خير. بس قولي إنت عايز تعمل إيه؟

– يعني لو المسجد محتاج حاجة، حد من أهلنا محتاج مساعدة.

– المسجد عمران بالذكر والحمد لله حالته مُرضية للمصلين... بس لو ع الخير في باب يا مُرزق.

– طيب شاورلي عليه.

– عمك الشيخ عيد.

– المُنشِد؟

– الله ينور عليك، هو بعينه... ربنا أذن له بالحج وأظنه محتاج يكمل مصاريف رحلته، أخد فلوس معاشه من الأوقاف وجوِّز بناته، وقدِّم ع التأشيرة وربنا كرمه، وأظنه محتاج يكمِّل على القرشين اللي معاه.

– أنا عنيا ليه وليك يا مولانا... وإنت مش ناوي يا مولانا تطلع معاه؟

– أنا؟؟ لا يا ابني ماقدرش.

- ماتقدرش ليه؟ ما شاء الله صحتك زي الفل ربنا يديك الصحة، ولو على الفلوس أنا تحت أمرك، ولو....

بهي مقاطعًا:

- قلبي يا ابني مايستحملش.

يدخل المساعد يضع القهوة أمامهما. يُكمل مصطفى:

- اتفضل يا شيخ بهي... مش فاهم يا مولانا؟

- الناس أحوال يا مصطفى، وكل قلب وليه حال مع الله، أنا ماأقدرش ع الحج.

- مش فاهم برضه ليه ماتقدرش؟ هو إنت ماحجتش قبل كده؟

- ربنا سبحانه وتعالى مَنّ عليا بالحج مرة، ودوبت يا ابني على باب المصطفى في المدينة، وبكيت في عرفات لما انفطر قلبي. مسكت باب الملتزم وسبت روحي متعلقة هناك... قلوب الناس أحوال يا درش، ولما يأذن لي هالبِّي.

مصطفى ينظر إليه صامتًا. يسأله الشيخ بهي:

- مالك يا مصطفى؟

- قلوب الناس أحوال... هو مين يا مولانا اللي مسؤول عن اللي في قلوبنا؟

- إحنا يا ابني... أكيد إحنا.

– يعني إنت اللي وصلّت قلبك إنه مش قادر يتحمل حِجة تانية ؟

– سؤالك صعب، محتاج تدبُر. لكن القلب هو محل استطلاع المُطلّع .

– يعني إيه يا مولانا ؟

– يعني هو المكان اللي ربنا بيطلع عليه ليرانا ويرى أحوالنا . والقلب زي أي شيء في الدنيا ممكن يمرض، ومرضه الحقد والحسد، وممكن يعمى، وممكن والعياذ بالله يموت، وإحنا اللي علينا نشوف اللي يُحي قلوبنا ونعمله .

– أبويا جالك يا مولانا ؟

بهي ضاحكًا :

– أختك أخبارها إيه ؟ ... بعيدة عن الحرب اللي دايرة ؟

– آه الحمد لله بعيد .

– ربنا يسلِّم دنيتكم يا ابني ويبعد عنكم كل شر. حرب دايرة في كل حِتة ومابتخلصش، ولا حد عارف بدأت إمتى ولا حد عارف مين الكسبان .

– أبويا جالك يا مولانا ؟

– سِتك قهوات بتوصيّك على أختك وعيالك؛ كل عيالك .

– اللهم اجعله خير.

- خير يا ابني ماتقلقش، أهل الله بيتلاقوا والأرواح والقلوب بتسلِّم.

- ربنا يطمنك يا مولانا.

ينظر بهي للسجادة:

- مبروك ع الأرض. جديدة دي؟

- لسه أول يوم النهاردة.

- ربنا يجعلها سعد عليك.

- والله عيل يشرح القلب يا مولانا شغال سريح، اشترتها منه.

- رزقه ورزقك... إنت بقى أخبار صحتك إيه؟

- والله تمام الحمد لله.

- وقلبك؟

- فاضي يا مولانا.

- اشغله بالخير يا درش، ربنا يا ابني يعمّر قلوبنا برضاه.

يقوم الشيخ منصرفًا، فيستوقفه مصطفى:

- على فين يا مولانا؟

- عندي لفة على الحبايب: سيدي عبد الرزاق وسيدي المقدسي وسيدي حقوق.

- هتلف على أولية العطارين كلهم؟

بهي مبتسمًا:

- وأديني جيت لأول ولي منهم.

مصطفى ضاحكًا:

- ربنا يبارك فيك. خلاص اتدفن في المحل ونعمله مقام.

- ربنا يبارك في عمرك يا ابني، ويحسن ختام رحلتك ورحلتنا جميعًا.

ينصرف بهي من المحل، ويبقى مصطفى ليعود لوحدته وسط صخب زحام السوق.

(٢٤)

التيه والتجلّي

سيناء

شتاء عام ١٩٩٥

مصطفى ذو الخمس وأربعين عامًا أنصت إلى نصيحة صديقيه يحيى ويوسف، اللذين نصحاه أن سيناء من الكنوز الصامتة في مصر. لم يكن إقناعه بقضاء إجازة شتوية قصيرة بالأمر العسير، فليس هناك ما يستوجب بقاءه دومًا في الإسكندرية، فالأمور هناك تسير على ما يُرام.. من حصيلة ثروات العائلة حصلت علية على نصيبها الذي يُديره زوجها رجب، بينما نصيب مصطفى جعل جزءًا منه متجرًا للتُّحف أشبه بالمتحف، فقد أعمل جينات والده مع موهبته في تأسيس كيان جديد يحمل الفن والتجارة في صرحٍ يرتقي أن يكون هو مقره الرئيسي في شارع العطارين، ومصنع للأثاث الراقي، ومستشفى استثماري بتوجيهات من علاء أضاف لها مصطفى عيادات لمحدودي الدخل والمهمشين. وبقي له مساحات من الأراضي الزراعية في الصعيد لا يُشرف عليها بشكل مباشر.

في منزل صغير يطل على البحر؛ استقر الرفقاء على قضاء عطلتهم في مدينة (الطور).

اجتمع الأصدقاء وقت الغروب خارج المنزل حول حفنة مشتعلة من الحطب، يرقد فوقها إبريق من الشاي يُعده يحيى ذو الأربعين عامًا، أصلع الرأس طويل القامة ممتلأ البنيان، وإلى جواره يوسف الأسمر اللون نحيف يحتفظ بشاربه منذ المراهقة، ومعهما مصطفى، الذي يسأل يحيى:

- ماجبتش قهوة؟

- أُم القهوة يا عم المُفكِّر. انزل اشرب شاي مع عامة الشعب مرة.

يوسف:

- إلّا يا درش إنت متأكد إنك صاحب أملاك؟

- إقطاعي عُقبال أولادك.

يوسف ضاحكًا:

- وحالك ده زهد ولّا بُخل؟

يحيى:

- فقري.

- يكون بيشتغلنا وعايش سفلقة زي النصابين؟

- سفلقة إيه يا شحات يا موظف درجة عاشرة؟ أنا أشتريك إنت وشركتك.

– طيب ما تشتريها ورحمة أمك وتديني أجازة مفتوحة أعملك قهوة.

– شرف ماتحلمش بيه يا باشكاتب الغبرة.

يحيى:

– لا بجد والله، إنت بقى من بتوع إن السعادة مش في المال والكلام الدش ده؟

– هاجاوبك بس خليني أسألك: إنت سعيد يا يحيى؟

يحيي يحك صلعته يفكِّر، فيرد يوسف:

– هات مليون جنيه وهابقى سعيد.

– تخيل إنهم معاك، هتعمل إيه؟

– يا لهوي، هاسوّي الهوايل: هاسافر، أتفسح، ماشيلش هم الدنيا.

– طيب يا جحش ما إنت مسافر وحاليًا بتتفسح.

– هربان، هربان يا درش، فرق كبير بين إنك تتفسح وإنك تهرب.

يحيى:

– هو إيه ممكن يخليك سعيد؟ هو ده السؤال.

– إيه اللي ممكن تشتريه يخليك سعيد؟

– سؤال صعب، بس أكيد الفلوس بتوفّر حاجات وأوبشن ومُتع صعب توجدها وإنت كحيان.

– هتجيب إيه يعني؟ نسوان، عربية، بيت واسع... وبعدين؟

يوسف:

– يا عم هاتهم ومالكش دعوة ببعدين.

– خلاص، تطلع معايا الجبل بالليل وتاخدهم لما تنزل.

– يا عم اتكل على الله، إحنا ناقصين فرهدة؟

يحيي ضاحكًا:

– مع نفسك إنت يا أبو علي، إحنا رُكبنا ماتستحملش ٤ ساعات طالع وفرهدة.

– ما أنا جاي مع جوز معوقين.

– أيوااا، عاملنا كأننا معوقين بدنيًا وذهنيًا كمان، إحنا جايين نرتاح مش نشقى يا ابن عمي.

– عامةً في واد صغير اسمه (هارون) جاي نص الليل وهاطلع معاه، اللي يغيَّر رأيه أهلاً وسهلاً.

يوسف:

– أهلا بيك يا حبيبي اتفضّل.

مصطفى ضاحكًا:

– طيب ما تقوم تجيب العود لعمك يحيى ندندن شوية.

ينهض يوسف من مجلسه:

– أهي دي فكرة كويسة ومافيهاش مجهود مبالغ فيه.

يخرج يوسف بالعود ويضعه في يد يحيى الذي يحتضنه ويبدأ في وزن أوتاره، ويسأل مصطفى:

- إلّا إنت يا درش عمرك ما جرَّبت تلعب مزيكا؟ طول عمرك سميِّع بس؟

- لا حاولت مرتين، مرة جبت ناي عشان كان عند جدي غفير اسمه (أبو عياط)

- يا ساتر يا رب، عياط إيه؟

- كان صوت نايه بالليل أهل البلد بيشبهوه بالبُكا، فسمّوه أبو عياط.

يوسف:

- والمرة التانية؟

- جيبت عود مرة وأنا في الجامعة وتحمست، بدأت اللعب شوية بس تمارينه كانت كتير: فك صوابع وحفظ مقامات وتون ونص تون وربع تون، كنت هافقد إحساسي بالانبهار بالمزيكا وهي بتتحول لمعادلات رياضية مزعجة ولتمارين مُملة، فقررت إني استمتع بالمنتج النهائي، مع إني باحقد على كل اللي بيعزفوا.

يحيى:

- أيوه، أنا فاكر لما جيبته أيام الجامعة كنت نشاز أوي.

يوسف:

- أهه، شوفت إنت كمان كسلان ومعوق زينا ومالكش في الفرهدة.

- لا إنت رافض تمشي أصلاً. هو أنا بأقولك تعالى أعلِّمك المشي؟ أنا بأقولك تعالى اعمل حاجة إنت المفروض بتعملها.

- لا أنا كمان قررت استمتع بالجبل من تحت عشان مافقدش شغفي...

مصطفى:

- سيبك منه يا يحيى، قول إنت.

يبدأ يحيى في العزف من مقام بياتي الهادئ. يشجعه مصطفى:

- أيوه، امسك في البياتي ده.

- طيب نقول إيه بياتي؟

- نقول (هان الود).

يبدأ يحيي في العزف بينما يغني معه مصطفى ويوسف: (قالولي هان الود عليك، ونسيك وفات قلبك وحداني)

يعلو غناء الأصدقاء في مقام البياتي من (هان الود) إلى (كل ده كان ليه؟)

الأجواء تثير شجون مصطفى، وتوقظ ذاكرة تحاول أن تغفو بين الأيام، يناجي حبه القديم الغائب: (حنَّ قلبي إليه، وانشغلت عليه)... نداء يستشعر أنها تسمعه أينما كانت، وأيًّا ما كانت:

إنسية أو مخلوقًا آخر تعلقت بها روحه المعلقة بالفطرة.

لا يزال البياتي سيد الموقف، فيقودهم إلى (سألوني الناس) لفيروز، يحتضن يحيى عوده ويعزفها ببراعة، ويوسف يجيد الغناء كما كان دومًا في كورال الجامعة، ومصطفى تسري الموسيقى في روحه؛ كلٌ ينادي حبيبه ويغني على ليلاه: (بيعز عليا غنّي يا حبيبي لأول مرة ما بنكون سوا).

تُسدل الصحراء رداءها الحالك المُرصَّع بالنجوم، وحطب الإبريق يخفت تدريجيًا. استدارت الأرض لتضع الشمس في ظهرها وتنظر مع الأصدقاء إلى ذلك القمر المطل عليهم كنافذة مستديرة تطل على بيت الأحبّة.

انتصف الليل، ومن بعيد بدا كشاف سيارة تقترب. يوقف يحيى العزف ويتطلع يوسف ومصطفى إلى الضوء الذي يقترب حتى تقف السيارة أمامهم. ينزل منها شاب عشريني يرتدي جلبابًا قمحي اللون بفعل الشمس، نحيف القوام متوسط الطول... يقترب منه مصطفى:

- أهلاً يا هارون.

- السلام عليكم. جاهزين يا أستاذ مصطفى؟

- والله أنا جاهز، بس الرجالة بعافية شوية، فهنطلع أنا وإنت بس.

- بس يا أستاذ مصطفى؟

- إحنا على اتفاقنا ماتقلقش.

- مااقصدش يا أستاذ مصطفى، واحد زي عشره المشوار مابيتغيرش، أقصد هتطلع لحالك؟ أحسن تاخد معاك ونس.

- البركه فيك بقى يا هارون نتونس سوا.

- نتشرف بيك. خلاص يبقى نتوكل على الله.

يحمل مصطفى حقيبة صغيرة ويصعد إلى السيارة.

القمر مطلٌّ هناك يتوارى خلف الجبال، ونسيم الصحراء ليلاً يجعل كل شيء بداخلك يتنفس، يُفرغ ما في الصدر من عناء وكأنه زفير طويل ممتد دون أن يقطعه حاجة للتنفس.

تصل السيارة إلى أول طريق الصعود، ينزل مصطفى وهارون...

- جاهز يا باشمهندس.

- جاهز جدًا.

- توكلنا على الله.

خطوات تتبع خطوات تطوي طريقًا حلزونيًا يلتف حول الجبل الراسخ في الأرض. مسيرة طويلة، الصمت يخيِّم وضوء كشاف يقود خطوات هارون ومصطفى إلى قمة الجبل... مصطفى يكسر الصمت:

- بقالك كتير شغَّال الشُغلانة دي يا هارون؟

- أنا من عيلة (الجبالي).

- أنعِم وأكرم، بس ده إيه علاقته بالسؤال؟

هارون ضاحكًا:

- عيلة الجبالي بينها وبين الدير عهد وعقد من سنين إنها توصّل الحُجاج لدير سانت كاترين. من يومنا ودي شغلانتنا، الصبي عندنا حافظ الجبل كيف ما هو حافظ كف إيده لا يضل فيه ولا يتوه. ماتقلقش يا باشمهندس إنت في أمان.

- وهو ده فعلاً الجبل اللي حصل فيه التجلّي؟

- والله حسب إيمانك، يعني ربنا في القرآن قال: (جعله دكًّا وخرَّ موسى صعقًا) يعني المفروض إنه مالهوش وجود. وتفاسير قالت إن الجبل اللي اتدّك جبل تاني لأنه قال (انظر إلى الجبل) وده معناه إنه جبل على مد البصر. وناس تقول إن جبل الطور هو اللي ربنا رفعه فوق بني إسرائيل لما عصوا وتمردوا... لكن الأكيد سيدنا موسى كان هنا في سينا، والتيه كان هنا أكيد في سينا.

- مثقف إنت يا هارون.

- كل يوم بأوصَّل ناس، كل واحد بروايته وكل واحد بإيمانه، اللي طالع يحج واللي رايح يستجم واللي طالع يتأمل، واللي ماتأخذنيش طالع يقضي وقت لطيف مع الخواجات... والجبل هو الجبل، الفرق في النية.

- طيب واللي جاي يفرَّغ طاقته؟

- يبقى جاي من تيه وبيدوّر على نفسه.

مصطفى ضاحكًا:

- طيب ليه كل واحد بمعتقداته ربط الإله بجبل؟

- مش فاهم يا باشمهندس.

- حتى الديانات القديمة لما كانت تتصور وجود آلهة كانت مسكنها جبال الأولمب.

- يمكن عشان الناس بتهاب الجبال، ربنا دكَّ الجبل ورفعه، وخلَّى العاصي ابن نوح يطلع فوقه وغرق، وخلَّى الخليل إبراهيم فوقه ياخد الطير المتقطع ويجمعه، سبحانه. بس موضوع الأولمب ده ماعرفهوش، يمكن لو طلعته أعرف.

يضحك كلاهما، ثم يقول مصطفى مُمازحًا:

- لا ربنا يكتبهالك إن شاء الله.

بخطوات متلاحقة يصعدان، والقمر المكتمل فوق قمة الجبل وكأنه منتظر وصولهما.

انتصف الطريق بعد ما يقرب من ساعتين، التعب يسري في ساقي مصطفى:

- في مكان نرتاح فيه شوية؟

- في كتير، لو بردان وليك غرض في مكان ترتاح فيه وتشرب قهوه يبقى نكمِّل بعد حجر موسى فيه استراحة ست كبيره ترتاح عندها.

– أيوه هو اللي فيه قهوة ده عشان نعرف نكمّل.

– إنت ربنا بيحبك.

– إشمعنى؟

– أنا مابحبش أفرض على الضيوف مكان الاستراحة، وقت ما يقولوا نرتاح بأقف عند أقرب استراحة عشان ماظلمش حد من أصحاب الاستراحات اللي بيسترزقوا على الطريق، ومش كتير بيطلبوا يرتاحوا هنا.

– اشمعنى يعني المكان ده مميز؟

– دي استراحة الحاجة، ست بركة، زمنها صاحية منتظرة الفجر.

بعد فترة وجيزة من المسير كان الجبل يحتضن بيتًا صغيرًا مُضاءً إلى حدٍ ما، تغشاه سكينة وهيبة... يقف هارون على بابه مصفقًا:

– السلام عليكم يا امه.

ليجيئهما صوت امرأة عجوز من الداخل:

– وعليكم السلام. ادخل يا هارون.

– معايا ضيوف يا امه.

– مرحبابكم يا ولدي، اتفضل.

يدخلان إلى المنزل البسيط المُضاء بمصابيح زيتية ذات ضوء

أصفر، وأثاث بسيط، وبعض من أماكن خُصصت للجلوس والاستلقاء؛ من الحجر والخشب ومغطاة بمفارش بدوية منقوشة بألوان زاهية. وفي منتصف الدار تجلس امرأة عجوز جاوزت عامها الثمانين، خمرية اللون، نحت الزمان وجهها بعناية بتجاعيد تشبه جداول المياه المنسابة من فوق جبل لمئات السنين.

يُحييها مصطفى:

- السلام عليكم يا حاجة.

تنظر العجوز إلى وجهه بتمعُن:

- وعليكم يا ولدي... هارون روح عند خالك ارتاح وسيب الضيف عندي، وتعالى بعد الفجر كمِّل طريقك معاه.

- بس يا خالة يمكن الباشمهندس مش حابب يستنى للفجر.

- روح يا ولدي اسمع الكلام.

يستحثه مصطفى:

- اتفضل إنت يا هارون، أنا حابب أشرب قهوة مع البركة وندردش شوية. أنا فعلاً محتاج أرتاح.

ينصرف هارون، ويبقى مصطفى مع العجوز، التي تقترب من وجهه، قائلة:

- قرَّب، قرَّب مني يا ولدي.

- خير يا أُمي، إنت بتشبِّهي عليا؟

- إنت ولد رافع؟ إنت مصطفى؟

مصطفى في ذهول:

- إنتي تعرفيني يا أمي؟

- أعرف اسمك وشكلك وأعرف أبوك.

- دا إيه الصُدف دي؟ يا رب تكون معرفة خير.

- عدَّى عليا أبوك من سنين وسنين، كان بيعس على خير الأرض، وكان عشمان يكون في الجبل من آثار الأنبيا ومن قطر أهل التيه.

- آه فهمت. بس أنا هنا صُدفة، أنا ماليش في شُغل الوالد.

- قعد قعدتك، وإنت واخد منه عينيه وملامحه، بس روحك غير... قريتله فنجانه ومشي.

- وعرفتي اسمي منين؟

- حكالي عنك... لسَّاك بتشوف في منامك اللي بتشوفه؟

مصطفى يصمت وينظر لها باندهاش، فتسأله:

- تشرب قهوة؟

- يا ريت.

- خلاص اشرب قهوتك ولو حابب تحكي اِحكي.

تبدأ في إشعال النار، وتضع قدح القهوة فوقها، فتفوح رائحة القهوة في المكان مثيرة شوق مصطفى لارتشافها...

- هو ممكن أعرف فنجان أبويا قال إيه؟ ولّا ده سر؟

- لا يا ولدي مش سر. فنجانه قال بلاش تكمِّل في سكتك، وقال عقلك وروحك في جراب حاوي وبتموت درويش زاهد.

ينظر مصطفى إليها بريبة، فيما هي تصب له فنجان القهوة، فيبدأ في ارتشافه... تكمل:

- ربنا يا ولدي اختار ديارنا وتجلَّى فيها لرسوله وكلّمه واختار أرضنا تتوه فيها الناس عشان تتعلِّم وتفهم نفوسها... قدر يا ابن رافع، قدر كله ومكتوب.

- وده إيه علاقته بابويا يا أُمي؟

- أبوك وإنت وأنا وكل الناس يا ولدي جينا الدنيا في توهة ندوّر على نفسنا وندّور على اللي يخصنا، والحق يتجلَّى بدل المرة ميت مرة، وإحنا نتوه... أبوك جاني تايه، وإنت جاي تايه، وأنا يا ولدي زيكم بادّور.

- وأبويا قال عني إيه؟

- لمَّا ارتاح وفضفض جاب سيرتك وبكى، كان موجوع عشانك، قالي: الواد ممسوس واللي عليه خواجة يقوّمك من عز النوم تُرطن بلُغة ولا أهلك فاهمينها، ولا كودية زار عارفة تفهم، قالوا لُغات قديمة وبِطلت... بس شيفاك مليح يا ولدي ورايق.

مصطفى مُبتسمًا:

- الحمد لله.

- ألف حمد وشُكر.

مصطفى يصمت مُفكِّرًا.

- شارد يا ابن رافع.

- غريب أبويا ده، مش عارف كان كويس ولا وِحش؟ مُهرِّب ولا تاجر؟ درويش ولا زعيم عصابة؟

- أبوك بشر زي كل الناس، حكالي عن الحاوي وعن شُغله معاه، وعن الشيخ بهي وصُحبته ليه... زي كل الناس عايش بين الخير والشر، تايه وبيدوّر... أبوك كان زي المية يا ولدي.

- مش فاهم.

- يعني في البرد يجمد زي التلج، وفي الحرّ يغلي ويفور، ياخد نزلات الدنيا في وشه وينقرع الصخر لما يفتّته، نَفسه كانت سيقاه، والنفر منا يا ولدي لما يسيب حاله لنفسه بيتوه. آدم تاه لما سمع لنفسه... روح يا ولدي افرد ضهرك على الدكة اللي هناك دي، وأنا باتوضى واصلي لحد الفجر. بعد الفجر تكون ارتحت ويكون هارون وصل تكمل رحلتك معاه.

- أنا فعلاً محتاج أفرد ضهري، بس مش هنام.

تضحك المرأة:

- روح بس، إنت محتاج تنام، روح يا ولدي ومش هتندم.

يذهب إلى الأريكة، يضع جسده المنهك فوقها، ينظر إلى المرأة التي شرعت في صلاتها وهي جالسة، تدور عيناه في

الغرفة يفكِّر فيما قيل للتو... يسري التعب في جسده المُنهك، يغلبه النعاس، ليغط في نوم عميق.

يرى في منامه أنه يسير وسط حشد في صحراء غير متناهية، يرتدون ثيابًا قديمة؛ جلابيب وعباءات لعصور بائدة، يقودهم هارون من بين الجموع يراها هي...

هي... هي...

إنها زينة، طلتها البهية ولونها الخمري وشعرها المجدلي يلمع في ضوء الشمس، والعقد الذي اشتراه لها من محل (بدر) الرجل النوبي يزيّن رقبتها بلمعة تتحدى ضوء الشمس... تقترب منه، تمسك يديه ويسيران وسط الحشد، لا يُبالي إلا بها، لا يرى إلا عينيها... لا يشعر إلا بيديه تغوص في يديها، وقدمه تغوص في الرمال.

من بين الجموع يظهر الحاوي (الأب) مُمسكًا منديلاً من قماش يفرده، يمر بين الجموع، تخلع النساء حِليهن التي تبدو على شكل حلي فرعونية قديمة، النساء تخلع مصوغاتها الذهبية والرجال يُفرغون جيوبهم من القطع الذهبية والفضية... يقترب منهما الحاوي بابتسامته المعهودة:

– حلو العقد، هينفعنا.

ترد زينة:

– مش للبيع.

– ومين قال إني باشتري؟ ده عشان تشوفي الرب بعينيكي الحلوين.

– وإنت اللي هتوريني الرَّب؟

– أنا سبب، مجرد وسيلة اختبار صغير للتضحية والعطاء بما هو أدنى لما هو خير وأبقى.

يتدخل مصطفى:

– ابعد يا حاوي، أنا عارفك وفاهم تاريخك مع أبويا.

يطوي الحاوي منديله ويقترب من أذن مصطفى كأنه يوسوس له:

– أبوك... أبوك مُعضلة دور الأب يا مصطفى، مُعضلة كبيرة لدرجة إنك تحس إن ربنا نفسه بيغير من دور الأب على الأرض.

– بلاش تلعب بالكلام معايا يا حاوي.

– غلبان إنت ومش فاهم، بأقولك بيغير... قولي كده آدم كان له أب؟ طيب حوا؟ طيب عيسى؟ طيب موسى؛ كان إيه دور أبوه؟ في كل الروايات ممسوح دوره أو طالع كومبارس، ولا هو طيب ولا هو شرير. تمام زي ما قالتلك الست البركة، دي خالتك بشاير...

يُشير إلى امرأة عجوز تجلس إلى الجوار، إنها تلك المرأة التي نام مصطفى في استراحتها.

الحاوي مُسهبًا:

- وخالتك بشاير قالتلك إيه؟ قالت أبوك زي المية مسلوب الإرادة، بيقع في الخطية، في البرد تلج يطرقع في كاسك وفي الحر يغلي يعملك فنجان قهوة حلو، زي كل بني الإنسان مسلوب.

يباغتهما الحاوي ويخطف العقد وينطلق به مهرولاً، تلاحقه زينة ومن خلفها مصطفى، الرمال تثقل تحت قدميه وتُبطئ خطوته، تتحول إلى زلط صغير... يطول الجري بمصطفى وهو يلاحق خطواته وأنفاسه بصعوبة بالغة، تتحول الصحراء إلى بوابات مصنع أبيه بمنطقة برج العرب، يقترب مصطفى وقد غاب عن بصره الحاوي وزينة، ولكنه لا يزال يتبع خُطاهما... يقترب من أبواب المصنع، يسمع دوي طلق ناري... يقف للحظة، ثم يهرول أسرع وأسرع، حتى يجد زينة تسحب جثة الحاوي من ساقيه فوق الزلط تمامًا كما حكى له علاء يومًا ما، تُفرغ ما في منديله وتسحب العقد من يديه المتمسكة به، تعيده حول رقبتها، تنظر لمصطفى المصدوم بهدوء:

- كان لازم يموت.

تمسك بيديه، وفي يدها الأخرى المنديل الذي جمع فيه ذهب الناس ويبتعدان هي وهو رويدًا رويدًا... وفي الخلف يخرج رافع من الباب، يرى صديقه غارقًا في دمائه، يجثو على رُكبتيه، يبكي وهو يقلِّب في جثته... يحاول مصطفى أن يعود إلى أبيه، فتمنعه قبضة زينة، يحاول أن يصرخ مناديًا، صوته لا يخرج من

حلقه، جاثوم جديد تطبق على صوته... يسمع صوتًا يُناديه:

- يا مصطفى يا ولدي، قوم يا ولدي.

ينتفض من فراشه غارقًا في عرقه، يجد نفسه في الغُرفة نفسها، والعجوز تحاول إيقاظه، تسأله:

- حلم؟

- كابوس.

يدخل عليهما هارون:

- شكلك نمت يا باشمهندس؟

- وحلمت حلم هد حيلي أكثر من مشوار الجبل.

- حابب تكمِّل ولّا نرجع؟

- نكمِّل... طالما وصلنا لهنا يبقى نكمّل.

- متشكرين يا امه، هارجعلك وأنا نازل.

يضع مصطفى يضع في جيبه ليُخرج ثمن الإقامة القصيرة والقهوة:

- اتفضلي يا خالة.

ترفض المرأة النقود قائلة:

- حسابك واصل يا ولدي. توكل على الله.

- سؤال يا أمي: هو أنا ممكن أعرف اسمك؟

تبتسم المرأة وتنظر إليه:

- بشاير يا ولدي، اسمي بشاير.

مصطفى متنهدًا:

- ربنا يبشّرك بالخير يا أمي... أشوفك على خير.

(٢٥)

حلاج الإسكندرية... ومسيحها

الإسكندرية

٢٨ يناير ٢٠١١٠

لم تعد الإسكندرية كما كانت في مخيلة فنانيها وعُشاقها يومًا ما، اصبح لوناها الأزرق والأصفر باهتين إلى حد الشفقة، أعمدة خرسانية تحاول عبثًا أن تطمس ملامحها اليونانية والقبطية والعربية لتجعل منها مجرد مدينة، وإن كانت روحها دائمًا حاضرة، فليست هذه هي الإسكندرية التي عاش فيها كليوباترا وإقليدس وهيباتيا، وليست تلك التي تغنَّت بألحان سيد درويش، أو ظهرت في بورتريهات وانلي وصورة شادي عبد السلام ويوسف شاهين... ليست إسكندرية بمعاني بيرم التونسي ولا وسامة عمر الشريف وشكري سرحان ولا طلّة هند رستم ونيلي مظلوم، وليست كما تمنّاها حسن فتحي... ولكنها تبقى الإسكندرية ببهائها الأبدي، فتلك التجاعيد فوق جبينها لا تُضفي لها إلا دلالات على عُمق التجربة وثرائها، لتلك الفاتنة الصغيرة ذات الألف وسبعمائة عام.

مصطفى ذو الـ٦١ عامًا يتمتع بصحة لا بأس بها لرجل في مثل عمره. انحنى ظهره تدريجيًا بفعل الزمن، ووهن ذراعاه، وغزا البياض مساحات كبيرة من رأسه...

على مدار العشر سنوات الأخيرة انخرط في العمل في سوق التُّحف وصناعتها، أصبح الأهم على الساحة، وإن كان ترك التجارة لمساعديه، إلا من القرارات الحاسمة والمعاملات الكبرى؛ بقيت له فيها الكلمة الأخيرة. وبات يكتفي بفنجان قهوة ساعة العصر على أعتاب محله. وثروته الطائلة الموروثة من أبيه ليست إلا خطابات متراكمة على طاولة السُّفرة من بنوك مختلفة بجوار تذاكر سفر تم إلغاؤها عشرات المرات لأن أبناءه الثلاثة مشغولون بأعمالهم المستمدة من ثروة أبيهم.

يقضي يومه بخطوات بطيئة بين مساجد وأضرحة وحلقات الذكر كالمتصوفين، ويعود لكأسه من وقت لآخر كي يستعين به على أفكار الوحدة المؤلمة. يُسراه لم تعد طوعه وقدرته على العطاء الفني باتت ضئيلة وباهتة... الأصدقاء هم أهل الذكر صباحًا، وفنجان القهوة عصرًا، وكأس استحله خِلسة في عتمة الليل مع صوت فوزي... وهو قادر على التعايش مع كل هذا التناقض، فوقار القهوة قد لا يُناسب مرح محمد فوزي، وأهل الذكر لا يروقهم الكأس. ولكن الكل يعيش في قلب مصطفى بسلام وتناغم رغم اختلافه، فالتضاد عنده كما تعلَّمنا؛ يقوّي المعني ويوضِّحه.

يومها ساقت قدما مصطفى جسده إلى مسجد القائد إبراهيم، حيث تجمَّع هناك ثُـوار يطالبون بعيش وحرية وعدالة اجتماعية، حقوق مشروعة لحياة إنسانية كريمة... هتافات ترجُّ أكناف المدينة، بشر كالموج، ومدرعات أمن كالقلاع، وكأن القدر قد ترك بعضهم يموج في بعض، صدامات هنا وهناك، هتافات تعلو بها الحناجر، والكرّ والفرّ في كل مكان...

كان من المخطط لمصطفى أن يصلي العصر ويعود إلى منزله، ولكن الأحداث ساقته إلى نهايات مختلفة...

وقف مصطفى الكهل ليس له ناقة هنا ولا جمل هناك...

هل يهتف؟؟؟

بِما؟

– عيش؟... ما أكثره.

– حُرية؟... هو حُر يتحرك أينما شاء، إلى أي أرض شاء، بقوة ثروته أو جواز سفره الفرنسي.

– عدالة اجتماعيه؟ هذه لا تحققها الهتافات ولا الحكومات، وإنما يحققها الوعي والثقافة. هل من يهتفون يراعون معايير العدالة الاجتماعية مع من هم أقل منهم أو من مع ينافسهم في اقتناص فُرص الحياة؟... أشُك.

اختار مصطفى السير بين الجموع صامتًا، يعرف ألم الناس وكيف صارت الأمور في الإسكندرية؛ بل في مصر كلها، يطالع

وجوههم الغاضبة المستبشرة، الأعداد كبيرة، والنبرة صادقة تسمع في صداها قحط العيش وقصر اليد.

الأمن يحاصر المتظاهرين، ومصطفى من بينهم ليس متظاهرًا؛ لأنه حقيقي، وليس من رجال الأمن، لأن الأمر لا يعنيه، هو فقط مصطفى تاجر التحف ابن الإسكندرية يدعم أبناء مدينته في مطالبهم.

يبدأ التراشق، وتتصاعد حِدة الأحداث ووتيرتها. حتى الآن صيحات من المتظاهرين ومناوشات من الأمن...

ووسط الكر والفر يقترب أحد عساكر الأمن المركزي الذي ضاقت عليه الأرض بما رحبت من الفهم، وكأان القدر قد قدر عليه رزق التعلم، جندي مجتهد يريد أن ينفِّذ الأوامر يعلو بهراوته ويهوي بها فوق رأس مصطفى، الذي يشعر بألم شديد، يُمسك برأسه محاولاً الفرار، يسير بضع خطوات مُغمض العين، نزيف بدأ من جرح في منتصف رأسه اتبعه دوار شديد، وبدأت معه أحلام يقظته... أحلام تخرج من صندوقها المطمور تطفو لتسيطر على وعيه الحاضر صورًا متداخلة وأصواتًا متزاحمة بلغات ولهجات عدة...

أفلاطون يجثو أمام سقراط في حضور الإسكندر وهو يتحدث إلى نوب، وزينا تصارع زينة، والغجرية تسحب قهوات... زحام مزعج يكسر طنينًا في أذنه، يقاومه مصطفى المُسِّن نسبيًا،

يقاوم السقوط، يمد يديه لـ أبو عياط وطنوحي، بينما رافع يمارس الذكر... في حركة سريعة تدفعه نوشا ويركله رجب وتصرخ علية... الجميع هنا في رأسه الصخب يعم وفوضى الأفكار المزعجة تخرج عن سيطرة وعيه.

يهوي على رُكبتيه...

يسقط...

دوامات سوداء تسحبه من جديد إلى مجهولٍ معلوم...

يرى نفسه في أحد سراديب شارع النبي دانيال في يوليو ١٧٩٨ أثناء الحملة الفرنسية، إنه السيد مصطفى، فارس مصري خمري اللون بنفس ملامح مصطفى، يرتدي رداء الحرب، يقود بعضًا من الشباب المقاتلين، متربصين في أحد السراديب بجوار بوابة القمر، ينتظرون أن يخيم الليل عليهم ليشنوا هجماتهم المعتادة الخاطفة كالبرق والموجعة كضرب السيوف، يُلحقون الضرر بصفوف العدو، يقتنصون منهم من يستطيعون، يستولون على أسلحتهم ومؤنهم، وينسحبون في ستر الليل... اعتكفوا في سراديبهم ثلاث ليالٍ، كل ليلة يحصدون أرواح المعتدين كملائكة الموت الموكلة من شعب اُستبيحت أرضه وثرواته خلف مزاعم استعمارية، أو بالأحرى استخرابيه واهية.

ذاع صيت مصطفى ورجاله الذي طاف سيفه يطوق أعناق الجنود المعتدين. وفي تلك الليلة كان المستهدف ضابطًا

مرموقًا في الحملة...

خرج مصطفى ومعه الرجال في حملتهم المعتادة، جاسوا خلال الثكنات، مسحوا أعناق من قابلوهم بنِصال سيوفهم، وكمَّموا أفواههم حتى لا يُسمع نحيبهم، ونالوا من الضابط المنشود نكالاً لِما اقترف...

عشرات من الأرواح مقابل مئات من السكندريين، معادلة غير متزنة الأطراف، تميل دومًا إلى الأقوى وذي العتاد والبأس.

في أثناء الانسحاب يُصاب أحد الشباب بطعنة سكين، يسقط على أثره من فوق فرسه. يلحق به مصطفى، يقتل قاتله ويأبى أن ينسحب إلا بجثمان الشهيد، يأمر رِفاقه ليعودوا، وهو يحاول رفع الجثمان فوق حصانه، ولكن شعر الفرنسيون بوجودهم، فأُحيط بهم وأدركوا وجودهم.

يضرب مصطفى جواده فينطلق وهو يحمل الجثمان يشق صفوف العدو هاربًا... حتمًا سيجد من أهل الإسكندرية من يعتني بالجثمان والفرس الأسود ذائع الصيت كمالكه.

وقف مصطفى وحيدًا شاهرًا سيفه بيُسراه ودرعٍ في يمينه؛ في وجه عشرات الفرنسيين؛ يقاتل بضراوة... تجمعوا حوله، تكاثروا، ووقف وحيدًا حول قاتليه يصيح فيهم، وهو يطوِّح سيفه يمينًا ويسارًا:

- مدد يا حُسين، مدد يا حسن، مدد يا سيد الشهداء.

يصيح فيهم أحد القادة:

- أوقفوا القتال. أريده حيًّا.

تُلقى على مصطفى الشِباك والحِبال... يجثو على رُكبتيه، يسقط على الأرض، يُجرَّد من سيفه ودرعه. عشرات الأجسام ترتمي فوق جسده الغاضب الرافض الثائر، حتى يتمكنوا منه ويقيدوه، ويُسحَب إلى زنزانته.

في زنزانته الباردة قضى ليلة وضُحاها، السجن في الوطن على يد الغرباء غُربة، والبرد في سجن الغُربة باهت بارد رغم حرارة الصيف، صامت رغم ثورة وحرب تدور خلف جدرانه... قضى ليلته مبتهلاً ذاكرًا أحيانًا، ومنشِدًا أخرى، حتى حان الوقت وقادوه إلى محاكمة عاجلة من ثلاثة فرنسيين ومصري يساعده في فهم الحديث ويترجم له ولهم.

يمثل مصطفى مكبل اليدين والساقين أمام المحكمة العسكرية، يدخل عليه المصري:

- أنا المعلم يعقوب، أنا هنا عشان أترجم، وعشان أساعدك.

- تترجم لمين وإيه؟

يرفع مصطفى صوته بلغة فرنسية واضحة:

- أنا أُجيد القبطية واليونانية والعبرية والعربية والإنجليزية والفرنسية... اختاروا أي اللغات تجيدون بمحدود معرفتكم فاسألوا ما شئتم.

القاضي:

- سيوجِّه لك يعقوب الأسئلة، جاوب باختصار، وحاول أن تكون متعاونًا لو أردت النجاة.

- أظن انك تفهمني بوضوح، وليس لك حاجة في خادم يشرح لك لُغتك الأم.

- حسنًا، ولكن لن يكون لك العُذر في عدم الفهم.

- لا يا سيد، أنا أفهمك تمام الفهم.

- الاسم والسن والوظيفة والجنسية؟

- السيد / مصطفى الرافع. خمس وأربعون. تاجر. مصري سكندري.

- هل قمت بمقاومة جنود فرنسيين واستخدمت العنف ضدهم؟

- نعم، مثلما قاموا باستخدام العنف ضد وطن ومدنيين.

- هل تعترف بتخريب ممتلكات الجيش الفرنسي وسرقة المؤن والعتاد منه؟

- نعم، كما خرّبتم شوارع الإسكندرية ونهبتم ثرواتها وتطاولتم على معبد الياهو هانبي وغيره من ممتلكات وتراث إنساني.

- لم أسأل عن دوافعك... ولتكن إجاباتك بـ نعم أو لا فقط.

- كنت أتصور أن الدوافع جزء من مجريات الأمور لتفحُص

الحكم وتحقيق معنى العدل.

يستند القاضي بظهره على الكرسي:

- حسنًا. وما دوافعك إذًا؟

- ستعرف دوافعي حينما يهاجم أحدهم باريس وليون فتقاوم وتضطر أن تقف أمامهم مُكبلاً لتشرح لأغبياء معنى الكرامة.

القاضي قارعًا بمطرقته فوق المنضدة:

- تأدَّب في اختيار ألفاظك أمام هيئة المحكمة.

- لستم قُضاتي، أنا لا أعترف بكم كمحكمة.

يعقوب مقاطعًا:

- هل تسمح لي هيئة المحكمة؟... فقد يكون الأمر ملتبسًا بعض الشيء.

يومئ القاضي برأسه بالقبول...

يعقوب:

- سيد مصطفى: إن الأمر أكبر من مجرد تحقيق، هذه محكمة موكلة من سلطة فرنسية وطأت أرض الوطن بعتاد عسكري يتقدمهم علماء وأساتذة وخبراء جاءوا لتحقيق بعض التوازن، وتأديب المماليك وتخفيف الضغط على المصريين... وهم يتفهمون تمامًا موقفك الوطني، ولكن يبدو أنك أسأت تقدير ما بذلوا وطريقة ترحيبك برجالهم لم تكن المُثلى.

- وهل يرحِّب بالمستعمر إلا متواطئ أو خائن يا يعقوب؟

- سيد مصطفى: إن الحملة وعلى رأسها نابليون تحترم الحضارة المصرية والشريعة الإسلامية، ولم....

مصطفى مقاطعًا:

- هل تعرف الحاوي يا يعقوب؟

- عفوًا؟

- ذلك الساحر المحلي الذي يظهر في المناسبات الشعبية... أنت الآن تقوم بعمله، خفة اليد وإلباس الحق بالباطل والتضليل المتعمد لاستبهار أعيُن الناس.

- سيد مصطفى: اعترفتَ أو لم تعترف بشرعية ما يحدث، ولكن أنت الآن أمام محكمة ومُدان بأمر كبير، وأظنه حسب تقديري لن يمر مرور الكرام، والحُكم الصادر لو تمسكت بموقفك؛ سيُنفذ وبمنتهى الحزم... ويحزنني أن أقول لك: وبمنتهى القسوة أيضًا. ووقتها ستدرك وتقر أنك كنت تقف أمام محكمة نافذة الحُكم والإرادة.

- الإرادة... الإرادة هي ما يريده البشر وتحقّقه السماء يا سيد يعقوب.

- نقدِّر إيمانك يا سيد مصطفى... ولو سمحت لي المحكمة فأنا أرى كما هو جلّي أن السيد مصطفى أراد بحُسن النية أن يدافع عن وطنه لعدم إلمامه بالموقف الفرنسي ونوايا الحملة... فكنتُ أرى إن كان يدلنا على بعض ممن ضُلِّلوا

والتبس عليهم الأمر وليُظهر بعض التعاون؛ هذا يكون في صالحه ويُنظر لقضيته بعين الرحمة، ويُنظر له شخصيًا كفرد متعاون يستحق منا التقدير.

مصطفى متهكمًا:

- حسنًا أيها الحاوي، أطلق سراحي الآن وسأعود غدًا أحمل سيفي ضدهم.

يرفع يعقوب يديه وكأنه يقول: قد حاولت.

القاضي:

- لمَّا تبينت المحكمة بالأدلة والقرائن واعتراف المتهم بفعلته، واستقرَّ لديها أنه مذنب... وعليه: حكمت المحكمة على المتهم مصطفى الرافعي بالإعدام شنقًا.

لم يتحرك ساكن لمصطفى الواقف أمامهم متحدِّيًا... سُحِب إلى زنزانته من جديد في انتظار الرحيل الأكبر.

قضى ليلته يفكِّر في أسرته وتجارته، تلك الساعات أو الدقائق قبل الموت ثقيلة ومُميتة أكثر من الموت ذاته. كان سقراط مُحقًا حينما تناول الكأس مُبكِّرًا قبل الغروب، فلِما الانتظار طالما الرحيل قادم لا محالة، فكل المهمومين بالحق والعدل لا يرون في الحياة سبيلاً، فهناك في العالم الآخر وعد للمظلومين ووعيد للظالمين، وإنهاء الحياة ببؤسها وآلامها أمرٌ لا يخشاه أصحاب الفِكر والبصيرة.

وسط الليل تُفتح نافذة في باب الزنزانة، يطلُّ منها رأس يعقوب:

– إنت بتنتحر يا مصطفى، وده مايرضيش ربنا.

مصطفى من مجلسه:

– وإنت بتخون يا يعقوب، وده مايرضيش حد.

– إنت بتدافع عن إيه يا مصطفى؟... وطن؟ يعني إيه؟؟ مباني وأرض؟... ولّا روحك، الهِبة اللي ربنا مديهالك؟

– أنا بدافع عن وطن، عن هوية.

– بلاش شعارات يا مصطفى، إنت فاهم إن دي لُغة المُعدمين، إنما إنت راجل عندك تجارة وبيت وأولاد، هي دي هويتك يا أبو علي... مش ابنك اسمه علي؟

– الهوية مش اللي تملكه، ولا اللي معاك. الهوية فكرة ورسالة يا يعقوب... هل اليوم اللي أخسر فيه تجارتي وابني معناه إني خسرت هويتي؟؟ أبدًا، أنا هويتي أكبر من كده وأهم.

– وأديك هتخسر ابنك وتجارتك وهويتك وروحك كمان... هل إنت كده نجحت؟

– نجحت جدًا وبتفوق... لمَّا تحول التجارة لهوية، والدكاكين لمعابد، وأكلك وشُريك تسمّيهم حياة؛ يبقى إنت بتفقد كرامتك كإنسان وبتخون رسالة الرب يا يعقوب... لما أحط إيدي في إيدك وإيدهم؛ يبقى أنا بخسر كرامتي اللي بيها بافتح دكاني

وبارّبي ابني.

- أسامي الشباب يا مصطفى هتساوي حياتك، وأنا أوعدك إني أوصل لحل معاهم أحافظ بيه على حياتهم زي ما أنا باحاول أحافظ على حياتك، لإني عارف قيمة الحياة.

- وعد؟؟؟ منك؟؟ تصبح على كرامة يا يعقوب... وإن كنت لا أظن أنك تفهم يعني إيه كرامة.

ينصرف يعقوب مُغلقًا شباك الزنزانة الصغير.

في صباح اليوم التالي يدخل السجَّان على مصطفى، ويقوده مقيدًا إلى ساحة تنفيذ الحُكم.

اجتمع الناس والقُضاة، ويعقوب يقف بين الجموع، بينما يُساق مصطفى إلى مشنقته... يتلو عليه أحدهم حيثيات الحكم ويسأل إن كان له أقوال أخرى.

ينظر مصطفى إلى الجموع، ينادي بعلو صوته:

- اصبروا ورابطوا وجاهدوا، حافظوا على هويتكم من الطواغيت واللصوص وتجار الإرث. سيسألكم أجدادكم عما تركوه لكم، ويسألكم الله عن أرضكم التي ولَّاها إياكم.

يضع السجَّان غطاء الرأس على رأس مصطفى، ويلف حبلاً سميكًا خشنًا معقودا بعناية فوق رقبته، ويفتح بابًا من تحت قدميه، ليسقط فيه متدليًا كقنديل في زاوية ضريح منسي...

لا ثقل يعوقه، ولا وزن يشعر به فوق كاهله، لا جسد يقيِّد حركته... تطوف أمامه الصور: تبتسم آسمين وزينه وزينا. يبتسم في الأفق الشيخ بهي. يرى استلا على كرسيها إلى جوارها الجرامافون. وبشير الطيب يسير مع أمه نبيهة... أصوات تختلط ومشاهد تتشابك...

يفيق مصطفى، يتحسَّس رأسه أثر الصدمة، يشعر بالبرد يملأ جسده المنهك وهو ينام فوق سريره وإلى جواره (دعاء) فتاة عشرينية تعمل في مكتب سياحة قد استأجر شقة استلا بعد رحيلها بأعوام... تقول له:

– حمد الله ع السلامة يا أستاذ مصطفى.

– الله يسلمك... هو أنا جيت هنا إزاي؟

– الدنيا مقلوبة برة يا أستاذ، الشباب شالوك وإنت سايح في دمك، وعرفوا العنوان من البطاقة. طلعناك الشقة وأنا جبت الدكتور قالي أخليني جنبك لحد ما تفوق.

– معلش يا بنتي تعبتك معايا.

– ماتقولش كده، أنا زي بنتك.

– أكيد يا دعاء. أكيد.

– تحب أشوفلك حجز تسافر كام يوم لحد الدنيا ما تهدى؟

– لا يا دعاء، أنا هفضل هنا.

– طيب أنا هستأذن، ولو احتجت حاجة أي وقت كلمني على

الموبايل.

- كتر خيرك. روحي إنتي يا بنتي تعبتك معايا.

تنصرف دعاء، بينما يعود مصطفى لنوم عميق كمرهق عائد للتو من الموت.

(٢٦)
الـوصيـة

الإسكندرية
عام ٢٠٢١

بعد العودة من رحلة علاجية بباريس؛ قرَّر الأطباء أن كل شيء على ما يرام، وأخبروا أبناء مصطفى: علي وعالية وعثمان، أن الأمر لن يدوم طويلاً، فلا شيء يبقى للأبد، وعلينا دومًا أن نتفهم أن النهايات قادمة لا محالة...

فاستمتعوا بما تبقى

استثمروا الزمن

أخلقوا بعض الذكريات

لم يُخلق الطب ليمنح الناس الخلود، ولكن فقط يجعلهم يحيون ما كُتب لهم بحال أفضل...

هذا كان رأي الطب الأقرب للفلسفة منه للطب.

مصطفى المُنهك من طول المسير والمُدرك لحقيقة الوصول؛ يجلس ولأول مرة مع أولاده وأحفاده في منزل العطارين... فلطالما كانت زيارات الأولاد من قبل بغرض التنزُه، وكان

مقر العائلة بالعطارين ليس الاختيار الأمثل لقضاء مثل هذه الأوقات. ولكن اليوم كان الغرض من الزيارة إرضاء مصطفى المُسِّن الذي يدرك أنه يقف على الأعتاب يحاول ما استطاع أن يُوصِل جيلاً بجيل، يحاول أن يربأ صدع الزمكان بينه وبين أبنائه وأحفاده، ولكنه يعلم أن الوقت لن يكون في صالحه.

مصطفى الذي لا يزال مُصِّرًا على أن يدوِّن قصته طالما أن كفه قادرًا على أن يمسك القلم وذهنه قادرًا على استدعاء المعنى؛ يُمسِك بقلمه من جديد ويعود إلى مذكراته، ولكنه اليوم يعلم أن الوقت يهرول من تحت قدميه، وأنه لا يزال يحوي الكثير في صدره ليبوح به.

ولكن بما أن الأطباء قرَّروا إطلاق سراحه، فلم يكن من باب الاطمئنان، ولكن من دواعي الشفقة ألا يموت وحيدًا.

هو يعي أن قولهم إن كل شيء علي ما يرام كانوا يعنون من ورائه أنه مستعد للرحيل، فقرَّر في هذه اللحظة أن يختار ورقة جديدة ويكتب في منتصفها:

وصيتي

بسم الله
بسم الله الإله الذي رأيته في كل شيء جميل حسن
بسم الله الذي ملأ دنيانا بنسق اللون وعذب الأصوات فألهمنا الفنون، والذي رسمته في طفولتي خلسة بملامح الطيبين ولحية بيضاء كالغيوم
بسم الله الذي وعد الفقراء والمهمشين والغجر والغُرباء بحياة أفضل يومًا ما.

اليوم فقط أؤمن بالحاضر، فلا مستقبل نعول عليه مزيدًا من الأمل

فاليوم أكتب وصيتي في حاضر بالكاد أمسك أطرافه

أكتب وصيتي أنا مصطفى رافع سراج الدين، وأنا في كامل قواي العقلية بما لا يتيح للحاوي أو لأي حاوي أن يطعن في قدراتي العقلية أو يعبث بحُسن نواياي

وعليه أوصي بأن توزَّع ثروتي بالتساوي على سبعة أقسام، فكما قسم الله السموات سبعًا والأراضين سبعًا، فقد رأيتُ أن تكون ثروتي مُقسمة على سبع حِصص متساوية:

- ثلاث حصص إلى أبنائي الذين أعرفهم (علي وعثمان وعالية مصطفى سراج الدين).

- وحصة تكون كوديعة لصالح المستشفى الخيري الخاص بي في مدينتي الإسكندرية، لعلها تضمن لبعضهم أن يحيا بحالٍ أفضل.

- وحصة تكون في مدرسة تُعلِّم الناس من أهل مدينتي.

- وحصة تُنشأ بها جمعية للتراث تحافظ على ما تبقى من إرث فني ومعماري للمدينة.

- والحصة الأخيرة تكون لك أنت، نعم لك أنت... إلى ابني الذي لم أره يومًا، ولكن دومًا ما شعرت بوجوده...

ولدي الذي طالما دعوتُ الله أن يجمعني به

ولدي الذي مددت كفَّ الرجاء لله متوسلاً برحمته أن يأذن لي في رؤية ملامحه.

أعلم يا ولدي أنك غاضبٌ مني إلى حدٍّ قد يدفعك للانتقام... ولا ألومك. ولكن عليك أن تعلم أني بحثتُ عنك أو عمّن قد يوصلني بك يومًا، ولكن الله لم يقدِّر لي أن ألقاك، استأذنته فلم يأذن... وكانت مشيئته.

بكيت غيابك، وتمنيتُ أن أضمّك أو حتى أرى ملامحك، فاغفر لأبيك ما كان من تقصير.

أحسبك تجيد العربية.فإخوتك لن يفقهوا ما كتبتُ، فأوصيك يا ولدي أن تقرأ ما كتبتُ بقلبك قبل عينيك وشفتيك، وإن استطعتَ أن تنشر ما قد كتبتُه؛ فافعل.

أشعرُ؛ بل أعلمُ؛ أن الله قد يرسل بكتاباتي هذه إليك، فبهذا دعوتُه، وأثق في رجائي فيه.

وأخيرًا...

يا من قُدِّر لكم أن تقرأوا تلك السطور: اعلموا أن أعماركم المكتوبة جزء من إرث بشري، فأحسنوا إلى أعماركم، واتركوا طيب الأثر، ولا تطمسوا أثر من قبلكم. ابحثوا عن جذوركم وعن أصولكم، ومدوا فروعكم إلى السماء.

مصطفى رافع سراج الدين
الإسكندرية
فبراير ٢٠٢١

(٢٧)
كوما ... وهبة

الإسكندرية

عام ٢٠٢١

مستشفى المصطفى التخصصي

غُرفة العناية المُركزة بقسم القلب

يتوسط الغرفة سريرٌ عليه مريض موصل بأسلاك متصلة بأجهزة إعاشة، والسرير يتدلّى منه بضع ستائر تُظهره بشكل أقرب إلى الضريح؛ خلا إلّا من الولّي.

الإضاءة شبه خافتة، الضوء مُسلَّط على السرير... من نافذة في طرف الغرفة يظهر انعكاس ضوئي، ضوء إعلانات تُضيء وتنطفئ بنسق زمني بين اللون الأبيض والأخضر والأحمر... يعلو السرير شاشة جهاز قياس ضربات القلب ذي خطوط متعرجة (رسم القلب)، والصوت المهيمن صوت جهاز قياس القلب المتقطع...

مصطفى الرجل المُسِّن ذو الـ٧١ عامًا يرقد في سرير بمشفاه بعد أن هاجمته نوبة قلبية حادة...

يُفتح باب الغرفة بيد (وهبة)، متحدثًا للممرضة بحزم:

- يا ست الناس الشبشب نضيف ويعني إيه (أوفر شوز) دي كمان؟؟

يخلع نعليه، كمن دخلوا الوادي المقدس من قبل قائلاً:

- وآدي الشبشب.

يدخل بخطوات متباطئة، ويُغلق الباب من خلفه بهدوء. يقف مواجهًا للسرير.

ثيابه متواضعة، ذو عرجة في إحدى ساقيه، يحمل خُفيّه تحت إبطه ثم يتركهما، يقترب إلى السرير، يتمسح بالستائر من حوله وهو يتطلع إلى مصطفى بشيء من الريبة، يدور حول السرير ثم يدور بناظره في الغرفة حتى يرى كرسيًّا خشبيًّا، يتوجه إليه، يسحبه حتى يجلس على مسافة متوسطة من سرير المريض، يُمعن النظر فيه، ثم يقول بضحكة تهكُمية:

- حلقولك شنبك يا ابن رافع بيه... هيييييه دُنيا...

بيني وبينك، هو كان لازم يتحلق من زمان، بيصفر من السجاير، وأكيد كان بيعاكسهم وهمه بيركبولك الخراطيم دي عشان تفضل عايش...

عارف؟ تلاقي البنت اللي دخّلتني والزيارة ممنوعة هي هي اللي حلقتهولك، عشان هو النظام عندهم كده... أكيد شنبك مش أغلى من عُمرك... هما كده، أكتر ناس بتحافظ ع النظام

هي أكتر ناس بتعرف قيمته وبتعرف تتّمنه، وتبيعه... أصل أنا مادخلتش ببلاش، لاالا أنا مدّيها خمسين جني عشان الزيارة الحلوة دي، وإنت زيارتك تستاهل، ما إنت خيرك سابق.

شوف يا سيدنا الكلام أخدنا ونسيت أعرّفك بيا، أو أفكّرك بيا...

يسحب وهبة الكرسي ويقترب برأسه من رأس المريض هامسًا في أُذنه:

– فاكر حياة؟؟؟ حيااااة... الأُنس والفرفشة بتاعة زمان؟ البت بتاعة إيليت، الغزية بنت الغجر اللي كانت بتلف على الموالد في أحلامك... تهز في مولد سيدي فلان، وتتشقلب في سيدي علان... (يصفِّق بيديه بصيغة تهكمية): مدد يا أسيادنا مدد... الحِتة الخصوصي اللي كنت بتطّفي فيها نار شقاوة زمان... أهو محسوبك بقى (وهبة) ابن أيام الشقاوة ووِلدة النار اللي اتطفت في جِتة حياة من كام وتلاتين سنة...

(مقتربًا هامسًا):

– بس ماتخافش يا ابن رافع بيه، سِرك في بيييير، حياة حافظة سرك ومافتحتش بُقها زي ما أمرت، وطنشت هي كمان زي أنت ما طنشت... ومحسوبك خلاص، ماعدش يفرق معاه إنه يقول أو مايقولش، ولا يفرق معاه إن حد يعرف أو مايعرفش... قُدام الناس إنت مصطفى بيه الفنان الزاهد الرجل الصالح أبو العيال التلاتة من الست هُدى...

مُتنهدًا:

- أمي ماقالتش لحد غيري، على الأقل كان لازم أعرف أنا ابن مين، أظن ده كان من حقي، الأصول كده... ولا إيه يا أبو الأصول؟

كانت الدنيا تليِّل علينا، نطلع ع السطح أنا وهي بعد ما نخلّص مدعكة الشقا والشغل، تقيد سبرتاية شاي ليا وتدب إيدها في عبها وتطلعلي حاجة تحلّي بقي على ما الشاي يغلي، وتمدِّد رجليها ع الدكة الخشب اللي فوق، وتطلّع من صدرها رُبع الزبيب وتفرد قرطاس الترمس، وتشرب وتمز وتسمع الست وتدندن معاها...

مُغنيًا:

- (واصورلك ضنا روحي، وعزة نفسي منعاني. وعزة نفسي منعاني)... قال عزة نفسي قال، إحنا كرامتنا كانت أرخص من البضاعة المستعملة اللي بنبيعها بالقسط لناس مش لاقية اللضا...

أقولها يا أمه هو مين اللي علّمك الشُرب؟ تقولي يووه، هيكون مين يعني؟؟ أبوك يا واد يا ناقص رباية... وماكانتش بتقولي إنها بارتندر واشتغلت في نص بارات إسكندرية... أضحك وأقولها يا عيني ع الرباية، فتزغدني في كتفي وتتعدلي وتحكي بلهفة:

(كنت أخبّيله رُبع الزبيب، والسجاير أدّسهم في عبي وأنا داخلة عنده العمارة من ورا رضا البواب، وأزايز البيرة تطرقع تفضح أُمي ع السلم، بيته كان مفتوح وفاتح قلبه لكل الناس من كل شكل ولون، إشي بتوع حضرة وإشي بتوع فن وسآفة وإشي وإشي... وكان أبوك أبو الكرم يفتح بيبانه ويقابل حابيبه... كان الغلابة كتير: دراويش وبهاليل وغجر، صعايدة وجريح وطلاينة... بس بيت رافع وابنه طول عمره عمران... يخلص مشاغله وينفض المولد ويشيعلي ونقعد نشرب ونتسامر، ما هو ماكانش أهل العمارة ينفع يعرفوا إنه بيشرب ولا ليه في الدخان، لا الخواجات يحبوا اللي زيي، ولا ولاد العرب يقبلوني).

كانت الضحكة اللي مليانة أمل تملا وشها وهي بتقول: (كان يقولي بُكرة يا حياة هافرشلك شقة بدل المطرح تلاتة وأربعة، وهاجيبلك بار زي اللي بيطلعوا في الفِلل الأوبهة اللي في السيما وأملهولك ويسكي نضيف وشامبانيا من اللي بتطرقع في حفلات الأكابر بدل منقوع البراطيش اللي بيحرق صدرك ده... وكنت أولعله السبرتايه زيك كده، بس هو كان كيفه في القهوة، يطحن بُنه عند حمدي وأعمله فنجان القهوة، واكفي الفنجان بعد ما يخلص عشان أقراه زي الولية اللي كانت سحراله... كان يضحك ويقولي أنا اللي بامشّي الفنجان على كيفي يا عبيطة مش الفنجان اللي بيمشيني... كان عنده غمزاتك يا وهبة، بس ماكانش عنده حّسنتك... وأول ما أقوله

فيه طريق مسدود؛ يبل طرف صباعه ويعدّيه فوق نقشة الفنجان، ويضحك ويقولي ها؟؟ سلكت يا نوشا؟؟؟).

طيبة أوي أُمي دي، ماكانش فيه غير سيرتك بتفرّج عنها وتصبّرها.

قالتلي إنها لما حبلت؛ جاتلك، وإنك طنشت، وإنها خافت عليا من أهلك اللي في الصعيد وأكابر قرايب الست آسمين...

مُتهكمًا:

– والله كتّر خيرك.

متبسمًا تهكمًا، ثم ضحك متصاعد تدريجيًا:

– وحكتلي...

يضحك أعلى:

– وحكتلي على اتفاقك معاها إنك تفضل طول الوقت واخد بالك منها، مع إنك مافكرتش مره تسأل عليها ولا حتى تعرف إن كان اللي جابته يخصك ولا لأ... نُكتة مش كده؟...

إلا إنت صحيح كنت عاملها عمل من أعمال الجلب؟؟

كانت تقولي: (ياما نفسي أشوفك ضل أبوك ع الأرض، أبوك كريم يا ولا، خليك زي أبوك... أبوك ناشف يا واد، انشف زي أبوك).

يقف وهبة ويمشي بعرجته، ويكمل:

– (... نفسي أشوفه فيك).

بوقفته، ومشيته؛ ضاحكًا:

– بس تقول إيه بقى يا سيدنا؟ أمي نسيت إني ماحلتيش آكّل نفسي عشان أبقى كريم، وإني أخدت عُولق ماخدهاش أوسخ نشَّال في عربية حريم في الترام... وزاد وغطّى إني أعرج، أمي كانت بتنسى إني أعرج...

بصوت عالٍ ممزوج بضحك المُتحسّر:

– أنا أعرج يا امه...

عربية مشروع بسّواق أعمى القلب خلت محسوبك على دا الحال، وماكانش حليتنا اللي يصلّح رجلي ويمشّيني زي الخلق... كنت في تالتة إعدادي، والدكتور قال هيمشي بس مالوش كورة تاني... آه ما أنا رُحت مدارس ولعبت زي باقي العيال كورة في الشوارع زي ما شُفتني وكنت ناوي تبقشش عليا بعد ما اشتريت السجادة الحمرا... وخلّصت دبلوم صنايع، الحال ماكانش أد كده، بس مشيت...

يُخرج وهبة سيجاره يبلّها بأطراف لسانه ويشير بها لمصطفى: تسمحلي؟؟؟

ولا ماتسمحش، أهي ريحة الدخان هتكون أحسن من ريحة الموت اللي في المكان.

مُشعلاً سيجارته:

– عارف يا ابن رافع بيه؟ الموت ده للي زي حالاتي نعمة، رزق لولاد المحظوظة اللي اتكتبلهم يبطلوا شقا...

يسحب نفسًا عميقًا من سيجارته:

– علي سيرة الحال اللي ماكانش أد كده؛ لما كنت أسال أمي: هو أبويا ليه عمره ما بعت اللي يكفّينا؟ ليه سابني سرّيح بسجاد وأنا عيل باتكسر أما أسمع صوت مسوجر بيبان العربيات بيطرقع في ودني لما أقرّب منهم ويشوفوا سِحنتي كإني جربة، مش ابن ناس زيهم؟ ليه سابني سرّيح مع عم مطاوع وأشوف شبابيك الخلق بتترزع وأنا بأزعق معاه ع السجاجيد؟... كانت تمصمص شفايفها وتفك منديلها وتورّيني اللي فيه وتقولي: (يا اعمى القلب، ما كله من خير أبوك).

خير أبويا شوية فكة في مناديل مايجيبوش شقة فول يا أم وهبة؟ وتضحك وتقولي: (يا عبيط، الحُب مش بهات ولا بكام... الحب طول عمره خُد، خُد وبس)...

ضاحكًا:

– وإن جيت لـ خُد دي، فأنا أخدت لما قولت يا كفى، أنا الدنيا حبّتني لما جابت مني عيال...

كانت تقولي: (إنت عبيط مابتعرفش تحب، ثم هو عايزك تنشف، عايزك دكر من صُلبه).

مش عارف إشمعنى الوحيد من ضمن اللي جابهم؛ لا مؤاخذة من صُلبه؛ عايزني ناشف أوي كده.

نافثًا دُخانًا كثيفًا من سيجارته:

- أبشّرك بقى، أنا نشفت... نشفت لما انحنيت واتقطمت، ياكش يعجب وتكون راضي...

آه صحيح، عيالك التلاتة اللي من صُلبك لسه بيقطّعوا في بعض ع الوِرث على حياة عينك؛ برة المستشفى، جُم من فرنسا يقسّموا الورث... الكبير عافق في الأرض، والدكتورة شايفة إن المستشفى دي والصيدلية اللي تحتها؛ من حقها، والصغير شبطان في المحلات وبيغيَّر في يفط النيون وبيحط عليها اسمه، بس أصيل حطّها بالأخضر برضه... مولد يا أبا... وابن الغازية مالوش نصيب الأولياء...

بس لا... لعلمك أنا مش هنا عشان الورث، توء، أنا طول عمري برة الخناقة، طول عمري عارف إني ماليش في ورثك حاجة... مش نزاهة ولا شبع، أنا عمري ما فهمت يعني إيه نزاهة ولا عرفت طعم الشبع، بس وِرثك مايلزمنيش...

يقترب من الشباك، يلقي بسيجارته:

- اسمك اللي ملعلع بالنيون فوق محلاتك بالأحمر والأخضر؛ مازغللش عينيا، ولا الطين والفاكهة والدوّار اللي ترمح فيه الخيل في العزبة بتاعة رافع ولا الزناتي؛ يلزمني بحاجة، ولا حتى المستشفى الفخمة اللي ملقحينك فيها لا إنت عايش ولا إنت ميت دي... مايلزمنيش وِرث من حد عمره ما ورّاني وشه ولا اعترف إني عيل من عياله... أنا مش شبعان، أنا بس مستغني.

مُقتربًا من السرير:

– سامعك بتقول إيه اللي جابك يا ابن حياة؟؟؟

أقولك يا سيدي: أنا جاي أخلّص الحدوتة دي، جاي أقسّمها قِسمة الحق اللي تريح بالي... أخلص أنا من روحك المتعلقة ولا هي في سما ولا هي في أرض...

مُمسكًا بأحد الأسلاك:

– تُفك السلك ده، ابعتك إنت من مكان ما جيت، والتلاتة اللي برة دول يتقاسموا هما في ورثك بمعرفتهم، مش قصتي، وأنا أبقى خلصت...

مُسهبًا بعصبية متصاعدة:

– أيوه خلِصت... خلصت من ضلك اللي ملازمني ومخايلني طول عمري، من قولة أبويا اللي مش أبويا، من اسمك اللي ماعرفتش أشيله واسمي اللي مارضتش تشيله... أيوه يا أبا، إنت كنت حِمل على كتافي مش عارف أرميه طول عمري زي ما إنت رميته من أول يوم حمل، زي البضاعة والسجاد اللي لفيت أسرح بيهم... عُمري كله وإنت مستخبي، أقول بكرة ييجي، بعده يظهر، هيفتكرني... عمري كله وأنا صابر على رزالة الخلق وتلطيش الدنيا وضهري للحيطة ووشي مداس لأوسخ شبشب في الشارع، وأقول ياض ليك أب بكرة ياخد بإيدك ويسند ضهرك... لما قرفت وزهقت وكفرت، زهقت من الدنيا والناس ومن سيرتك، من زن حياة وصوتها اللي زي الشمع

فوداني: (دودودودودود أبوك أبوك أبوك)...
ملعون أبويا على أبوها على أبوك.

يهدأ وهبة من جديد بخطواته المتباطئة ويعود إلى كرسيه:

- بس عارف؟ وأنا عيل كنت لما الدنيا تزنّق معايا؛ أجري على عتبة دكانك أشوف صورتك واسمك بالنيون ع المحل (مصطفى رافع وأولاده) كنت عارف أقراها وفاهم إنك ماتقصدنيش، بس كنت باطمن وأحس بعزوة... وحتى لما كبرت، مع أي خناقة مع العيال الشوارعجية كنت أتطحن ضرب وتيجي عليا ساعة وسط الأقلام والهبد في جتتي أبقى خلاص ماحلتيش غير صوتي، يبقى نفسي أصرخ فيهم وأقول لهم أنا ابن مصطفى رافع يا رمم، نفسي أزعّق وأقول: (بصوت مرتفع) يا اباااااا... بس كنت باسكت، لساني عمره ما طاوعني أقولها... بس كنت أتطقس واعرف إنت في أنهي دكان، وأعدِّي من قُدامه، ومهما الخناقة قطمت ضهري شوفتك كانت بتخليني أعفق أتقل سجادة على ضهري وأزعق بعزم ما عندي عشان تلتفت لي (صارخًا): أيواااا يا سيجاااااااد يااااااا صوووووووووووووووف...

مُبتسمًا:

- وكنت تبصلي وتضحك، ضحكة من اللي بتشد الضهر وترفي القلب، كان بيبقى نفسي تندهلي وتقولي إيه إلى دشملك كده ياض؟

واضعًا يده فوق يد مصطفى:

– أيوه يا ابا... أنا الواد السريح اللي كان بيعدي ويزعق ع السجاد قدام دكانك... أنا الواد اللي واخد كفك وسارق منك ملامحك وروحك غصب... الواد اللي شبهك أكتر من عيالك...

يجلس على الأرض مُمددًا ساقيه مُمسكًا بالسلك من جديد، وساندًا بظهره على السرير:

– أمي لما كنت باحس منها إن لسه نفسها مفتوحة ع الدنيا؛ كنت أقولها: هو إنتي ليه يا امه ما اتجوزتيش ولا روحتي لحد من بعد أبويا؟ كانت تضحك بعولقيه وتقولي: (هو بعد أبوك فيه رجالة يا حيلة أمك؟)... وتبص في عيني وتقولي: (قاريا‌ها في عينيك، بتقول في عقل بالك أُمي مرة وسخة... آه وسخة، بس أُمك، يعني ماتتحمقش أوي لو حد قالك يا ابن الوسخة، ابقى عديها)...

بعصبية تقليدًا لـ نوشا:

– (بس اللي يقولك يا ابن الكلب ارفع أوسخ جزمة ونسّلها على بوق اللي جابته)...

ضاحكًا:

– (إنت ابن حرام آه بس ابن أصول... فقران آه بس ابن عز... أوعى تنسى إنت ابن مين لتتوه، لو توهت في الدنيا دي مش هترجع يا ابن حياة).

كانت تقولي: (أبوك لو ماكانش سيد الرجالة كان طخّني وطخّك، وكان يقدر وإيده طايلة، ماكانش سابك في حضني ولا كان ساب حملي يكمل، كان قطع حسي واسمك من الدنيا قبل ما تشوفها)...

رافعًا رأسه إلى السرير:

- بلطجة هي؟؟؟ جاي الدنيا بلطجة وعشت فيها بلطجة إنت لا فقر ولا مسؤولية ولا جوع، فنان سارح بين مصر وبلاد برة، وارث ملايين ومش ناعي هم الدنيا، ولا حتى بتسأل عن نتايج أفعالك... طب كنت اسألني، كنت هاقولك طُخني، طالما كان الموضوع في إيدك كنت حتى إديني فُرصة ولو مرة إني أختار...

لحظات صمت قصيرة.

بصوت مُنكسِر:

- حياة كانت بتحبك أوي، عملت ما في وسعها عشان تورّثني الحب ده، آه تورثني الحب، الحب وبس، عمرها ما قالتلي إوعى لورثك في أبوك...

تعرف إن حياة ماتت؟

وحياتك إنت ماتت...

لا مش من الجوع، مع إن الجوع نفسه أكل منا لما شبع... المية هي اللي موتتها، الشُرب اللي دخّلها دنيتك عشان كيفك، وخرّجها من عِزك عشان هي مش أد المقام، أكل حشاها وخرّجها

من الدنيا كلها، الكدبة اللي علمتها ولبستها ووعدتها بيها والغلبانة صدّقتها؛ هي اللي موّتتها... ماتت قبل ما تدوق كاس ويسكي نضيف مايحرقش الصدر ولا نار جهنم، وقبل ما تطرقع إزازة شامبانيا زي أفلام السيما... شِربت، سِكرت، دندنت، ونامت ع الدكة الخشب في السطح، والست كانت بتقول نفس الكوبليه...

مُغنيًا بصوت منكسر:

- (هافضل أحبك من غير ما أقولك)...

نامت، عينيها غرَّبت... ومارجعتش.

يوميها عرفت وأنا شحط كده إني ماليش حضن أترمي فيه ولا ضهر أتسند عليه... يوميها عرفت إنك مابتبعتش فلوس، وإنها كانت بتصرف عليا من الخدمة في البيوت والكفية ع المكنة، ومن تلقيطي مع مطاوع سريح بعد ما قرروا مايربنويش بفلوس خمرة عشان نِجسة...

لمينا من ولاد الحلال عشان ندفنها، وابنك الصغير شحت تمن الصِوان والكفن، وواقف متكتف، ولا كان حيلتي اللي يعالجها ويمد عمرها ساعة وهي عايشة، ولا اللي يشتري متر قماش وحفرة في الأرض يسترها يوم ما ماتت... وقفت في طوابير الشحاتين زي ما كنت بأقف كل عيد آخد كيس اللحمة وأطاطي أبوس إيدك وامشي...

ضهري اتحنى يا مصطفى بيه، ورقبتي دلدلت من عفق بضاعة وسجاد وتوطية عشان أبوس إيدك وإيد صبيانك وأنا باخد من حقي فيك...

كان هيجرى إيه في الدنيا لو كنت زي باقي الخلق؛ جاي في الدنيا عارف راسي من رجلي: أمك اهه وأبوك اهه وسكتك اهه؟

لااااا إزاي، لازم تبقى فزورة، لُغز: أب جه وماجاش، وأم تلفّفك حولين نفسك، ترضّعك حب واحد ماشفتوش وتلفّفك عمرك تفرجّك عليه من بعيد وإنت بتعافر عشان تعيش في دنيا مش عايزاك تعيش فيها...

مُتعكِّزًا على السرير ليساعده في النهوض:

– إحنا بقى لو فصلنا السلك الصغير ده يبقى خلصنا من الفزورة اللي أنت معيشيني فيها؛ عيل يتيم زي أي حد...

السلك لا يزال في يديه موجّهًا كلامه بعنف لمصطفى:

– بس لو تحب نتحاسب يا بيه؛ نتحاسب، وكله متأيد، وبالأصول... ما هو زي ما إنت كنت بتأيد في دفاترك وتجارتك؛ أنا كمان كنت بأيّد عمري...

مش هأقولك طردت حياة من حياتك ومالك وأراضيك وزرعك، وحقك تطردها... ولا هأقولك عمرها اتقصف بسببك، أنا راضي وهي راحت راضية... بس هحاسبك على شقايا وشقاها، على

قطمة ضهرنا وذُلنا للي يسوى واللي مايسواش، على غُربتي ويُتمي على حياة عينك ووحدتي وسط عزوتك، على كل ليلة نمت متعشِّم في حُضنك ومالقتهوش، وكل يوم كنت عايز أتحامى فيك وأتضلل بيك ومالقتكش، عن كل كلمة (يا أبا) كانت طالعالك ومسمعتهاش...

يعني يوم ما أقطع عنك السلك ده تقطع بعده النفس يبقى بحق... ونبقى خلصين...

نبقى خالصين يا سيدنا، ولا ليا عندك حساب ولا ليك عندي واجب.

وحُط في بالك إن ماكانش في يوم من حقي أختار، لا اخترتك أب ولا اخترتها أم، ولا اخترت الفقر ولا الشقا...

بهدوء:

- بالعكس، أنا لو فصلت السلك ده أبقى باخدمك... في اللحظة اللي هارتاح منك فيها هاريّحك مني، لا أنا أعيش في دوامة ليا أصل ولّا ماليش، ولا إنت تبقى موجود ومش موجود... وبدل الجهاز اللي عمال يزمّر ده تيت تيت تيت تيت ومصدّعني، والخط اللي ع الشاشة بدال ما هو معوج كده شبه الدنيا اللي عيشتهالي...

بصوت أكثر هدوءًا، وسكون مفاجئ:

- يبقى خط مفروووود وصوت واحد توووووووووووت....

بذمتك يا شيخ مش كده أريح وأروق... تحِل عن دماغي، وأحِل أنا عن سماك...

مترجلاً بهدوء للكرسي ليجلس... مُمسكًا بالسلك متأملاً فيه لبرهة قبل أن يبدأ حديث بانفعال متصاعد:

- بس أنا لسه باخاف... وباخاف أكتر لتروح... طول عمري كنت باستقوي بيك، أول ما أقع ولّا أعمل مصيبة وأنا عارف إنك مش هتساعد... وطول عمري كنت عارف إنك أخر كارت ممكن أكشفه قُدّام الناس، فبقيت باخاف... باخاف منك ومن الناس ومن الأيام، باخاف من اللي حصل إمبارح ومن اللي هيحصل بكرة، باخاف يا أبا؛ من الضلمة ومن الموت ومن كلاب السكك، باخاف من الجوع ومن المرض ومن الحوجة، لا ضهري قادر يوطّي أكتر ولا يشيل اتقل من اللي شاله، ولا صوتي قادر يجيب أخر بلكونة وأنا بانادي، ولا جِتتي عادت حمل عُولق، ولا وِشي حمل أقلام يا ابا...

يُمسك السلك بعصبية:

- ولا موتك هيريّح ولا عيشتك هتريّح... مفيش حاجة هترجّع حياة، ولا حاجة تعوّضني شقا السنين اللي فاتت...

مُشيرًا له بسبابته:

- بس لو فيه نصيب واتقابلنا في يوم من الأيام؛ خليك فاكر إن وهبة ابن حياة سابك تعيش... ويبقى عُمر بعُمر... وزي ما سبتني أنا وأُمي نعيش؛ وهبة خلّصك من شقاك بدل ما إنت

عايش ميت... ونبقى إحنا كده خالصين...

سلام يا سيدنا.

يترك وهبة السلك وينصرف من الغرفة... ينتعل خُفيه ويخرج من الغرفة بهدوء وهو يتطلع إلى السرير.

لم يكن وهبة يعلم أن روح مصطفى قد فاضت فور خروجه من الغرفة.

تفيض روح مصطفى من جديد، تطوف الأماكن من موضعها، يذهب ليس ناقمًا من فعل وهبة، وليس غاضبًا من غياب زينة...

تفيض روحه لتقف بين ملايين الأرواح التي عرفت ما كُتِب على الأبواب بعد الخروج.

يخرج وهبة من المستشفى وفي انتظاره فتاة خمرية.

إنها هي...

هي... هي...

بطلّتها وبهائها وغرورها المرسوم في لوحات مصطفى وموشوم في قلبه، إنها (زينا) (زينة) (زوزو)، أو (زينب) صديقة وهبة، يشق معها طريقه في شوارع العطارين، تسأله:

– ها خلّصت زيارة المريض؟

– خلّصت يا زوزو؟

– طول عمرك صاحب واجب. تعالى بقى ألففك لفة في وسط البلد وأحكيلك حكاية كل رُكن فيها.

تتعلق في ذراعه، وتحكي له عن الإسكندرية، وكيف دخل الإنجليز بشجار العجاتي، وعن أول سينما، وعن سيد درويش، وعن الإسكندر خطيبها، وعن وجه الشبه بين الشيخ سيد درويش والإسكندر المقدوني...

وعن قصة رجل عاش الدهر كله بروحه بين الزمن، وعن عشقه للمكان وعن عشق المكان له.

❖ ❖ ❖

وُجِدت هذه المذكرات في منقولات المغفور له
(مصطفى رافع سراج الدين)
من مُقدِّمة وستة وعشرين فصلاً
وأُضيف الفصل الأخير، وتمَّ النشر على يد (و. م)
الذي اجتهد ليحفظ الإرث
وينقل ميراثًا يستحق أن نصونه.

المؤلف في سطور

- كاتب وروائي وشاعر عامية مصري
- وُلِد في الاسكندرية عام ١٩٨١م، ومقيم حاليًا بالولايات المتحدة الأمريكية.
- حاصل على البكالوريوس من كلية التجارة جامعة الإسكندرية، عام ٢٠٠٢ م.
- بدأ الكتابه منذ مرحلة الدراسة الجامعية، وساهم في تلك الفترة في كتابة بعض أغاني فريق (نُميرا) الذي أسَّسه صديق الدراسة (حمزة نِمرة).
- سافر بعدها للعمل بالخارج، ولكن بقي الود موصولاً بالكتابة من خلال بعض التجارب الشعرية التي قُدِّمت في إصدارات غنائية، غنَّاها حمزة نمرة وآخرون من مطربي جيله.
- له بعض التجارب في الأفلام الوثائقية والقصيرة التي شاركت في عدد من المهرجانات الدولية.
- له بعض القصص القصيرة والمدونات كان قد نشرها على صفحته الخاصة.
- (حي العطارين) هي التجربة الأدبية الأولى في مجال الرواية، صدرت عن مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٢٣م.
- البريد الإلكتروني: **sameh.gad@hotmail.com**

شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net